

892.709
M236A
V.1
C.2

الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث

وهي دراسات تحليلية للعوامل الفعلية في النهضة العربية الحديثة
ولظواهرها الأدبية الرئيسية

ابن الصورى المقدسى

أستاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الأميركية
وعضو الجمع العلمي العربي

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

الطبعة الأولى



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ | فَخْرُ الْمُهَاجِرِ | مَعْلَمَةُ الْمُهَاجِرِ | مَهْدِيَّةُ الْمُهَاجِرِ

فِي كِتَابِيْنِ قَبْلَهُ فِي كِتَابِيْنِ بَعْدَهُ
كِتَابُ الْمُهَاجِرِ وَكِتَابُ الْمُهَاجِرِ

الجزء الاول

وبتناول نقطة الشعور القومي في العالم العربي منذ اواخر الحكم العثماني حتى عهدا الاستقلالي الاخير الذي تم فيه انشاء جامعة للدول العربية تتوالى النظر في شؤونهم العامة والدفاع عن مصالحهم المشتركة .
وما حرك ذلك في نفوسهم من خواج نثرية وشعرية .

مِيقَاتُ الْمَلْعَانِيَّةِ

جَامِعَةُ بَيْرُوتِ الْأَمْرِكِيَّةُ

مَدِيشُورَاتِ كُلِيَّةُ الْعِلُومِ وَالآدَابِ



سِلْسِلَةُ الْعِلُومِ الشَّرْقِيَّةِ :

الْخَلْقَةُ الْأَكَادِيَّةُ وَالْعَشْرُونُ

سِلْسِلَةُ الْعُلُومِ الشَّرْقِيَّة

- (١) - (٣) مجموعة الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا
للدكتور اسد رستم . المجلدات الاول والثاني والخامس . سنة ١٩٣٠-١٩٣٣
- (٤) امراء غسان لثيودور نولدكه . ترجمة الاستاذين بنديلي جوزي
وقسطنطين زريق . سنة ١٩٣٣
- (٥) مجموعة الاصول العربية المجلدان (الثالث والرابع) . سنة ١٩٣٤
- (٦) اليزيدية فديعاً وحديثاً للامير اسحاق جوبل . نشره الدكتور قسطنطين زريق . سنة ١٩٣٤
- (٧) عمر ابن ابي ربيعة للاستاذ جبرايل جبور . الجزء الاول : عصره . سنة ١٩٣٥
- (٨) اسباب الحلة المصرية على سوريا كما تظهر في سجلات عابدين الملكية
للدكتور اسد رستم . سنة ١٩٣٦
- (٩) تاريخ ابن الفرات : لناصر الدين محمد ابن عبد الرحيم ابن الفرات
المجلد التاسع ، الجزء الاول . نشره الدكتور قسطنطين زريق . سنة ١٩٣٦
- (١٠) تاريخ ابن الفرات : المجلد التاسع ، الجزء الثاني . حققه وضبط نصه
الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة بخلا عن الدين . سنة ١٩٣٨
- (١١) الاخطارات في فلسطين سنة ١٨٣٤ كما تظهر في سجلات عابدين الملكية
للدكتور اسد رستم . سنة ١٩٣٨
- (١٢) ديوان ابن الساعاتي . نشره الاستاذ انيس المقدسي . الجزء الاول . سنة ١٩٣٨
- (١٣) عمر ابن ابي ربيعة : للاستاذ جبرايل جبور . الجزء الثاني : حياته . سنة ١٩٣٩
- (١٤) تاريخ ابن الفرات : المجلد الثامن . حققه وضبط نصه الدكتور
قسطنطين زريق والدكتورة بخلا عن الدين . سنة ١٩٣٩
- (١٥) العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث للاستاذ انيس المقدسي . سنة ١٩٣٩
- (١٦) ديوان ابن الساعاتي . نشره الاستاذ انيس المقدسي . الجزء الثاني . سنة ١٩٣٩
- (١٧) تاريخ ابن الفرات : المجلد السابع . حققه وضبط نصه
الدكتور قسطنطين زريق . سنة ١٩٤٢
- (١٨) الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة . الجزء الاول . حققه وضبط نصه الدكتور جبرايل جبور . سنة ١٩٤٥
- (١٩) معجم الالفاظ العالمية في الموجات اللبنانية للدكتور انيس فريحه . سنة ١٩٤٧
- (٢٠) الكواكب السائرة الجزء الثاني حققه الدكتور جبرايل جبور . سنة ١٩٤٩

تَفَهُّمًا لِيَهُ، يَا مَعْنَى مَنْهُ تَهْبِي فَيَسِّرْكَ الْجَاهَ لِيَلْعَمَ الْجَهَانَ لِيَنْبَاهَ لِيَرْبَاهَ
نَأْوَالَ إِلَيْهِ وَمَهَارَتَهُ لِيَلْعَمَ تَهْبِيَهُ لِيَهُ، لِيَقِنْهَا

تَلْبَاهَا مَنْهُ تَهْبِيَهَا تَفَهُّمًا، يَغْيِيَهَا لِيَنْهَى مَنْهُ تَهْبِيَهَا وَتَقْنَهُ لَهُ
لِهِ وَلَعْبُ قَلْبِهِ، نَيَّرَتْنَاهُ بِهِ فَلَعْنَاهُ سَفَلَ لَهُ بِهِ تَهْبِيَهَا
نَأْلَهُ لَيَلْعَمَ تَهْبِيَهَا، يَأْنَسَهَا سَعَاهُ نَيَّرَهَا لَهُ بِهِ بَلْعَابَ كَلْهُ
تَفَهُّمَهَا لِيَهَاهُنَّ، نَأْلَهُ لَهُ بِهِ بِهِ مَاهَةَ لِيَهَاهُ

إِلَى الْقِرَاءَةِ

هذه محاولة جديدة في درس الأدب الحديث يراد بها تحليل العناصر المختلفة التي يتألف منها جوهر الأدبي والرجوع إلى الأسباب التي أثارت اموجة العاطفية والفكرية. وهي محاولة شاقة فالباحث الرائد لا يرى حوله إلا ادغالاً مشتبكة لا طرق معبدة فيها ولا معلم واضح . وقد كابد المؤلف من ذلك ما لا يعرفه إلا زملاؤه من رواد هذه المباحث وكانت مهمته أن يقرأ آثار النهضة الأدبية الحديثة - غثتها وسمينها - المشهور وغير المشهور منها ثم ينظم من ذلك كله ما يعكس التطورات الاجتماعية والسياسية والفكرية ويقابلها ورد من أقوال الباحثين السابقين وما ثبته من أحاديث المعاصرين فضلاً عما عرفه باختباره وكان له اثره الخاص في نفسه .

وقد تهيأ له في هذا السبيل شيء كثير من مطبوع ومحظوظ ومن مؤلفات منشورة وأوراق خاصة . بيد أن ذلك لم يظهر منه في كتب المراجع إلا ما اعتمد مباشرةً لشاهد أو عبارة مقتبسة وهو لا يزيد عن نصف ما دعت الحاجة إلى مراجعته .

وما لا بد من ذكره أن معظم الفصول الواقعة تحت باب « الاتجاه القومي » كانت قد نشرت حلقات متتابعة في مجلدين الثالث والرابع والخامس والستين من مجلة المقططف بعنوان العوامل الفعلية في الأدب العربي الحديث . وقد تكرم رئيس تحريرها يومئذ بكلمة في هذه الفصول ثبت منها الفقرة التالية : « ومن بواعث اغتياب المقططف أن اتيح له نشر هذه الفصول النافية الممتازة بالقصي الدقيق والانصاف والتحليل العلمي والتاريخي ووصف تقلب الحالة النفسية في الشعوب العربية خلال الفترة التي تناولها ولا يخفى على القارئ المتبرر ما تكبده الاستاذ المقدسي من مشقة في مراجعة الصحف والمجلات لاستخراج ما نشر فيها من آباء النهضة القومية العربية في شتى مراحلها وما قبل فيها من الشعر ثم في مراجعة الدواوين العربية التي طبعت ونشرت في مصر

وسوريا ولبنان وال العراق والهاجر الاميركية فجاءت هذه الفصول « ديوان النهضة العربية » او هي مهدت الطريق لوضع هذا الديوان .

وها نحن نقدم للذين يعنون بشئون الادب العربي والنهاية الحديثة هذه الدراسات ولا ندعى انها بلغت الغاية في هذا السبيل وإنما نرجو ان تكون وسيلة يستطيع بها طلاب العلم والراغبون في البحث ان ينظروا في ادبنا الحديث نظراً منطقياً وان يتفهموا خوالج العرب في هذا القرن وبواقعها الحقيقة .

فـ *النهاية* يـ *كتاب* لـ *مـ . فـ . مـ .*

بيروت -

مـ . فـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١ .
عـ . زـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ٢ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ٣ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ٤ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ٥ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ٦ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ٧ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ٨ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ٩ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١٠ .

ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١١ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١٢ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١٣ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١٤ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١٥ .

ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١٦ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١٧ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١٨ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ١٩ .
ـ . لـ . مـ . مـ . كـ . مـ . تـ . ١٩٢٧ . طـ . ٢٠ . جـ . ٢٠ .

نوطنة

في الثابت والتجدد في الأدب

في الأدب عنصراً مختلطاً : عنصر الثبوت وعنصر التجدد . ونعني بالثبوت تلك الأحاسة التي تضمن للأدب خلوده من جيل إلى جيل . خذ مثلاً رواية القدماء فانت لا نزال نتناشدها إلى الآن ونحن نشعر بروعتها وتأثيرها كما شعر الذين قبلنا وسيقرأها من بعدنا ويشعرون بها شعورنا وشعور الناس في كل زمان ومكان . وما ذلك إلا لأن فيها جمالاً ثابتاً مع الأجيال هو سرّ خلوتها وهو الذي يجدو أهل الثقافة عند كل الأمم الى مطالعة روائعهم القديمة والتمتع بها .

وها نحن أبناء العربية في القرن العشرين على بعد عهداً عن عهد أميِّ القبس وزهير وعمر بن أبي ربيعة وأبي نواس وأبي تمام والمتني والبحتري والمعري ومن في طبقتهم من الشعراء تراثاً نردد الكثير من آقوالهم ونحمل النسخ الجديده على تدارسه وحفظه . ومن من يستجيز لنفسه أن يقول أن تقادم العهد قد ذهب بهذه الروعة الحية التجسدة مثلاً في رائبة عمر أذ نراه واقفاً عند الماء على شرفة وادٍ وهو يراقب من بعيد نجيم القبة التي تقيم فيها فناه . ثم نسمعه يقول :

وبتْ اناجي النفس ابن خاؤها وكيف لما آتني من الامر مصدر
فدل عليها القلب رياً عرفتها ها وهو النفس الذي كاد يظهر
في هذه الكلمات التي تصور لنا الحب هادياً حين لا هادي سواه والتي تحمل علينا
من الحبيب طيب رياه نعم يطربنا وجمال يخلو لنا كلما قرأناها او سمعناها . وذلك
نفس ما يعترينا عندما نسمع العباس بن الأحنف يخاطب سربقطاً بـ لسان الواجد
المشتاق :

بكينتُ على سربقطاً اذ مررن بي فقلتُ ' ومثلي بالبكاء جديري' ✓
أسربقطاً هل من يغير جناحه لعلي الى من قد هويت اطير

وهوذا المتنبي يقرأ سفر الحياة وينقل لنا منه بقلمه الفنان ما يحرك النفوس ويحرز الوجدان . فلا غرابة ان تصبح اقواله على السنة الناس حتى اذا احتاجوا الى ما يشحد همهم ويوحظ عزائهم قالوا :

ذرني انل ما لا ينال من العلى فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل
تريدين لقمان المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ذير النحل
و قبله غاص ابو قام على المعاني الفخمة وانشدتها للناس في انعام رائعة . واي ادب
اليوم يقرأ ايقاعه النازية ولا تعترى هزة المغامر الذي لا ينطلي في سبيل العلي بالاهوال
والخاطر :

ولكتني لم احرو وفرا مجئا ففزت به الا بشمل مبددا
ولم تعطني الايام نوما مسكنـا الذـ به الا بنوم مشردا
وطول مقام المرء في الحي مخلق لدبياجته فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت سبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وما يصدق على هذه الامثلة القليلة يصدق على المئات من الروائع القديمة . ولن يكون الادب ادبـا عاليا ما لم تكن فيه هذه الروعة الحالدة التأثير منها بعد مكانها او زمانها اذ هي قافية على اسس نفسية ثابتة يشترك فيها جميع الاحياء العاقفة .

على ان ثبوت الروعة الادبية لا ينفي ان يكون في الادب عنصر آخر هو عنصر التغير او التجدد . وعني به تلك النزعة الى التطور والسير في مسالك جديدة . فالادب مرآة يعكس لنا الحياة والطبيعة وما يثير انه في النفس البشرية من خواج وافكار . وبديهي ان الطبيعة الجامدة قلما يسمها هذا التطور المستمر . فالبحر والجبل والروض والوادي والمطر والغابة والصحراء وسواءـا من المشاهد الطبيعية هي هي منذ اقدم الازمنة الى الان وقد عرفها الانسان القديم كما عرفها الحديث وانما يتفاوتـان في التقرب منها والنظر اليها والتلطف ببناجاتها وفهم آياتها .

اما الحياة الانسانية او البيئة العمرانية فسرعة التطور لا تستقر على شكل واحد او نظام واحد . ومن البين ان اختبار الانسان في القرن العشرين غير اختباره في القرون الغابرة وان الحياة في لندن ونيويورك وباريس غيرها في بادرة نجد او غابات السودان او نجود تيت . وعلى تقدم الانسان في الاختبار تقوم النهضـات العمرانية

وبها يحصل هذا التطور المطرد في المجتمع البشري . وهذه النهضات تتعكس لنا في آداب كل الأمم على اختلاف أحوالها ودرجات ارتفاعها .

فالآدب من هذه الناحية متتطور متغير لأنه يعكس لنا العوامل الفعالة في النهضات العمرانية السائرة في سبيل التطور العام . وعلى ذلك نرى في آداب العصور المختلفة ظواهر ينفرد بها عصر دون عصر كـ ينفرد مثلاً العصر الجاهلي عن العصر العباسي أو الاندلسي . ومن هنا منشأ هذا الاختلاف بين القديم والجديد .

ومعها كان الآدب وجداً أو شخصياً فإنه لا ينحصر في ذات صاحبه ويبيق هناك بعزل عن كل الحركات الفكرية والاجتماعية التي تنشأ في بيئته وتتس حياته . وليس الآدب دودة الحرير التي تنسج حول نفسها قبرأً ترقد فيه بل هو لوحة حساسة يرسم عليها ما يحيط به من مؤشرات فتتبرج بنفسه ثم تظهر للناس رسوماً ذات روعة وتأثير . والذى لا ينكر أن عصتنا الحاضر قد دخله من أسباب العمران ما باعد جداً ما بينه وبين العصور السابقة . اعتبر ذلك في شئ المبادئ السياسية التي طفت علينا من وراء البحر وتلك الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية التي اقتضتها تقدم العلم والتوزع التجاري والاحتلال بال الأمم الغربية . كل ذلك قد أدى إلى تطور في البيئة العربية وبالتالي إلى توجيه الآدب العربي نحو أهداف وفي أسلوب لم تهتم في البيئة القدمة أو في الآدب القديم . وسندرس ذلك تحت الأبواب التالية .

- ١ - الاتجاه القومي - وهو يعبر عن وعي عام في البلدان العربية ويبحث في العوامل السياسية الخارجية والداخلية وما أثارت من شعور قومي وحركات وطنية
- ٢ - الاتجاه الاجتماعي - أي نحو الحياة العامة . ويتناول الشعب ومصالحه المختلفة وأثر الحياة الجديدة فيه .
- ٣ - الاتجاه الطبيعي - وفيه نرى نزعة الآدب نحو الطبيعة والحياة الريفية .
- ٤ - الاتجاه الروحي - او ما يظهر في الآدب من تطور في النظر إلى الحياة ومن ميل إلى التأمل في المجردات .
- ٥ - الاتجاه الفني - وهو عرض عام لما في الآدب الحديث من ظواهر التجديد في الأسلوب والآخر .

يُلْعَنُ بِكُلِّ حُسْنٍ مُفْعَلٍ، وَيُمْشَأُ بِكُلِّ سُوءٍ مُفْعَلٍ لِئَلَّا يَجُوزُ لِوَزْرٍ
لِئَلَّا يَجُوزُ لِوَزْرٍ أَنْ تُصْبِحَ الْأَقْرَبُ إِلَى الْمُصْبَحِ مُلْأَمًا بِكُلِّ كُلْمَةٍ لِئَلَّا يَجُوزُ لِوَزْرٍ
لِئَلَّا يَجُوزُ لِوَزْرٍ أَنْ يَكُونَ حَسْنًا يُفْعَلٌ، يُلْعَنُ فِي كُلِّ حُسْنٍ مُفْعَلٍ بِكُلِّ حُسْنٍ
لِئَلَّا يَجُوزُ لِوَزْرٍ أَنْ يَكُونَ سُوءًا يُفْعَلٌ، وَلِمَا يَكُونُ لِيَسْرٌ فِي كُلِّ سُوءٍ مُفْعَلٍ
لِئَلَّا يَجُوزُ لِوَزْرٍ أَنْ يَكُونَ سُوءًا يُفْعَلٌ، فَلِمَا يَكُونُ لِيَسْرٌ فِي كُلِّ سُوءٍ مُفْعَلٍ
لِئَلَّا يَجُوزُ لِوَزْرٍ أَنْ يَكُونَ سُوءًا يُفْعَلٌ^(١)

الاتجاه القومي

الله انتقام مني في كل مكان لا يرىني
لهم ، فالله يرى في كل مكان لا يرىني
فلا يرى في كل مكان لا يرىني
تضارب التزعزعات ابان الحكم العثماني في عهد عبد الحميد الثاني

الخواج العاتمة في العهد الدستوري

النهضة العربية القومية واثرها في نفوس العرب
المشادة بين الانتداب والقومية
الاتجاه نحو الانحاد العربي

لما يجيءكم قديمه انا اهلا لمعه ولما يجيءكم سمعه - يجيءكم سمع
فيكون سمعكم في يديكم سمعكم في يديكم سمعكم في يديكم سمعكم في يديكم سمع
لما يجيءكم قديمه انا اهلا لمعه ولما يجيءكم سمعه - يجيءكم سمع
فيكون سمعكم في يديكم سمعكم في يديكم سمعكم في يديكم سمعكم في يديكم سمع
لما يجيءكم قديمه انا اهلا لمعه ولما يجيءكم سمعه - يجيءكم سمع
فيكون سمعكم في يديكم سمعكم في يديكم سمعكم في يديكم سمعكم في يديكم سمع
لما يجيءكم قديمه انا اهلا لمعه ولما يجيءكم سمعه - يجيءكم سمع

(١) ذكرنا آنفًا أن هذا القسم من الكتاب قد نشرت فصوله في المفترض ٩٦٥ ثم جمعت في كتاب واحد تحت عنوان العوامل الفعلية في الأدب ونحن هنا نعيده متنًّا ومنتهً.

رسالة ثالثة لـ^١ ملوك وآمراء العرب في العصر العثماني
رسالة ثالثة لـ^٢ ملوك وآمراء العرب في العصر العثماني
تضارب
الزعات الادبية
في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني

الرابطة العثمانية ظلت تركيا الى عهد قریب سيدة الامم العربية من الناحية السياسية ، وظلت عاصمتها الاستانة مقر سلطنة متراوحة الاطراف ، وخلافة دينية واسعة النفوذ .

ويرغم ما بلغته في اواخر عهدها من فساد اداري واحتلال اقتصادي ، ويرغم الدعایات^(١) الواسعة التي كانت تقوم بها الدول الاوربية ، واحتضانها ووسيا القىصرية وبریطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا ، لا ترى في الشرق العربي منذ أيام ابراهيم باشا المصري حتى اواخر القرن التاسع عشر حركة جديدة للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسي منظم . ولم يكن لقطر عربي من الاسباب المهددة لظهور ادب قومي عربي^٢ التزعة ما كان لمصر في القرن التاسع عشر فهي اسبق البلدان العربية الى انشاء وحدة ادارية ذاتية ، بل هي اول مكان بعثت فيه الروح العربية الاستقلالية ، كما يستدل من سياسة ابراهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطاع العربية عن جسم السلطنة وتأسيس مملكة عربية كبيرة^(٣) . كان ابراهيم باشا يحلم بالاستقلال حينا صرّح للبارون بالكونت بقوله^(٤) « ما انا بتركي بل انا ابن مصر ان شئها قد غيّرت دمي »

(١) الدعایات لغة غير قاموسية . ولتكن اكبرنا استعمالها لشروعها بين الكتاب السياسيين ولو وردتها في الحديث الشريف كنوله ادعوك بدعابة الاسلام

Rustum, The Royal Archives p. 92-96

Douin, Mission du Baron Bois Le Comte p. 249

فجعلتني عريباً فحـاً، وقد سارت مصر بعده بخطى ثابتة في ذلك السبيل ومع كل ذلك ظلَّ الـادب العربي فيها عـثـانـيَ الروح . والـذـي يـرـاجـعـ نـفـثـاتـ الـادـبـاءـ المـصـرـيـنـ فيـ الـقـرـنـ الـاـخـيـرـ كـأـيـ النـصـرـ عـلـيـ ، وـالـشـيـخـ عـلـيـ الـلـبـنـيـ ، وـسـامـيـ باـشـاـ الـبـارـوـدـيـ ، وـعـبـدـالـهـ نـديـمـ وـسـواـهـ يـتـجـلـيـ لـهـ مـاـ نـقـصـدـ إـلـيـهـ .

وبـسبـبـ ذـلـكـ ، عـلـىـ ماـ يـظـهـرـ ، ماـ كـانـ لـلـخـلـافـةـ وـدـعـاتـهاـ منـ تـأـثـيرـ فيـ نـفـوسـ الـمـسـلـمـيـنـ . فـكـانـ سـلـطـانـ تـرـكـيـاـ المـمـثـلـ الـأـكـبـرـ لـعـظـمـةـ الشـرـقـ وـالـاسـلـامـ . وـإـذـاـ سـمعـناـ الشـيـخـ الـلـبـنـيـ شـاعـرـ الـخـدـيـوـيـ اـسـمـاعـيلـ يـقـولـ فيـ السـلـطـانـ عـبـدـالـعـزـيزـ (ـعـلـيـ الطـرـيقـةـ الشـعـرـيـةـ فيـ ذـلـكـ الـعـهـدـ) :

دع ذـكـرـ كـسـرـىـ وـقـصـرـ إـنـ اـرـدـتـ ثـنـاـ عنـ قـيـصـرـ الرـومـ حـيـثـ النـفـعـ مـفـقـودـ
وـاشـرـحـ مـآـثـرـ مـنـ سـارـتـ بـسـيرـتـهـ رـكـابـ الـجـوـودـ تـحـدـوـهـاـ الصـنـادـيدـ
مـلـكـ الـمـلـوـكـ الـذـيـ مـنـ بـيـنـ دـوـلـتـهـ ظـلـ الـعـدـالـةـ فـيـ الـآـفـاقـ مـدـودـ

فـاـنـاـ قـوـلـهـ اـغـوـذـجـ لـمـاـ كـانـ يـقـالـ فـيـ الـعـرـشـ الـعـثـانـيـ وـخـلـافـةـ الـاسـلـامـ . وـقـدـ ظـلـتـ الـرـوـحـ
الـعـثـانـيـةـ شـدـيـدةـ الـبـرـوزـ فـيـ مـصـرـ حـتـىـ حدـثـ ماـ حدـثـ بـعـدـ الـحـربـ الـعـالـمـيـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ سـقـوطـ
الـخـلـافـةـ وـاـنـقـلـابـ السـلـطـانـةـ الـعـثـانـيـةـ إـلـىـ دـوـلـةـ تـرـكـيـةـ صـرـفـةـ . وـكـانـ قـادـةـ الـحـرـكـةـ الـادـبـيـةـ
عـلـىـ اـنـتـصـالـ بـقـرـ اـخـلـافـةـ . تـغـرـمـ التـعـمـ السـلـطـانـيـ كـعـلـيـ اـبـيـ النـصـرـ المتـوفـيـ سـنـةـ ١٨٨٠ـ
وـعـبـدـالـهـ فـكـرـيـ ١٨٨٩ـ وـعـبـدـالـهـ نـديـمـ ١٨٩٦ـ وـابـرـاهـيمـ الـمـوـيلـحـيـ ١٩٠٦ـ وـمـصـطـفـيـ كـامـلـ
١٩٠٨ـ ثـمـ تـأـخـرـوـتـ عـنـ هـؤـلـاءـ بـالـوـفـاةـ كـاحـمـدـ شـوـقـيـ وـحـافـظـ اـبـرـاهـيمـ وـاسـمـاعـيلـ صـبـريـ
وـاحـمـدـ نـسـيمـ وـمـصـطـفـيـ الـرـافـعـيـ وـسـواـهـ .

وـشـوـقـيـ عـلـىـ ماـ يـظـهـرـ هوـ اـعـظـمـ مـنـ نـغـنـيـ شـعـرـيـاـ بـجـاـمـدـ اـخـلـافـةـ وـتـعـظـيمـ رـجـاـلـهاـ . فـاـنـ
لـهـ فـيـ ذـلـكـ فـصـائـدـ سـاـثـةـ . وـمـنـ اـسـهـرـهـ ماـ نـظـمـهـ فـيـ وـقـائـعـ الـحـربـ الـعـثـانـيـةـ الـبـونـانـيـةـ
سـنـةـ ١٨٩٧ـ وـكـانـ فـيـ التـاسـعـ وـالـعـشـرـ مـنـ عـمـرـهـ كـقـوـلـهـ فـيـ بـاـيـتـهـ الـعـصـمـاءـ (ـصـدـىـ الـحـربـ)
يـخـاطـبـ السـلـطـانـ : -

بـسـيفـكـ يـعـلـوـ الـحـقـ وـالـحـقـ أـغـلـبـ
وـيـنـصـرـ دـيـنـ اللـهـ اـيـاتـ تـضـرـبـ
وـمـاـ السـبـفـ الـأـآـيـةـ الـمـلـكـ فـيـ الـورـىـ
وـلـاـ الـأـمـرـ إـلـاـ لـلـذـيـ يـتـغلـبـ

وـمـنـهـ فـيـ وـصـفـ مـعـرـكـةـ مـلـوـنـاـ وـبـأـسـ الـأـتـرـاكـ الـظـافـرـيـنـ : -

فـهـلـ مـنـ «ـمـلـوـنـاـ»ـ مـوـقـفـ وـمـسـامـعـ
وـمـنـ جـبـلـيـهاـ مـنـبـرـ لـيـ فـاـخـطـبـ
فـاـسـأـلـ حـصـنـيـاـ الـعـجـيـبـيـنـ فـيـ الـورـىـ
وـمـدـخـلـيـاـ الـأـعـصـيـ الـذـيـ هـوـأـعـجـبـ

وأستشهدُ الأطواطَ شماءَ والذريِّ بوادخ تلوي بالنجوم وتجذبُ
 هل البأسُ الا بأنهم وتباهُمْ ام العزمُ الا عزهم والتلببُ
 ام الدين الا ما رأت من جهادهم ام الملك الا ما اعزَّوا وهبوا
 والحق يقال ان هذه القصيدة هي فيض من العواطف العثمانية . وكذلك كان
 كثير من شعر شوقي . فقد نشأ على حب العثمانيين وظلّ من اكبر الدعاة لهم . ومن
 أراد ان يتحقق عثمانية هذا الشاعر الكبير فليراجع من قصائده ما بلي : -
 تحية الترك ومطلعها :
 محمد الله رب العالمينا وحده يا امير المؤمنين ،
 ضيف امير المؤمنين :
 رضي المسلمون والاسلام فرع عنان دم فداك الدوام
 نجاة امير المؤمنين :
 هنيئ امير المؤمنين فاغاث نجاتك للدين الحنف نجاة
 الاسطول العثماني :
 هز اللواء بعزك الاسلام وعنت لقائم سيفك الايام
 في سبيل الملال الاحمر :
 يا قوم عنان والدنيا مداولة تعاونوا بينكم يا قوم عنان
 في سبيل اهلل الاحمر :
 جبريل هلل في السماء وكبرى واكتب ثواب الحسين وستطردنا بعد
 الاندلس الجديدة :
 يا اخت اندلس عليك سلام هوت الخلقة عنك والاسلام
 تحية للترك :
 الدهر يقطنان والايام لم تم فما رقادكم يا اشرف الامم
 رثاء الخليفة :
 عادت اغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الافراح
 فمن قراءة هذه القصائد وسوها^(١) يتبيّن لك ما كان للخلافة العثمانية من مقام في
 نفوس المصريين

(١) راجع في مثل ذلك ايضاً ديوان حافظه وديوان احمد نجم باشا في مصر (٢)

اما في الادب المنشور فاكثر ما ترى ذلك في خطب السيد عبدالغفار نديم ومقالاته ، ثم في الحركة الوطنية التي قام بها مصطفى كامل وفي كتابات السيد توفيق الباري . ومن امثلته قول الاول في خطاب^(١) .

« هذى بدی فی يد من اضعها ؟ ضعها فی يد وطنك واعقد خنصرک علی محبة امير المؤمنین الخلیفة الاعظم والا فقطعها خیر من وضعها فی يد اجنبی یستمیلك الیه بوعود کاذبة وحیل واهیة لتكون عونه الکبر علی ضياع حقوقک واذلال اخوانک ونزع سلطة اميرک وسلطانک » وهذه الروح بارزة في كثير من اقوال هذا الخطيب .

وكان مصطفى كامل (وهو زعيم الحركة الوطنية قبل الحرب الكبرى) يرى ان مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم . فكان كما قال زيدان « شديد المدافعة عنه كثیر السعي فی نصرته ». وقد كان يخدم مصلحة الدولة العثمانية من طرق كثيرة فانعم عليه السلطان بالرتب والالقاب^(٢) ومن فرآ خطبه تحقق صدق عثانته . ومن امثلة ذلك قوله من خطاب القاء على المصريين في باريس سنة ١٨٩٥^(٣) .

« حقاً ان سياسة التقرب من الدولة العلية لاحكم السياسات وأرشدها . فضلاً عن الاسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب فان العدو واحد . ولا يليق بنا ان نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه اعداؤنا على تحجزة دولتنا . ولا غرو ان كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن الا ابناؤها المستظلون بظلها الوريف الجائعون حول رايتها » ... الى ان يقول « وقصارى القول ان الرأبة العثمانية هي الرأبة الوحيدة التي يجب ان نجتمع حولها . ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والاتفاق فلتتحد قلباً ولساناً ولكن يداً واحدة في خدمة الاوطان واسعادها . ولنقل اليوم جميعاً من صيم افتدتنا ليحيي جلالة السلطان عبدالحميد وليعي العباس ولتحي العثمانية ومصر » .

واننا نترك للتحقيق التاريخي البت في هل كان مصطفى كامل يستخدم الدعوة العثمانية مناوبة للاحتلال الانكليزي في مصر او كان يستخدم مناوبة الاحتلال اداة لخدمة الخلافة . (على ان الذي لا شبهة فيه ان كنا العثمانية والمصرية بارزتان في حياته وادبه ، وانه كان من اكبر الدعاة في مصر بل في الشرق لتوطيد دعائم الجامعة العثمانية

(١) راجع مقالاته المنشورة على نفقه المطبعة الجديدة (مصر) ولاسيما الثالثة والرابعة .

(٢) ترجم مشهر الشرق ١ - ٢٩٧ و ٢٩٩ (مصر ١٩٢٢)

(٣) راجعه في كتاب مصطفى كامل باشا (المطبعة الاولى مصر ١٩٠٦) ج ٣ - ١٩٧

في ظل الخلافة الاسلامية^(١).

وقد نشأ قبله اثنان كانا لها يد طولى في هذه الدعوة واحبباها في الادب العربي . الاول احمد فارس الشدياق ١٨٨٧ وهو لبناني الاصل لكنه اتم علومه في مصر وعمل فيها فتولى كتابة الواقعية . ثم جال في اوروبا وأقام فيها بضع عشرة سنة ، وبعد ذلك ام تونس حيث اعتنق الاسلام ثم طلب الى الاستانة وهناك انشا الجواب وكانت واسعة الانتشار في العالم الاسلامي وفيها يجد الباحث كثيراً من القصائد والمقالات التي تدور على عظمة الدولة ومدح سلطنتها ورجالها . كقوله من قصيدة في عبد العزيز^(٢) .

للدولة العليا على وما ثر يشدو بها يوم الفخار الآخر
ساست ممالك ليس يعلم حدّها ولغتها الا العلم القادر
سرحيث شئت من البلاد فلاترى الا النعم وما اشتاه الناظر

والثاني جمال الدين الافغاني ١٣١٤ هـ يتصل نسبه بآل البيت . كان زعيماً اسلامياً كبيراً . وقد اضطرته الاحوال السياسية ان يفارق بلاد الافغان ويقصد الاستانة فاستقبل هناك بحفاوة واقام بها مدة . ثم ام مصر وكان فيها محجة العلماء والمفكرين . وبجمال الدين خطط وتعاليم سياسية ويؤخذ منها « ان الفرض الذي كان يصوب نحوه اعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الاسلام وجع شتات المسلمين في حوزة دولة اسلامية تحت ظل الخلافة العظمى »^(٣) .

* * *

ونحن إذا قلنا ان الادب المصري كان متسبعاً بروح التشيع للخلافة والجامعة العثمانية فنحكمنا بتناول المصريين الاصليين ولا سيما المسلمين منهم . اما نزلاء مصر من السوريين واللبنانيين والعربيين فـ كانوا فتنين منطرفين ، فـ نـ تـ جـاريـ المـ صـريـينـ فيـ عـقـابـيـتهمـ وـ فـتـهـ تـكـرـ عـلـيـهـمـ هـذـاـ الـ اـنـدـفـاعـ نـحـوـ تـرـكـياـ .

(١) راجع قول نجيب الحداد في منتخباته ٢١٦

(٢) منتخبات الجواب (١٢٩٢) ٣ - ١٥٣

(٣) تراجم مشاهير الشرق (زيدان) (مصر ١٩١٠) ج ٢ - ٦١ . وراجع ايضاً للاستشهاد بكتبه العروبة الوثقى وخصوصاً ص ٢٢٢

ومن الفتة الاولى سليم تقلا مؤسس جريدة الاهرام . والبick بعض ما كتبه سنة ١٨٩٩ في «الوطنية العثمانية» قال -^(١)

« ان في مالكها المروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية وبوتانية وغيرها وكذلك مذاهب مختلفة . ولكنها تجمعها كلها جامعة واحدة وطنية هي الجامعة العثمانية وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدح باسمه وتنصاع لاحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعاية دون اطاع الدول ، وما وراء العبر بها الا الخير والضياع . واذا تبين هذا ، وهو الحق الصراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام اخوه لام هي دولتهم ، وأب هو جلالة السلطان » وتبجيلى هذه النزعة العثمانية ايضاً في شعر خليل مطران . وفي ادب مطران وسيرته ما يدل على بمحاراته الوطنيين المصريين في آمالهم وتزعزعاتهم . فلا نستغرب ان نسمعه يقول في قصيدة « فتاة الجبل الاسود » وكان قد نظمها قبيل استقلال ذلك الجبل^(٢) -

طفت امة الجبل الاسود على حكم فاتحها الايد
ومنها - وما الترك الا فحول الحروب رضيعوا لظاها من المولد
اذا لقحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسوداد
سواء على الجهد ايَا تكون عواصب معاهم محمد

ونظل هذه الحماة العثمانية فيه الى زمن متاخر كما نرى في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الملال الاحمر^(٣) ففي هذه وما يائتها يظهر ميله العثماني وتشيعه لوطني مصر .

ويقتل الفتة الثانية المناوية للسياسة العثمانية او المبديدة سليم سركيس صاحب جريدة المشير فهو شديد التهجم على هذه السياسة وعلى دعاتها . وما يبيّن ذلك ذلك مقالة له موضوعها « هل مصر عثمانية » قال فيها^(٤) « لم اجد في جباني ولا قرأت في مطالعاني عن امة تزيد الانتقال من نور الاستقلال الى ظلمات العبودية الا هذا القسم من الامة المصرية الذين يريدون التمسك بأذیال العرش العثماني » ومن شعره قوله^(٥) -

(١) بحالي الفرق ٧٣ (٢) ديوانه ص ١٥٦ - (٣) راجحها في الشعراء الثلاثة السندي وفي (١٩٢٢) ص ٣١٦ و المورد الصافي ١٨٣ - ٣ (٤) راجحها في المشير عدد ١٠٣ - (٥) المثير ٢١ ابريل ١٨٩٩

نوجو صلاح الترك قد خابت امانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس العدل عن ظلم بذاهب
فانشد معي قوله تردد ده المفارق والمقارب
ليس العجيبة فقدها بل عيشها احدى العجائب

ومثل سر كيس كثيرون من بلغ بهم اليأس هذا الحد من كره الادارة التركية على ان بين هاتين الفتيتين فئة ثالثة تتوسطها وتتصل بكلتيها . وهي فئة المعتدلين الذين لم يعهم التعرض عن سيدات تركيا - ومنهم من هجرها طلباً لحرية الفكر - وكان مع ذلك كله يحرص على بقاء الجامعات العثمانية . نذكر منهم فرح انطون فقد اصدر في الاسكندرية سنة ١٨٩٧ مجلته (الجامعات العثمانية) . ومن اسمها يتضح منه السياسي . وخلاصته^(١) ان الامم الشرقية يجب ان تتحالف تحالفًا متينًا جداً حتى تستطيع ان تسير مع التيار الغربي فلا يدوسها ولا يستطيع ان يهضها . فهو منذ بدء حياته القلبية يدعو الى جامعة شرقية واسعة . ومن اقواله في العدد الاول من مجلته مشيرًا الى المدارس الاجنبية - « فلتنشأ ايها العثمانيون بازاء تلك المدارس مدارس جديدة يكون اساس تعليمها حب الوطن والامة وتعليم ما هو الوطن وما هي الامة . لتأسيس مدارس جديدة ندخل اليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة . وندخل اليها قبل ذلك عناصر الامة كلها فتربيها فيها على مقاعد واحدة ونقتها دروساً واحدة ومبادئ واحدة حتى تكون بعد خروجها من حياة المدرسة الى حياة الرجولية بقلوب واحدة وأفكار واحدة . فان هذا هو السبيل الى تقوية جدار الوطنية العثمانية ووقايتها من الثم والهدم »

وقد علق على ذلك الشيخ رشيد رضا صاحب المدار الالامي بقوله^(٢) « فشكراً لك ايها الكاتب الفاضل ، ونرجح الله تعالى الجامعة العثمانية بمبادئك الصحيحة » . وما لا ريب فيه ان الشيخ المذكور كان من دعاة العثمانية^(٣) وكذلك الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد وغيرهما من رجال العلم والدين .

ومن المعتدلين الناظرين الى الامور بعين الروبة جرجي زيدان منشى الملال فهو من طلاب الاصلاح السياسي ولكنه لم يكن مناوئاً للعثمانية . والذي يطالع اعداد مجلته ولاسيما في السينين الاولى يراه عطفاً على الدولة ولعله كان يرى كما كان يرى اديب

(١) « فرح انطون » ملحق مجلة السيدات والرجال ١٩٢٣ من ٤٦ (٢) المدار من ٤٢-٢

(٣) راجع رأيه في محمد علي الكبير وخروجه على الدولة العثمانية المدار ٥ - ١٥٩

اسحق واصحاب المقطم وامثالهم ان الرابطة العثمانية لازمة للشرقين وان طلب
الاصلاح لا يعني القضاء عليها او استبدال رابطة اخرى بها .
و اذا صح ان نعدَ ولِي الدين يكن تزيلاً في مصر لنشاته في الاستانة واعتباره ايها
وطنه الاصلي فهو من ابرز المتنمرين الى هذه الفتنة الوسطى . بل هو يجمع في نفسه
تطرف الفتئتين الاوليين - شدة النقاوة على السلطان عبد الحميد ، وشدة العصبية للوطن
التركي . فلما كان في مصر ورأى بعض الجرائد الانكليزية والعربية تتحامل على العنصر
التركي نسي نقمته على السلطان وحكومته وقام ب الدفاع عن الاتراك غير مبالٍ بمعاداة
كثير من خلاته الاحرار^(١) . وهو القائل « لوطنِي مني حيافي وكل ما كان دونها على
ان اعيش عثانياً وأموت عثانياً »^(٢) ومن اقواله في وطنه العثماني
وينحدر للبيالي فيك حبي واخلاصي الذي في الناس شاعا
وفي مرثاته لادهم باموا بطل الحرب اليونانية يقول

وببلاد الفتى تعزَ عليه وعظام الآباء فيها عظام
وعهود الصبا عهودُ غوالٍ وغرام الوفى داك الفرام
وكيف التفتَ الى ولِي الدين تجده في ادبه ذلك العثماني المخلص الذي يكره
الاستبداد ولكنه يحبَ الوطن ، يدح اللورد كرومر لحياته الاحرار في مصر^(٣) ولكنَه
ينقضَ على مشاريعي غلامستون المتعاملين على تركيا والاتراك^(٤) . حتى في ايام محنته
ونفيه الى سيواس لا يذكر بلاده الا بالخير فيقول^(٥) .

ايه الركب سرْ فانْ امامي لبعاداً مناً وعيشاً امراً
غريبةْ هذه وقد كنت ادرى أن سأرسى بها لدنْ كنت حرَا
فالفحبي يا رواسيَ الارض ثاراً وأنفيفي فدافد الارض بحراً
وانفحبي يا ريح الشمال سوماً واقنفي يا سواتر الافق صخراً
انا ارضي بهذا لحبَ بلادي واري في سيلها الموتَ فغراً
و اذا ذكر الخلافة العثمانية وبجدها الماضي وكيف اصبحت في ايام عبد الحميد قرن
ذلك بدموع الاسى على الوطن فقال^(٦) -

(١) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ - ١٠٧ (٢) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ - ١٣٩

(٣) المعلوم والمجهول ١ - ١١٠ (٤) المعلوم والمجهول ١ - ١٠٧ (٥) المعلوم

والمجهول ٢ - ٦٥ (٦) ديوانه ٣٣

خلافة قد مضى عنها خلائقها من آل عثمان من سادوا ومن شادوا
ابقوا بها الجهد للاخلاف بعدهم والجهد يقيه للاخلاف ايجاد
حتى انتهت لامير في سلطه يخشى مظالمه عادة وشدادة
يا ولتنا اننا نبكي لنا وطننا يبكيه في الترب آباء واجداد
وفي ديوانه باب خاص بالسياسات تجد فيه شواهد كثيرة على نزعته الحارة ونقمته
على سوء الادارة واستبداد العرش . او لى وطنناه قصيدة «نشاق حرية في ويسنا» .^(١)
ومنها -

يا وطننا قد جرى الفساد به متى يربينا اصلاحك الزمان
دفنت حياماً وما دنا اجل ما ضرّ لو دافنوك قد دفونوا
دماء ابناءك الكرام جرت بحرآ فاشلاظهم لها سفن
ومثلها «الوطن يشكو اهله»^(٢) «وزفرة من زفراي»^(٣)
قالها عندما نفي الى سيدوس ١٩٠٢ وفيها يقول :

عداة الحق قد ربحوا واهل الحق قد خسروا
ونحن امامنا وطن نراه اليوم يختضر
فيما افق التهيب حزناً وجد بالدموع يا مطر

فولي الدين منها يكن موقفه من الادارة الخديوية عثاني مخلص شديد التعلق بالجامعة العثمانية ولعله يفوق سائر الاصحاحين في ذلك .

وما يصدق على المهاجرين العثمانيين في مصر يصدق عليهم في سائر المهاجر الا انه لما كان اكثراهم هناك من السوريين واللبنانيين النازحين من بلادهم اما رهبة من الاستبداد وإما رغبة في طلب العلي ، ولما كانوا بعيدين عن تأثير الدعايات العثمانية خلافاً حال اخواتهم في وادي النيل ، فقلما ترى منهم من يعطض على الجامعات العثمانية او يتم بمقابلها . على انك قد تجد منهم من تهزه العصبية الشرقية أحياناً فظهور العثمانية في شعره او نثره ولكن ذلك قليل اذا قيس بسواء .

(١) ديوانه وجريدة المشير ٨ يناير ١٨٩٦ (٢) ديوانه وجريدة القانون الاسلامي ١٨٩٦

(٣) ديوانه

و اذا خرجنا من مصر الىسائر الاقطان العربية ولاسيما سوريا ولبنان وال العراق فلن الطبيعي أن نجد معظم الادب السياسي فيها متلبساً بملابس الجامدة او التزلف الى السلطان و رجال دولته .

ولا ينكر ان من الشعرا في هذه الاقطان من كان صادق العقيدة العثمانية إما لتأثيرها الديني في نفسه وإما لأسباب اخرى . على ان الرهبة من الاستبداد او الرغبة في جر المفاسد كانتا قبل العهد الدستوري من اهم الدواعي الى شروع النزعة العثمانية في الادب العربي . وليس على طالب الحقيقة الا ان يراجع دواوين الشعرا في ذلك العهد كبطرس كرامه وعبد الباقى العمري ، وناصيف اليازجى ، وعبد الغفار الآخرس ، وفارس الشدياق ، ويوسف الاسير ، وابراهيم الاحدب . ثم محمد حسن الحموي ، ومحى الدين الحياط ، والباروني^(١) ، وعبد الحميد الرافعى ، ومن عاصرهم . فانه يجد في جميعها ما يماثل قول اليازجى الكبير في السلطان عبد العزيز . -

خليفة الله ظل في خلقته ظلت به تتنى الدنيا وتستتر
لا ترضى غيره الدنيا لها ملكاً لو كان جبريل يأتينا او الخضر
مقتد فوق اثواب مخاعة من خشية الله سيفاً صاغه القدر
إذا طلبنا من الباري لنا وطراً فليس الا بقاءً عندنا وطر

أو قول عبد الحميد الرافعى من قصيدة في ابي المدى الصبادى شيخ السلطان عبد الحميد^(٢)

سألوا يا سعد أين المبتغى قلت حيث الشمس في برج الاسد
حيث لي من آل طه سادة ملأوا الدنيا بأنوار المدى
ودنوا من ملجا الملك لدى مقعد الصدق ومرقى المعتمد
فرد ذا الدهر حيد الخلفا دام في حفظ من الفرد الصمد

وباب مدح العظام في ادب ذلك العهد واسع ، بل هو أوسع ابواب الشعرية .

وكثير منه شخصي لا علاقة له خاصة بالاحوال السياسية . على ان منه ما يتعلق بالسياسة الداخلية او الخارجية . فدراسته من هذا القبيل مفيدة للباحث . ومن أمثلة ذلك قصيدة رفت سنة ١٩٠٢ الى مظفر باشا متصرف لبنان عند توليه الحكم بمحاول فيها الشاعر^(٣) ان يعبر عن أمني اللبنانيين المهاجرين فيصف حال الجبل في ذلك الحين

(١) شاعر جزائري اقام حينا بمصر وله ديوان مطبوع

(٢) راجعها في ديوانه الافلاذ الزيروجية

(٣) قيسر المعلوف في تذكرة المهاجر (١٩٠٢) ص ١٠١

وأحوال المهاجرين ثم يلتفت الى المتصرف الجديد فيحذره من تدخل القناصل في ادارته . ويطلب الى نواب الاقضية (اعضاء مجلس الادارة) ان ينشطوا الى ما فيه خير البلاد وان يمحوا سيناثات الماضي في هذا العهد الجديد . ويختسبها راجياً من المتصرف الا تكون وعوده كوعود اسلافه كلاماً في كلام يقول -

امظفُر الجبل الذي ضمنت لنا اقواله ينـا يعزـ مثالـه
كم حاكمـ ابدـي لاول حكـمه وعدـا فـكان وـفاءـ اـخـلاـله
حـاشـاكـ اـخـلـافـ الـوعـودـ فـانتـ مـنـ شـرـفـ الـمـبـادـيـ وـالـوـفـاءـ خـلاـله
ترـكـواـنـاـ التـارـيـخـ مـسـودـاـ فـكـنـ مـنـ تـحـلـدـ بـالـجـمـيلـ فـعـالـه

ولو رجعنا قليلاً الى الوراء وراجعنا مثلاً مدائح ناصيف البازجي وخليل الحوري في فؤاد باشا لقرآن في خلال سطورها كثيراً عن حوادث السنة الستين في سوريا ولبنان وقس على ذلك كثيراً من شعر المديح المتعلق بحوادث سياسية اثارت خواطر الناس في مختلف الاقطاع العربية .

﴿ البوادر الثورية الاصلاحية ﴾ رأينا فيما سبق ان « العثمانية » كانت قبل الدستور بارزة في الشعر المصري عموماً . وفي كثير من الشعر العربي والصوري واللبناني . على ان الشعر العربي لم يكن كله كذلك . فقد كان في الشرق العربي كما اسلفنا احرار يهاجمون الفساد ويحملون على السياسة الفاشية التي كانت تدفع البلاد الى هوة الانحطاط . وابرز ما نرى بذلك في عهد مدحت باشا ابي الاحرار العثمانيين . فانه لما تولى ولاية سوريا ظهر في بيروت ودمشق حركة ادبية ترمي الى احياء الشعر القومي والتخلص من ضغط الاستانة . ولا ندرى تماماً سر تلك الحركة اكان مبعثها كما يقول البعض مدحت باشا نفسه طبعاً يجعل سوريا كمصر والجلوس على اربكة الحكم فيها^(١) . ام لان وجود ذلك الحاكم التزوع الى الاصلاح انشأ في سوريا (كا انشأ من قبل في العراق) جوآ اديباً حراً استطاع به ابادة الضيم ومرهفو الاحساس ان يبثوا بعض خواجهم ويفرجوا عن كربتهم . ذلك ما نتركه للتحقيق التاريخي .

واقتضت السياسة نقل مدحت سنة ١٨٨٠ الى ازمير ثم حاكمه بتهمة قتل السلطان عبد العزيز فتخلص عبد الحميد منه ، وبوقت قصير استطاع ان يطش برجال الحرية

(١) كتاب سر علقة سليم سركيس ص ٦٣

والدستور وان يرجع بالبلاد الى عهد الاستبداد المطلق . فهو بعد ان بدأ حكمه ١٨٧٦ باعلان الدستور وبمحاراة والده عبد الحميد في طلب الاصلاح نكص على عقيبه وعاد كما يقول روحى الخالدى « الى سياسة جدّه السلطان محمود خان في استعمال الجبر والاستبداد »^(١) معتقداً ان الشعوب التي وضعها الله تحت يدي جلالته لا يمكن تسييرها الا بالقوة «^(٢) » فخدمت في ايامه الروح الاصلاحية داخل البلاد لكن بعض الاحرار من الترك والعرب حملوها الى الخارج وهناك نمت وتزعمت فكانت من العوامل الفعالة في انقلاب الحكومة الجميدة . وفي هؤلاء الاحرار المهاجرين يقول المشير^(٣) « هم اخواننا في الانسانية ، ورفاقنا في الحرية . علمنا ان الجهد لا ينال الا على جسر من التعب . فهم يتبعون في السعي وراء خدمة بلادهم وارجاع مجدهم الملكي الذي انحط الى دركات الجحول باهتمام الامام الذي جار في احكامه والاعوان الذين صاروا بلية على الامة »... الى ان يقول ... « وقد انضم اليهم بعض ادباء سوريا ومصر وهرب البعض منهم من عالم الجور والظلم الى فضاء الحرية والامن فانتشروا في باريز وسويسرا وانكلترا وأميركا وأنشأوا الجرائد » الخ .

فظهر من هؤلاء المهاجرين طبقة من حاملي شعلة الادب وأكثربم الآت في عالم الارواح منهم فتح الله مراد - رزق الله حسون - عبد الرحمن الكواكي - خليل غانم - محمد قدرى - لويس صابونجي - امين محمد ارسلان - حبيب ساموني - خليل سعادة - سليم سركيس - نجيب الحداد - ولي الدين يكن . ولا يزال حياً من هذه الطبقة فارس غر (الدكتور غريغور باشا) .

ومن أراد الاطلاع على بنات افكارهم فليرجع الى مؤلفاتهم (واكثرها معروف) او الى صحفهم كالمشير والقطنم ولسان العرب ومرآة الاحوال والملحق وتر كبا الفتنة والنحلة والشورى وضياء الخافقين وربيع الصدى وكشف النقاب وسوهاها^(٤) وكماهم كما يصرح الدكتور يعقوب صرّوف قد اخذوا على التنديد بالادارة البيئية الضاربة أطنابها في بلادهم^(٥) .

على انهم في ذلك متفاوتون . فمنهم المشدد ومنهم المعتدل . ومنهم من بلغ به

(١) المجلال ١٢ - ١٢٥ (٢) عدد ١١٣ (٣) في المعلوم والمجهول لولي الدين ص ٦٢

- ٧٦ وصف لبعض هذه الصحف وأصحابها فايراجع . (٤) المقططف ٣٣ - ٨١٣

فرط التشاؤم حدّ اليأس بالاصلاح فصار لا يرى اصلاحاً الا بهدم كيات الدولة او وقوعها تحت مراقبة الاجانب. واقدم ما رأينا من هذا القبيل قصيدة لرزق الله حسون نظمها في الحرب الروسية العثمانية واستيلاء الروس على القرص ومنها :^(١)

كم حروب لروس دارت على الـترك رحاهـا فغادرتها طجيـنا
عـلم الـروس يخـفـقـ الـبـومـ فوقـ الـقرـصـ ولـيـ الـترـكـ فيـ الـغاـبـرـيـنـاـ
هـكـذـاـ هـكـذـاـ تـدوـرـ عـلـىـ الـبـاغـيـ الدـوـاـئـ (٢)ـ وـهـلـكـ المـحـرـمـونـاـ
ماـ عـلـيـهـمـ لـوـ عـاـمـلـوـنـاـ بـجـسـيـ وـتـساـوـيـ اوـ اـنـمـ اـنـصـفـوـنـاـ

قال الدكتور فارس غرب باشا من خطبة له في النهضة الدستورية مشيراً الى فتح الله مرآش ورزق الله حسون^(٣) - « فهذا ان الحلبان اللذان فاقا الاقرارات بحب الحرية كما فاقا الاقرارات بعانيها السحرية وبمبانيها العسجدية قضيا ردهما من الزمن يرسلان شعاع الحرية الى ابناء سوريا من قلب اعظم عاصمتين اشتهرتا في اوروبا بالحرية والنظمات الدستورية (اي لندن وباريس) ولكنها مزجاً بلاغتها بعلم التفريق بين الترك والعرب فأصاباً بایقاظ النفوس لطلب الحرية واحتضاً بتميزق الجامعة العثمانية » ويستدل من شعر حسون انه جا الى روسيا حيناً . ومدح قيصرها بقصيدة جعل القسم الاول منها وصفاً لفساد الاحوال في تركيا فقال : -

جـلتـ الشـامـ وـغـسـانـاـ وـعـجـتـ عـلـىـ فـيـنـيـقاـ وـكـيـلـيـكـيـاـ كـمـعـتـرـ
وـاذـرـعـاتـ وـبـلـقـاءـ وـتـدـمـرـ فـيـ صـحـراءـ خـالـيـةـ كـالـبـحـرـ منـ شـجـرـ
اـذـ لمـ اـجـدـ غـيرـ اـمـصـارـ مـقـلـبـةـ وـرـسـمـ اـبـنـيـ تـبـكـيـ عـلـىـ الزـمـرـ
وـقـفـتـ اـنـعـيـ خـرـابـ الـمـلـكـ مـنـ مـدـنـ فـيـ الـحـصـرـ وـالـوـصـفـ يـعـيـ الـمـرـ بـالـحـصـرـ
وـهـوـ يـعـزـوـ ذـلـكـ اـخـرـابـ اـلـىـ سـوـءـ اـدـارـةـ السـلـطـانـ وـرـجـالـ دـوـلـتـهـ ثـمـ يـقـولـ بـعـدـ اـيـاتـ
لـهـفـيـ وـلـفـيـ بـنـيـ الـاحـرارـ تـكـلـمـ عـلـىـ التـساـوـيـ بـاـنـضـافـ مـدـىـ الـعـمـرـ
وـمـنـهـاـ :ـ حـتـىـ دـخـلـتـ بـلـادـ الـرـوـسـ مـلـتـجـهـاـ بـالـسـتـجـارـ حـبـ اـللـهـ وـالـبـشـرـ
وـمـنـهـاـ يـتـقدـمـ اـلـىـ وـصـفـ ماـ وـجـدـهـ فـيـ رـوـسـياـ مـنـ عـدـلـ وـامـنـ وـيـقـابـلـهـ بـسـوـءـ اـخـالـ

(١) راجع القصيدة في المثير عدد ٣١ (وفي بعض أبياتها اضطراب في الوزن)

(٢) هكذا رواية المثير ولو استبدلنا الدوائر بالدواهي او البابي - لاستقام الوزن

(٣) المقطف ٣٦ - ٢٥٨

في تركيا فتولهُ المقابلة ويصبح من قلبٍ متفسِّرٍ^(١).

وإن تذكرتُ اوطاني بكيت دمًا من مهجة طفحت جريأً بنهر

ومثل حسون في النعمة على الادارة التركية وحب التخلص منها عدد من الادباء (وجلهم من مسيحي سوريَا ولبنان) وقد سبقت الاشارة الى احمد سليم سركيس . وهو من الذين بروزا في هذا المضمار وله في ذلك كثير من القصائد والمقالات . منها قصيدة موضوعها «ثلاث حبات» وضعها على لسان ارمني يموت جوعاً^(٢) وقصيدة نغير سوريا التي مطلعها^(٣).

يا اهل سوريا القاور من كل مفحورٍ وفاخرٍ
افترضوت صغاره لم يرضها في الناس ضاغرٍ

وله قصيدة اخرى مر ذكرها في كلامنا على موقف السوريين من الدعاية العثمانية في مصر وهي شديدة الوطأة وكذلك اكثر شعره ونثره . وبكفي ان نقول انه صاحب جريدة المشير التي اشتهرت بعادتها للدولة العثمانية ولا سيما السياسة عبدالحميد . والذي يراجع الجرائد الحرّة التي كانت في ذلك العهد تصدر خارج تركيا او في جو بعيد عن السيطرة التركية يجد ما لا يستطيع حصره هنا من نفائس الكتاب والشعراء الذين كانوا يحملون على عبدالحميد ويتاؤثرون سياسته . وقد كان لتلك النفائس تأثير ملموس في النفسية العربية بل هو الحيرة التي خُررتها وهبأتها للنهضة القومية التي نلت ذلك العهد .

وإذا كان السوريون واللبنانيون قد اضطروا قبل الدستور الى هجر تركيا ، ولم يستطعوا الجهر برغائبهم الا خارجها . فمن الانصاف ان نذكر هنا ان الشعر الاصلاحي في العراق كان يسمع احياناً حتى في عقر البلاد . وابرز دعاته هناك اثنان - جليل الزهاوي والمعروف الرصافي . فلكليهما ما يستوقف النظر من الجملات العنيفة على سوء الادارة . ولقد يستغرب الانسان هذا العنف وصبر اولى الامر عليه دون عقاب بيمٍ . ولكنه الواقع كما يتبين من يطالع قصائدهما القديمة وهمَا في عنوان الشباب والقوة . فمن ذلك قصيدة للزهاوي قالها في الاستانة (حوالي سنة ١٨٩٧) وهي كما

(١) راجع القصيدة في ديوانه النثاث ص ٢٦ (٢) راجعها في المشير ١٨٩٦

(٣) المشير ١١ مايو ١٨٩٥

سترى من أشد ما هوجمت به ادارة ذلك العهد وقد كان عقابه النفي من الاستانة الى وطنه بغداد . ومطلعها

الا فانتبه للأمر حشام تغفل
اما عالمتك الحال ما كنت تحملُ
اغث بلدآ منها نشأت فقد عدتُ
عليها عواد للدمار تعجلُ
ومنها - وما رأبني الا غرارة فتيبة
تؤمل اصلاحاً ولا تتأملُ
الا باطلٌ ما ترجي وترجو سعادة
تؤمل اصلاحاً وترجو سعادة
وما هي الا دولة همجية
تسوس بما يقضى هواما وتعملُ
ونخفض بالاعزاز من كان جاهلاً
فترفع بالاعزاز من كان يعقلُ
ومنها - لقد عبّثت بالشعب اطلاع ظالمٍ
يحتمل من جوره ما يحتملُ
فيما ويع قومٍ فوضوا امر نفسيهم
إلى ملكٍ عن فعله ليس يسألُ

وهي طويلة واكثرها على هذا النسق^(١) ومثلها قصيدة «الصارحة» وهي محنة يصف فيها حكومة عبد الحميد ونشرها يومئذ في المقططف^(٢) ومن نفاثاته قوله من قصيدة يخاطب السلطان^(٣).

ان الوعية اغمامٌ يحدّد لهم
ولاقك المستبدون السكاكينا
يا عدلٌ ان التفاناً منك يسعدنا
ياعدلٌ ان ابتساماً منك يكفيننا
ما جاءنا الشر الا من تهاوننا
وعلّنا الظلم الا من تغاضينا
لابد من فنك ما قد سد من عقد
كفن الاسار بآيدينا بآيدينا
إن الذين استحبوا قتل انفسهم
فرآ من الضيم ما كانوا مجانيانا
وقوله يصف حال وطنه

الا رعن الله او طاناً لنا انتهكت
محبوبة السهل والوديان والكتب
قد أضرم الجور ناراً في جوانها
واهلها بين نفّاخ ومحظى
وعلى هذا المنوال ينسج في كثير من شعره السياسي القديم . وكجر أنه جرأة ذميـه الرصافي ولا سيـا قبل ان يـؤمـ الاستانة ويـشغل منصباً عـليـاً فيها . ومن قصائده الجريـة محـسس طـويل مـوضوعـه «ايـقـاظ الرـقوـد» جاءـ فيـه : -

(١) راجع ديوانه (مصر ١٩٣٢) ٣٨٠ (٢) راجع ديوانه (مصر ١٩٣٢) ١٩٦

(٣) ديوانه الليـاب (بغداد ١٩٣٨ ص ١٢)

حكومة شعبنا بجارت وصارت علينا تستبدّ بها اشارات
 فلا احداً دعنه ولا استشارت وكلّ حكومة ظلت وجارت
 فبشرها بتمزيق الجلوود
 اقول وليس بعض القول جدّاً لسلطان تجبر وامتنداً
 تعدّى في الامور وما استعدّا الا يا ايها الملك المفدى
 ومن لولاه لم نك في الوجود
 انم عن ان نوس الملك طرفا ام ما تنتهي زمراً وعزفا
 اطل نذكر الرعية خل عرفا سُم البلدان منها شئت خسفا
 وارسل من تشاء الى المحروم
 وتجلّى لنا هذه الجرأة ايضاً في قصيدة «رقية الصريح» التي مطلعها
 يا عدل طال الانتظار فعجل يا عدل خاق الصبر عنك فأقبل
 ومنها: كيف القراء على امور حكومة حادت بهن عن الطريق الامثل
 ومن هنا يأخذ بوصف فساد الادارة واستبداد الخليفة منادياً بسقوط الحكومة
 الفردية ووجوب استبدالها بنظام جمهوري او دستوري. ثم يقول غير هياب
 حثّام نبقي لعبه حكومة دامت تجرّعنا نقيع الخذل
 تتحوّل بنا طرق البوار تجيناً وتسومنا سوء العذاب الاهول
 ما بالنا منها نخاف القتل إن فنا أما سنبوت ان لم نقتل؟

وفي ديوانه الاول المطبوع سنة ١٩١٠ كثير من هذه الحالات العنيفة نظم بعضها
 في العهد الاستبدادي وبعضها في عهد الدستور . وقد صدق محبي الدين الحباط اذ قال
 فيه^(١) « من هؤلاء الاقداذ الذين فطروا على عدم الاستendance للضم والتجافي عن
 مضاجع الذل وعدم الاستئامة للحوادث . وقد كان يقرع قومه في اشد أيام الاستبداد
 بمثل قوله : -

عجب القوم يخضعون لدولة يسوهم في الموبقات عمدها
 واعجب من ذا انهم يرهبونها واماها منهم ومنهم جنودها

(١) (كتابات في أدب العصر) (١٩٣٧) (٢٠٠) (٢٠٠) (٢٠٠)

(١) مقدمة الديوان الاول ص ١١

وهذا شأن اللبناني من قصيدة موضوعها «تنبيه النيام» وهي خمسة وثلاثون بيتاً وكلها تندد بمثل هذه النيران النفسية.

ومن الاحرار عبد الحسن الكاظمي الذي اضطر الى هجر العراق وهو في العشرين من عمره هرباً من اضطهاد السلطات التركية^(١)

وقد كان في البلاد العربية العثمانية غير من ذكرنا من اصحاب الوجдан الحر والنزعة الثورية ولكنهم قلما كانوا يجرون على الجهر بما تكتئه صدورهم لحرص قلم المراقبة ان لا ينشر في الصحف او الكتب الا ما يوافق مصلحة الحكومة ويُشيد بذكر رجالها . فاجروا افلامهم في غير الاصلاح السياسي وبلغوا في ذلك كما سرني بعد شاؤاً يذكر

النرة الشرقية في الادب الحديث ظهر لنا في العواطف الشعرية العربية السابقة لمهد الدستور مجريان رئيسيات - المجرى العثماني (او الدعوة للعرش العثماني ورجاله) والمجرى الاصلاحي (او العمل على ذلك العرش ودعاته) . وظهر لنا ايضاً ان للاخير فرع المترقبين الداعين الى هدم الكيان العثماني . وفرع المعتدلين القائلين بوجوب الانقلاب مع المحافظة على الجامعة العثمانية . والذي يلوح لنا ان هؤلاء هم الاكثرية بين الاصلاحيين وقد كان هدفهم تجديد السلطة ورفع مستوىها لتكون وطننا حراً خليقاً بأن يحب ويفاخر به . فالشرق والغرب عندهم لا يجتمعان ولا ينجي الشرقيين من براثن الاستعمار أو يحفظ كيانهم الشرقي الا العرش العثماني اذا فام على اسس الحضارة الجديدة ومن الطبيعي ان يكون المسلمون عموماً أعطف على الدولة العثمانية وفيها خلافتهم ومجدهم . بذلك على ذلك ما اظهره في الحروب التي خاضتها قبل الدستور وبعده كحرب روسيا سنة ١٨٧٨ والحرب اليونانية ١٨٩٧ وحرب طرابلس ١٩١١ وحرب البلقان ١٩١٣ . بل وفي الحروب التي لم تخضها ولم يكن لها فيها مصلحة مباشرة كحرب روسيا واليابان (١٩٠٤ - ١٩٠٥)

في هذه الحرب كان العالم الاسلامي العربي بجانب اليابان لا لسبب الا لأن اليابان دولة شرقية ثم هي تحارب روسيا عدوة تركيا التاريخية . وقد اثارت هذه الحرب من العواطف الشعرية في ادبنا ما لا يجوز لباحث الاغضاء عنه . فمن ذلك قصيدة مشهورة

(١) راجع ديوانه ص ٣٦٩ و ٦

حافظ ابراهيم مطلعها : « لا تلم كفني اذا السيف نبا » وفيها يقول مادحًا امبراطور اليابان (الميكادو) ووطنية شعبه

هكذا الميكاد قد عَلَّمنَا ان نرى الاوطان اماً وأباً
ملك يكفيك منه انه أنهض الشرق فهز المغاربة
وكذلك قوله من قصيدة موضوعها « الانقسام آفة الشعب »

فانقضوا النوم وجدوا للعلى فالعلى وقف على من لم يتم
وانظروا اليابان في الشرق وقد ركزت اعلامها فوق الامم
حاربوا الجهل وكانوا قبلنا في دجى عبياته حتى انهزم
فاسألا عنها الترني لا الترى انها تحمل ابراج المهم
وقوله من قصيدة « أساحة الموت أم محشر » يشير الى ما نال الشرق من انتصار
اليابان .

تسومنا الحرب وان أصبحت تدعوا رجال الشرق أن يخروا
أني على الشرقي حين اذا ما ذكر الاحياء لا يذكر
حتى أعاد الصفر ايامه فانتصف الاسود والاسمر

ولعل قائلًا يقول ان شعر حافظ في الحرب الروسية اليابانية بل شعر مصر عموماً
اما هو لما في نقوشهم من العطف على العثمانية لا لنعنة شرقية تستفزهم الى تحدي
الغربيين . فنقول ان اليابان كانت يومئذ حليفه بريطانيا . وفي الاشارة بمحامدها نوع
من الدعاية لبريطانيا ، ومع كل ذلك لم يتمنع حافظ وزملاؤه^(١) وهم من محاربي الفوذ
البريطاني في مصر عن ان يستسلموا لعواطفهم الشرقية ويظهروا اعطافهم على دولة
شرقية برغم ما يربطها من الصدافة بمحظتي مصر
وإذا القينا نظرة على غير مصر وجدنا ان الشعراء حتى الاحرار الناقمين على السلطة
المجيدة يضربون على هذا الورق الشرقي كما فعل الرصافي في قصيده « معركة توشيا »^(٢)
اذ قال :

سرعوا في البحر حرباً خرسوا تأكل المال فارها والنفوسا

(١) كمحضن الراغبي واحد نيم محمد عبد المطلب وسهام

(٢) وهي معركة بحرية بين الاسطولين الروسي والياباني كانت نصرًا باهرًا للبابان

يوم طوغو^(١) دهى بأسطوله الروس فتلاً وكان يوماً عبوساً
فحدهاها بوارجاً غلاً البحر وقاراً طوراً وطوراً بوساً
فكسوهم من أفواه لبوساً وسقوهم من المنوف كؤوساً
هكذا شيدوا بناء المعالي هكذا احسنوا لها التأسيساً
والشاعر اللبناني أمين ناصر الدين في الحرب الروسية اليابانية قصيدة^(٢) موضوعها
«الباباني ومعشوقة» جعل سداها وحبتها شجاعة اليابان وحيثهم الوطنية وظفرهم الباهر
ومن ذلك ما وضعه على لسان المجاهد الياباني : -

هجمنا على مينا، «ارثور» هجمةٌ تردّ ابن عامٍ وهو بالخوف أشيبٌ
بيضٌ يلوح النصر آيان جرّدتٌ وسميرٌ لها بين القلوب تقلّبٌ
وكنا اذا انهلَ الرصاص كأننا من الغيد بالتفاح نرمي فنطربُ
وعدنا وهاتيك القلاع بأسرها مهدمةٌ قد حلَ منها المركبُ
وقائعنا في البحر كانت عجيبةٌ ولكنها في بلة البحر اعجبٌ
وهنا يصف معركة توسيباً وانتصار طوغو ثم يقول : -

ورجعت الافتخار صوت انتصارنا ففي الشرق هزاج وفي الغرب ندبٌ

وقد أصاب الشاعر فان الشرق الادنى العربي او قل العثماني عرته هزة وطنية عامة
على اثر انتصار اليابان وقد رددتها الادب العربي عدة سنين بعد تلك الحرب . وكانت
كلما اراد انهاض الامم الشرقيه ذكرها باليابان ونهايتها كقول كاتب هذه السطور
سنة ١٩١١ من قصيدة موضوعها الحياة الجديدة في المشرقين^(٣)

معاذ الله ان نبقى نياماً يحيط بنا الظلام ولا ظلاماً
ارى النيران تضظرم اضطراماً وآسيماً تهبّ من المجدود

ونجم المجد في اليابان يسطعٌ تخزّ لهم كواكبهم^(٤) وتخضع
اضاء على الملا الشريقي اجمعٌ وافهم جمعهم معنى الوجود

(١) ايدزال الاسطول الياباني (٢) راجحها في صدى المخاطر (١٩١٣) ص ٣٦

(٣) راجحها في الورد الصافي م ٣ ص ١٧٢ (٤) الفسید في كواكبهم يرجح الى الفريبي

ولو اردنا تعداد القصائد والمقالات التي أثارتها هذه الحرب او ذكرياتها لضافت بنا الصفحات الكثيرة^(١). وليس غرضنا من الاشارة اليها وضرب الامثلة عليها الا اثبات حقيقة قد تضيع في مطاوي الايام، او تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار وهي ان النهضة اليابانية التي بلغت اوجها في حرب ١٩٠٤ - ١٩٠٥ قد حرّكت عواطف الوطنين في مصر والشام والعراق فظهر ذلك في ادبهم المنظوم والمنتور ، وكان من الاسباب المهدّة لذلك الانقاد الوطني الذي عقب اعلان الدستور العثماني فعزز الروح الشرقية في جميع الاقطارات العربية^(٢)

﴿عوامل اقليمية﴾ بقي علينا في هذا المقام ان نوجه النظر الى حوادث سياسية تركت في الادب صبغتها الخاصة . وهي كثيرة ومتفاوتة الاثر على ان اهمها اثنان وهما : ١ - حركة السنة الستين (١٨٦٠) في البلاد السورية وما عقبها من استقلال لبنان الداخلي^(٣) . وهذه الحركة في الادب العربي ظاهرة كان كبرى - الاولى تأصيل الخرازات الدينية بين ابناء سوريا - تلك الخرازات التي كانت ولا تزال من اهم بواعث الشقاقي في الشرق . والثانية انفصال لبنان عن السلطة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتدوّق حلاوة الاستقلال وفي تبنّك الظاهريتين تكون في نفسه ذلك الشعور الاقليمي المناوى لحركة الوحدة العربية كما سيجي^ه

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين في هذه المئتين السنة الاخيرة يرى شیوع ذلك الشعور برغم جمیع الوسائل التي كانت تستخدم لاضعافه . ولا ينکر ان بعض اللبنانيين قد اخذ بعد الحرب العالمية الاولى يتذمّر نزعه وطنية عامة ، إما تحت اسم القومية السورية وإما تحت اسم الوحدة العربية ، ولكن الشعور القديم الموروث عن آبائهم المستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لا يزال قوياً ، وسيظل الادب اللبناني مصطبغاً به مدة طویلة من الزمن

٢ - الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ . وهو من الحوادث الاقليمية الكبرى

(١) من اهمها قصائد فارس المخوري في الحرب الروسية اليابانية وعنوانها «وقائع الحرب» وهي مطبوعة بمصر - المدار ١٠ - ٥٦ (٢) راجع ديوان مصطفى الرافعي ١ - ٢٦ وديوان احمد نسيم

١ - ٤٣ (٣) راجع هنا قصيدة المخوري هنا رعد العاصي في مدح فرنسا - الادب العربي في القرن التاسع عشر شيخوخة ١٥٢

التي تكاد لخطورتها ان توضع في مصاف العوامل العامة . ولا نتعرض هنا للبحث في اسباب الاحتلال او النظر في مساوئه وحسناته فذلك من خصائص التاريخ . ولكننا نقرر ان هذا الاحتلال كان مبعثاً لادب مصرى عنيف ، وكان له صدى لا يزال يتعدد في اخاء البلدان العربية

وبرغم تضارب الآراء فيه فاننا نرى ان اكثر الشعراء والخطباء في مصر كانوا ينظرون الى الاحتلال نظر العداء وينادون بالاستقلال والدستور . وقد ادى ذلك الى احياء الشعور الوطني فيها ثم الى تدرجها في مرتب الاستقلال حتى بلغت ما بلغته في هذا العبد .

ولما كان هذا الادب المصري الوطني شديد الارتباط بما نشأ منه بعد الدستور فستره الآن على ان نعود اليه مفصلاً في مقام آخر .

ومن هذه العوامل الاقليمية - حوادث ارميتيه ، وحوران ، واليمن و كثير من حوادث العراق المحلية . ولما كانت غايتنا هنا وصف الاتجاهات العاطفية العامة فاننا نقف عند هذا الحد من الكلام على الشعر قبل الدستور تاركين العوامل المحلية لمن يحب التخصص فيها .

أيُّهُمْ بِهِ رَاضٌ إِلَّا لَمْ يَرَهُ لِهِ لَمْ يَرَهُ
نَمَّةٌ مَا لَهُ بِهِ تَرَكَهُ بِهِلْكَهُ لَمْ يَرَهُ
نَسِيَّاً أَغْرَى هَذَا رَاهِنَهُ حَصْلَقُونَ لَمْ يَرَهُ
نَسِيَّةً نَهَرَقَتْهُ إِلَيْهِ وَلَمْ يَرَهُ لَهُ مُهْنَدَهُ لَمْ يَرَهُ
عَيْنَهُ مَلْعُونَهُ لَمْ يَرَهُ لَهُ عَيْنَهُ لَمْ يَرَهُ

^{١٧} ملحوظة يذكرها في المقدمة

لـ ^{١٨} سيد زكي، دراسة في أدب مصر العثماني، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٦، ص ٢٥١-٢٥٣ .
لـ ^{١٩} سيد زكي، دراسة في أدب مصر العثماني، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٦، ص ٤١٣ .
لـ ^{٢٠} سيد زكي، دراسة في أدب مصر العثماني، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٦، ص ٤١٣ .
لـ ^{٢١} سيد زكي، دراسة في أدب مصر العثماني، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٦، ص ٤١٣ .

الشعلة الدستورية

سنة ١٩٠٨

وانقضاء العهد الجيد

ذكرنا آنفًا أن عبد الجيد قد بدأ حكمه باعلان الدستور والحكم النيابي ولكن ذلك الدستور لم يلبث أن خنق في المهد . وعادت الدولة إلى نظام الحكم الفردي فكان ما عرقناه من تفاصيل الضغط السياسي والاضطراب الاجتماعي طيلة العهد الجيد^(١) . ولعل الآيات التالية لولي الدين يمكن ترسم لها بوضوح صورة ذلك العهد . قال^(٢)

يكي بنوكَ ويضحكَ الزمنَ ماذا أصابكَ أيها الوطنَ
ما أوشكَتَ ان تنتهي محنَ الا وجاءتَ بعدها محنَ
اما الرسومَ فانها درستَ اما الرجالَ فانهم دفنوا
العصرَ راحت سوق باطلهَ فالحقَ فيهِ ما لهُ ثمنَ
يا قومَ هبوا من ماضعكم طال المدى حشامَ ذا الوسنَ

وما رأهَ ولي الدين في تركيَا نفسها رأه جبيل الزهاوي في العراق فقال من قصيدة

موضوعها «نحن في غلة»^(٣)

نحن في غلة نيامٍ وعنةٌ
نخن في دولة تدار كها الله
تبنج الحظور للحكامِ
وعدها بالاصلاح جمٌ ولكن
لابجوز الاصلاح حدَ الكلامِ
ونحن قومٌ قضت اراده شخصٌ
نخن قومٌ نعيش كالأنعامِ

(١) راجع وصف هذا الاضطراب في مقالات الانقلاب العثماني - المجلد م ١٢ ولاسيما ص ١٥٢

(٢) ديوانه (الطبعة الاولى) ٦٢ (٣) ديوان الزهاوي (مصر ١٩٢٦) ص ٢٩١

ومن الطبيعي ان يصبح الاضطراب الاداري اشداد العوامل المدامة من الخارج ومن الداخل . وقد صدق روحـي الحـالـي اذ قال^(١) «فـبـسـبـبـ تـشـوـيشـ الـادـارـةـ وـتـذـبذـبـهاـ لـمـ يـعـدـ لـلـحـكـوـمـةـ قـاعـدـةـ مـطـرـدـةـ وـلـاـ أـصـوـلـ مـرـعـيـةـ لـاـ فيـ سـيـاسـتـهـ الـدـاخـلـيـةـ وـلـاـ اـخـارـجـيـةـ وـلـذـاـ سـقـطـ اـعـتـارـهـ عـنـدـ الـدـوـلـ الـاجـنبـيـةـ حـتـىـ تـجـرـأـ اـعـلـىـ تـهـيـيـدـهـاـ فـيـ الـمـسـائـلـ الـعـفـيـفـيـةـ الـعـادـيـةـ وـسـقـطـ اـعـتـارـهـ اـيـضـاـ فـيـ نـظـرـ رـعـاـيـاهـ وـحـارـ أـسـكـنـوـ الـمـوـجـوـدـيـنـ مـنـهـمـ فـيـ الـدـيـارـ الـاجـنبـيـةـ يـأـنـفـونـ مـنـ دـخـولـهـمـ فـيـ التـابـعـيـةـ الـعـثـانـيـةـ». فلا عجب اذا رأينا ممتلكاتنا البلقانية تنفصل عنها واحدة بعد واحدة فضلا عن كويت وقبوص وسوهاها . وفي الشعر العربي اشارات كثيرة الى ذلك كقول الزهاري^(٢)

دعـيـ اللهـ شـعـبـاـ أـهـمـلـهـ رـعـاـيـهـ وـهـلـكـاـ كـبـيرـاـ وـكـهـ تـزـعـزـعـ
تـقـطـعـ مـنـهـ كـلـ يـوـمـ مـدـيـنـةـ وـمـاـ الـكـفـ الـأـصـبـ ثـمـ اـصـبـ
وـكـصـبـدـةـ فـيـ جـرـيـدـةـ الـشـيـرـ مـطـلـعـهـ^(٣)
ذـهـبـتـ وـبـاـ لـهـوـلـ أـرـضـ كـرـيـدـ بـصـابـ هـنـكـتـ سـيـارـ الغـيـدـ

وكـلـهاـ طـعنـ فـيـ عـبـدـ الـجـمـيدـ وـسـيـاسـتـهـ الـيـادـتـ - بـزـعـ الشـاعـرـ - إـلـىـ تـجـزـةـ الـمـلـكـةـ وـزـعـزـعـةـ اـرـكـانـهاـ . وـكـثـيرـاـ ماـ زـرـىـ هـذـهـ اـسـارـاتـ إـلـىـ ضـعـفـ الـسـلـطـنـةـ مـقـرـونـةـ بـشـعـورـ الـأـسـىـ وـالـجـزـعـ كـقـوـلـ وـلـيـ الدـيـنـ فـيـ مـنـفـاهـ إـلـىـ سـيـوـاسـ^(٤)

يـقـولـ اـحـبـيـ صـبـراـ وـهـلـ فـيـ النـارـ يـصـطـلـبـ
وـنـحـنـ اـمـامـنـاـ وـطـنـ نـرـاهـ الـيـوـمـ يـختـضرـ
فـمـنـ يـجـزـعـ فـمـعـذـورـ وـلـكـنـ قـلـ مـنـ عـذـرـواـ
فـيـ اـفـقـ الـتـهـبـ حـزـنـاـ وـجـدـ بـالـدـمـعـ يـاـ مـطـرـ

فـيـ مـطـلـعـ الـقـرـنـ الـعـشـرـنـ نـرـىـ الـسـلـطـنـةـ الـعـثـانـيـةـ بـيـنـ الـمـطـامـعـ الـأـوـرـيـةـ وـالـفـاسـادـ الـدـاخـلـيـ فـيـ مـوـقـفـ شـدـيدـ الدـفـةـ . وـكـاـ تـكـنـ الـاحـرارـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ مـوـقـفـ سـنـةـ ١٨٧٦ـ مـنـ اـعـلـاتـ الـدـسـتـورـ عـادـوـاـ بـعـدـ اـنـتـنـيـنـ وـثـلـاثـيـنـ سـنـةـ نـخـتـ لـوـاءـ وـالـاـنـحـادـ وـالـتـرـقـيـ ، فـاضـطـرـوـاـ عـبـدـ الـجـمـيدـ فـيـ اـعـلـانـهـ وـالـشـرـوعـ فـيـ اـنـتـخـابـ نـوـابـ الـاـمـةـ . وـهـكـذـاـ كـانـ يـوـمـ ٢٤ـ نـوـزـ (ـ يـوـلـيوـ)ـ ١٩٠٨ـ يـوـمـاـ عـظـيـمـاـ فـيـ تـارـيـخـ الـسـلـطـنـةـ الـعـثـانـيـةـ اـذـ تـنـادـيـ زـعـمـاءـ الـاـمـةـ

(١) الملال ١٢ - ١٦٢ (٢) الباب ٤٣ (٣) المشير ٢٢ فبراير ١٨٩٧ لاستاد

حادي (٤) ديوانه ٥٦ . وراجع ايضاً قول الشيباني ديوانه

بالحرية والمساواة والأخاء فتجاوיבت أصواتهم في أخاء البلاد وكان لها دويّ عظيم بين أبناء الشرق العربي .

﴿ الاستبار العام بالعهد الجديد ﴾ وبإعلان الدستور سرت في نفوس العثمانيين عموماً وأبناء العربية خصوصاً نسوة حبور لم يعهد لها مثل فعقدوا الخفلات الباهرة في الوطن وفي المهاجر . وانبرى خطباؤهم وشعراؤهم بشيدون بمحنة الانقلاب وأعمال القائمين به^(١). ولا يبالغ اذا قلنا انه ما من حدث حرك الاقلام العربية كهذا الحدث العظيم فقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال وعرف بالختباره شعور الناس وشاركه في غبطتهم العامة وأمامهم الواسعة . خذ سوريا ولبنان مثلاً وراجع صحفها لذلك العهد فتدرك عميق ذلك الانفجار الادبي فيها . ويكتفي ان نامح هنا الى قصائد عبدالله البستاني ، ومحبي الدين الخطاط ، وشكيب ارسلان ، والياس فياض ، ونقولا فياض ، وفارس الخوري ، وامين ناصر الدين ، وعبد الرحمن سلام ، ومصطفى الغلايني ، وشبلی ملاط ، وبشارة الخوري ، وسواهم من شعراء الوطن ، وسعيد شقير ، واسعد رسم ، والشاعر القرمي ، وشبل دمومس ، ونعموم مكرزل وأمثالهم في مصر والمهاجر الغربية . هذا فضلاً عن عشرات الاناشيد الوطنية والازجال العامية التي لبست من البيان مسحة لم نعهد لها في عهود الاستبداد .

وما يصدق على سوريا ولبنان يصدق على العراق ايضاً . وهناك الزهاوي ، والرصافي ، والدجيلي ، والعبادي ، والشبيبي ، والهنداوي ، والازري ، والعبيدي من شهدوا هذا الانقلاب وكان كلامهم معبراً عن عواطف الامة .

وقد رسم لنا الزهاوي يومئذ صورة بغداد تُعدّ مثالاً صادقاً لجميع المدن العثمانية .

قال^(٢)

وقفت والعين تبكي من مسرتها امام شعبٍ من الافراح عجاج .
امام مجرٍ من الافكار مضطرب امام جيش من الاصوات رجراج .
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها كالبحر يضرب امواجاً بأمواج .
ازاء هذه النعمة الدستورية نسي شاعرنا ما كاتب يثير اشجانه من مساوى العهد

(١) قال المتفاوت (٩٠٥ - ٢٢) كان لا علان الدستور أعظم وقع في نفوس العثمانيين فعمدوا له حفلات باهزة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها تلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع ملايين مجلدات كبيرة (٢) ديوانه (١٩٢٦) ٢٧٦

الماضي - عهد الظلم والجهل والغوضى - كما كان ينعته قبلاً، فقال والامل ينال فؤاده^(١)

البرق اهدى لنا بُشرى بها هدأتْ ارواحنا بعد طول الحروف والرُّهُب

بُشرى كَما تبتعي الآمال حادة اجلهم الناس من فاصلٍ ومتقاربٍ

لقد اقرَّ لعمري اعيناً سخنَتْ ما ناله فئة الاحرار من اربَّ

وقال آخر يصف شعوره وشعور الناس في احدى حلقات الدستور في بيروت^(٢)

« هذه اول مرة شعرت فيها بالوطنية التي يشعر بها كل من قدر الوطنية قدرها .

يتزاور الناس من جميع الطبقات وهم فرحون من شرحو الصدور فالیوم شعر

السوريون بطبيب الحرية وادر كواسو، مغبة الاستبداد والضغط وعرفوا ان التعصّب

الذى يفرق الكلمة يفرق القلوب. اليوم دروا ان اوربا لم تستفحل صوتها الا بالاتحاد،

ولا اتحاد مع التعصّب »

وليس في هذا الكلام شيء كبير ولكنه شعور الناس يومئذ . وقد كانت ذلك

الشعور يتذفق شعراً ونثراً على السنة كبار الادباء وعلى السنة صغارهم وكان للشعر

العامي نصيب وافر منه ولاسيما في لبنان ومهاجرته ومن امثلته قول احمد ارتيجالا^(٣)

يا اسلام ومبجعه اسمعوا لي ها قضيته

أهل الارض بطول وعرض يقولوا تحبوا الحرية

أهل الارض بطول وعرض يقولوا تحبوا الحرية

فليجيـا نـيـازـيـ وـانـورـ وـالـجـوشـ الشـاهـانـيـهـ

أهل الارض بـكـامـلـهاـ منـ اوـهـاـ لـآـخـرـهاـ

تركـيـاـ اللهـ يـعـرـهـاـ بـجـاهـ ربـ البرـيهـ

بطـلـ دـوـحـ الـاسـبـدـادـ نـادـهـاـ بـكـلـ الـبـلـادـ

زـمـاتـ المـاضـيـ ماـ يـنـعـادـ الـظـلـمـ نـجـوـمـهـ

خفـيـهـ

وقد استدرك في هذا التهليل اشهر قوله ذلك الحين كخليل الفقالي الشحوري

(١) ديوانه (١٩٢٦) ٢٧٥ (٢) جريدة لسان الحال ١٩٠٨ آب ١٩٠٨

(٣) الادب في القرن الثامن عشر (شيخو) ٢ - ١٦٣

والباس الفران وسواعها . وللأولخمس دعاء صوت الحرية ومطلعه :

صوت البري من قاع بوسفور العتيق لـا وصل الله من اقوم طريق
المجد ظلل حزب تركيا الفتاة وانتصر عهد الجديد على العتيق

المجد ظلل حزب تركيا الفتاة والروح لبستها بعد ذاك الملايين
والرب اووهها علا ونصر وحياة من بعد ما كانت حزينة بائمه
والمظالم راح بتختلقها خبيث

وقد ذكره الاب شيخو في منتخباته الدستورية . وكذلك ذكر « فرادية » للفران
مطلعها .

كنت بأكبر بليه سجن العبوديه

وبعض اقوال المباجرين فلتراجع^(١)
ولم تقصر مصر في مشاركة سائر الاقطان العثمانية بهذا الابتهاج العام . على انه لا
مناص للناظر المتعدق في الخواج الشرعي يومئذ من ان يلمح هنا كما لمح من قبل شيئاً
من التفاوت بين النزعة المصرية الصمية وغير الصمية . فبينما ترى الاخيره تقرن
الغبطة الدستورية بذكريات العهد البائد وما ثر رجال الانحاد ، وتحوم دائماً حول ما كان
يقاسيه الناس من ظلم واضطهاد . ترى الاولى هزجة بالعرش العثماني داعية الى توثيق
عري الاخلاص له وقلما ترى فيها ما يشير الى اضطرابه او فساده ، وحال الرعية في ابان
استبداده . وهذه قصيدة شوقي في الدستور العثماني^(٢) ومطلعها .

بشرى البرية فاصيبها ودانها حاط الخلافة بالدستور حاميها

فهي فيض من الحبور ، وبشرى وخاءه يستقبل زاهر ستقر له عيون العثمانيين
ولكنها عند التحقيق فلادة يضعها في عنق السلطان - اثنان وخمسون بينما اكثراها يدور
على السلطان وعمله العقيم في اعلن الدستور من مثل قوله -

اسدى الينا امير المؤمنين يدا جلت كاجل في الاملاك مسدتها
وليس مستعطاها فضل ولا كرم من صاحب السكرة الكبرى^(٣) ومنشها

(١) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ - ١٦٠ - ١٦٢ (٢) الشوقيات ١

(٣) اشارة الى السكرة الحديدية المجازية

إن الندى والرضا في واسعه والله لأخير هاديه وهادها
 خلافه الله في احضان دولتهم شاب الزمان وما ثابت نواصيها
 بل هو يعزز الى عبدالجيد قبول الدستور راضياً مرضياً وانه لو أراد لرفضه
 وأحدث حرباً أهلية عظيمة -

حققت عند مناداة الجيوش بها تدمير البرية ارضاً بسادها
 وهكذا يجري في مدحه وتبنيان فضله ولا يشير الا بيت واحد فيها الى رجال
 الدستور. وفي نهايتها يبني العثانيين ويشير الى حال مصر والى أماني المصريين فيقول -
 يا شعب عنان من ترك ومن عرب جيّاك من يبعث الموتى ويحييها
 صبرت للحق حين النفس جازعة والله بالصبر عند الحق موصيها
 ما بين آمالك اللائي ظفرت بها وبين مصر معانٍ أنت تدرّبها
 ومثل شوقي حافظ ابراهيم في قصيدة «تحية الاخلاص»^(١) اللامة العثمانية الدستورية
 فيها يدح السلطان عبدالجيد لاعلانه الدستور ومدحه سكة الحجاز . ويستهلها بقوله -
 انتي الحبيب عليك والحرمان وأجل عبد جلوسك الثقلان
 أرضيت ربك إذ جعلت طريقه أمناً وفزت بنعمة الرضوان
 وجمعت بالدستور حولك أمة شئ المذاهب بحة الانغام
 ومنها مثيراً الى سرور الناس بالحرية -

تلحق صدورهم وفرّ قرارهم لما حلفت باوثق الآيات
 يا يوم عاد النازحون لارضهم يتسابقوت لرؤبة الاوطان
 الله كم اطفأت من نار ذكت دهرآ وكم هدأت من اشجان
 هذا يظير الى «فروق» ومن بها شوقاً وذاك الى ربى البنان
 خلعوا الشباب على البشیر وأخلقوا باللهم عهد خليفة الرحمن
 وينهي باللائحة على شريف مكة ويحمل عليه وعلى أغوانه حملة شعواء . وفي
 القصيدة وصف للحرية معشوقه الجميع وذكر خاص لشهر تموز (يوليو) شهر الدستور
 وفنّ أن يكون لمصر نصيب منه -

(١) راجعها في ديوانه (١٩٢٢) ج ٣ - ٢١

غَنْوْز أَنْتَ أَبُو الشَّهُورِ جَلَّاَةً
هَلَاَ جَعَلْتَ لَنَا نَصِيبًا عَلَيْنَا
إِيَّاكَ الْأَمَلُونَ بَا رَجُواَ وَنَعُودُ خَنْ بِذَلِكَ الْحَرَمَاتِ

وهي تدعوا الى الوئام والاتحاد في ظل الملال
وعلى غرار شوقي وحافظ أكثر نفثات المصريين الدستورية^(١). ومثلها ما نراه في
الادب الجزائري والتونسي . وبقابلها من الجهة الأخرى نفثات الذين ذاقوا مرارة العهد
الميدي : ففيها كما أسلفنا يقتربن الحبور بذكر الماضي ، كما ترى في شعر ولبي الدين يكن
ومنه قصيدة في افتتاح البرلمان العثماني يقول فيها^(٢)

بِالْأَمْسِ كَنَا مَعْشِرًا تَبَكِي خَالَتَنَا الْمَعَاشُ
تَقَادَنَا الْأَيْدِي الْأَيْمَنُ لِلسُّجُونِ وَلِلْمَقَابِرِ
وَيَصُولُ اِنْصَارُ الْمُلْكِ عَلَى الْأَكَابِرِ وَالْأَصَاغِرِ

ومنها مثيرة الى المجلس النيابي :-

لَهُ قَصْرٌ شَامِخٌ مَدَ النَّوَاطِرُ عَنْهُ قَاصِرٌ
قَصْرٌ بِهِ يَعْلُو النَّاسُ وَيَرْأَسُ مَأْمُورٍ وَآمِرٌ

وتعيش عاطفة الشر في نفسه يقول

يَا دَهْرَ شَكْرُكَ وَاجْبُ يَا دَهْرَ مَا فِي النَّاسِ كَافِرٌ
لَمْ يَقِنْ ظَلْمٌ يَتَّقِنْ دَارَتْ عَلَى الظَّلْمِ الدَّوَافِرُ

هذا الميل الى مقابلة العهد الحاضر بالعهد البائد - الى ذكر المساوى ، التي كانت
ترزع الناس وتؤلمهم تعظيمًا لحسنات الدستور وبشأن ما كانت تكتظمه الصدور تراه
شائعاً في المنظومات الدستورية خارج الحلقات المصرية . وقد ذهب الشعراء في ذلك
كل مذهب وهاموا في كل واد . ولا بدّع لهم يعتبرون عن شعور امة كانت ترسف
بقيود الذل فجاءها فجأة من حطّم تلك القيود ، واطلقها حرّةً تنعم بسعادة الوجود .
ولو اردنا ضرب الامثلة على هذه الظاهرة الروحية مالانا صفحات عديدة من قصائد

(١) راجع خطبة الشيخ علي يوسف (المطبعة الأدبية بيروت ١٩٠٨)

(٢) ديوانه (١٩٢٦) (٥٦) مطبعة يوسف (١)

الشعراء وخطب المخطباء ولكننا نكتفي هنا بأغذج منها . وهو أبيات من قصيدة لسعيد باشا شقير قال فيها يخاطب الجن الذين تمّ على أيديهم اعلان الدستور

الْيَوْمَ نَرَحُ اَهْرَاراً بِفَضْلِكُمْ نَغْدُو وَنَسِي وَلَا هُمْ وَلَا تَصَبُّ
قَدْ اطْلَقَ الْحَرَّ مِنْ سِجْنِ اهْنِ بِهِ
فَلَا جُوايِسْ تَخْشَى مِنْ وَثَابِتِهِمْ
نَامَ فِي الْلَّيْلِ لَا الْاَحْلَامْ تَقْلِقْنَا
كَمْ بَيْنَ حَالٍ اَنْتَنَا كَلْبًا طَرَبْ
وَبَيْنَ حَالٍ عَدْتَنَا كَلْبًا رَهَبْ

ومثلها قول نقول رزق الله من قصيدة مطلعها^(١)

بَا اِيَّاهَا النَّاسُ حَيَّوْا ذَلِكَ الْعِلْمَا وَسَبَحُوا مَانِحَ الْحُرْبَةِ الْأَمَّا

وفيها يطلب من الناس مناصرة عصبة الاحرار الذين احيوا البلاد ، وحرروا العباد والدعاء لهم بالبقاء حتى تدوم للوطن هذه الآلاء . ثم يلتفت الى العهد الماضي فيقول

سُوَاكُمْ الْعَدْلُ اخْوَانًا سُوَايَةِ
فَلَيْسَ بِيُظْلِمُ فِيمَكُمْ غَيْرُ مِنْ ظُلْمًا
وَلَيْسَ يَقْصِي اَدِيبٌ عَنْ مَوَاطِنِهِ
وَلَا يَخْيَلُ عَلِيمٌ قَالَ مَا عَلِمَ
وَلَا يَكَافِأُ ذُو مَالٍ لِتَرْوِنَهُ
وَلَا يَقْوِمُ عَلَى الْذَلِّ الْعَزِيزُ كَمْ
لَا يَعْبُثُ بِحَقِّيْ مِنْ حَقْوَفِكُمْ
ذُو سُلْطَةٍ جَائِزٌ مَهَا عَلَا وَسِيَا

ومثل هذه الروح تظهر في الخلافات التي اقيمت بعد الحرية سنة ١٩٠٩^(٢)

* * *

وسواء اكان الشعر العربي بمثابة للعرش العثماني ام غير بمالي ، فان الدستور القى عليه عموماً مسحة ظاهرة من الزهو والاستبار اذ فتح للناس ابواب الرجاء فأصبحوا ينظرون الى المستقبل نظر الوثوق والتقاول . وكان الدستور عندهم شعار السعادة الفردية والقومية ومفتاح الرقي الاقتصادي والاجتماعي . شعور لذيد هز القلوب حيناً ولكن لم يطل

(١) الحال ١٢ - ١٢٢

(٢) راجع من ذلك « بعد الحرية » لامين ناصر الدين في صدى الماظر ٩٢

فـ خلع عبدالحميد ^٢ والذى يلاحظ من دراسة الشعر ان هذا الحبور العام الذى عقب اعلان الدستور كان في اول الامر مقرئنا بالثناء على عبدالحميد . ذلك لأن الذين احدثوا الانقلاب لم يتسوأ بادىء ذي بدء عرشه فظل حيناً يتمتع بنفوذ عظيم . على انه لما حدثت الفتنة الرجعية سنة ١٩٠٩ رأى الدستوريون ان في بقاء ذلك السلطان خطراً على نظامهم فخلعوه في ٢٧ نيسان من تلك السنة واجلسوا على العرش اخاه محمد رشاد . وبخلعه سرت هزة شعرية لا تقل عن هزة الدستور : فتفجرت القلوب بما كانت تكتنفه لشخصه ولعهده ، واخذ الشعرا في سوريا والعراق والمهاجر يتبارون في تعداد مساوئه . ومن امثلة ذلك قصيدة لفارس بك الخوري ^(١) مطلعها

الله اكبير فالظلم قد علموا لاي منقلب يغضي الاولى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت اركانه وتولت اهله التِّقَمُ

ومنها يخاطب عبدالحميد ساخراً به ذاكراً بجد اسلامه

شادوا لك العزة القعاء من قدم فجئت بهدم ما شادوا وما رسوا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضة وفي زمانك لا سيف ولا قلم
حصدت ما زرعوا افرقت ما جمعوا هدمت ما رفعوا بعثرت ما نظموا

وهي طويلة وكلها من هذا النـسـنـ البـلـيـغـ . وأشد منها تشفيتاً قول احد شعراً
المهجر من قصيدة نشرتها جريدة مرآة الغرب ^(٢)

مضى عبد الحميد الى مكان رمت فيه أم فشم الرحـالـ
مضى وله بفعل الشر ذكر ما ذكر الـالـىـ كانوا مثلاـ
ملكـ قد تسربـ بالخـازـيـ وعمـ الارـضـ غـدرـ واحـتـيـالـ
امـيرـ المؤـمنـينـ دعـوهـ زـورـاـ فـكانـ الذـئـبـ لمـ يـعـرـفـ حـلـالـ
عدـوـ الدـينـ وـالـاسـلامـ هـلـاـ علمـ بـاتـ فيـ الدـنـيـاـ زـوـالـاـ

والمعروف الرصافي في ديوانه قصيدة معروفة يصف فيها زحف الجيش من سلانيك
على الاستانة وخالعهم عبد الحميد تأييداً للحرية وحفظاً للدستور . ومطلعها -

لقد سمعوا من الوطن الائـنـاـ فـضـجـواـ بـالـبـكـاءـ لـهـ حـنـيـناـ

(١) راجع (النصيدة في المقتبس ٦-١٣٧) . (٢) الأدب العربي في القرن النـاسـعـ عـنـ (شـيخـونـ)

وناداهم النصرة فقاموا جميعاً للدفاع مُسلحين
ومنها مثيراً إلى زحف الجيش وارغامهم أنوف الرجعين -
أتنا دار قسطنطين صبحاً وقد فتحت لهم فتحاً مينا
وظلَّ الجيش جيش الله يشفى بحمد س يوسف الدهاء الدفنا
فارهق أنفس الطاغين حتى سقاهم من عدالتِه المثوان
وخطوا قصر يلذر عن سماء له فانحطَّ أسفل سافلينا
هوى عبد الحميد به هوياً إلى درك الملوك الظالمين
وفي خاتمة - واسقط ذلك الجبار فهراً وأبناؤه بصارمه اليقينا
فقررت أعين الدستور أمناً وشاهدت أوجه التمرِّدين

وله في ذلك قصيدة أخرى اسمها «وقفة عند يلذر» وهي لا تقلَّ عن اختها مضاءً.
وفيها يخاطب الشاعر قصر يلذر بعد ان سقط صاحبه (عبد الحميد) وارسل سجينًا إلى
سلاميك ، فيذكر ما كان له من مساوى، ومظالم ويختم القصيدة بنفحة فخرية حاسبة
فيقول -

إنما نحن أمةٌ تدرأ الضيم ولا تستكين لوالٍ
أمة سادت الأئمٌ وطابت عنصراً من أواخرِ وأولٍ
فإذا ما علا الغشوم نهضنا فقدمناه سافلًا من عالٍ
نحن من شعلة الجحيم خلقنا لأولي الجور لا من الصالٍ

وهذا تحمله الخامسة إلى اقصى مدى فيهدد طغاة الأئمَّ جميعاً منذرًا إياهم بسوء المصير
فيقول -

يا ملوك الأئمَّ هلاً اعتبرتم يا ملوكِ تجور في الأفعالِ
فاتركوا الناس مطلقين والا عثتم مونقين بالآوجالِ
وعلى هذا الغرار كثير من ادب ذلك العهد^(١)

* * *

تلك كانت عواطف الشعر العربي في العراق والاقطاع السوري والمهاجر . أما في

(١) راجع الكاظمي في كتاب أدب المسر لسنة ١٨٣٠ والقروي في ديوانه الرشيديات ٩١
ووديع عقل في ديوانه ٨٥ . وبشارة الخوري - في الأداب العربية لشيخوخ باب الحياة الدستورية

مصر او في الاوساط المصرية الاصيلة فمن الطبيعي ان لا تتوقع هذا الاندفاع في الجمل على عبدالمجيد والتهليل لسقوطه . فالمصريون او بكلمة اصح فالشعر المصري قد قابل خلعة برعشة مقرونة بالعطف والشفقة . وذلك على ما يظهر لسيدين رئيسين . (١) لما ذكرناه سالفاً من ان المصريين الحديثين لم يذوقوا من الادارة الجميدة ما ذاقه اخوانهم في الاقطار الاخرى . (٢) لانهم كانوا ازاء الاحتلال اجني قد اثار حفاظتهم الدينية واجنبية وليس من الوفاء الوطني وقد جاہروا مراراً بعودتهم للعثمانية ان ينقلبوا على الخليفة الآن ويحطوا من شأنه امام الاجانب وقد كانوا الى الامس يعظمونه ويدعون له . فليس غريباً اذن ان تخل علاقتهم بعرش الخليفة حية فعالة ، وان يكونوا اعطف على المأوي عنه واقرب الى الصفع عن سباته . وعلى ذلك نرى شوقي يقول في قصيده

« سل يلذا ذات الفصور » (٣)

خطبُ الْإِمَامِ عَلَىِ النَّظِيمِ يَعْزِزُ شَرْحًا وَالنَّثِيرَ
شِيخُ الْمُلُوكِ وَانْ تَضَعُضُ فِيِ الْفَوَادِ وَفِيِ الْضَّمِيرِ
نَسْغُفْرُ اللَّهُ لَهُ وَاللَّهُ يَعْفُوُ عَنِ كَثِيرٍ
وَزَرَاهُ عَنْدَ مَصَابِهِ أَوْلَى بِبَاكٍ أَوْ عَذَّيرٍ

وَانْظُرْ إِلَىِ رُوحِ الْعَطْفِ كَيْفَ يَظْهُرُ فِي قَوْلِهِ مُخَاطِبًا عَبْدَ الْمُجِيدِ

عَبْدَ الْمُجِيدِ حَسَابُ مُثْلِكِ فِي يَدِ الْمَلِكِ الْغَفُورِ
مَاذَا دَهَّاكَ مِنِ الْأُمُورِ رَوَانَتْ دَاهِيَةُ الْأُمُورِ
دَخَلُوا السَّرِيرُ عَلَيْكَ يَحْتَكِمُونَ فِي دَبَّ السَّرِيرِ
أَعْظَمُهُمْ مِنْ آسِرِينَ وَبِالْخَلِيفَةِ مِنْ أَسِيرِ

وكان طبيعياً ان يتلبس شعر شوقي بثوب الوفاء للسلطان والعطف عليه كان طبيعياً ايضاً ان نرى شاعراً كولي الدين ذاق ما ذاق من احوال الاستبداد بعارض قصيدة شوقي فينظم قصيدة (٢) على وزنها ورويتها منذداً بعد المجد معدداً سبات حكمه كقوله : -

أَنَّ الثَّلَاثَيْنِ الَّتِي مَرَّتْ بِنَا مِنْ الْعَصُورِ
وَهَبَتْكَ تَجْرِيَةُ الْأُمُورِ فَعُشْتَ فِي جَهَلِ الْأُمُورِ

من كان يدعوك أخبير فلست عندي بالخبر الله من شاء
 ويقول مثيراً إلى شوقي وطبقته متأنياً من عطفهم ومسيناً الظن بعواطفهم
 لما ادبل عن السرير بكاه عبد السرير ما يأبه على البكاء
 أسفوا عليه وأفأ أسفوا على المال الدرير ما يأبه على البكاء
 طلبوا له عفو الغفور وشذّ عن غفو الغفور
 وما نراه في شعر شوقي نراه في شعر حافظ واسحاعيل صبوي وأحمد نسيم وسواهم
 ويشارك مصر في هذا العطف سائر الأقطار الإفريقية^(١) ونود أن نشير هنا إشارة خاصة
 إلى قصيدةتين حافظ^(٢) فالاولى مطلعها

كيف امسيت يا ابن عبد الجيد	لارعى الله عهدها من جدود
فيك قبل الدروز قبل اليهود	ومنها - شمت المسلمين قبل النصارى
يشرت الورى في طريد	شمتو كلهم وليس من المهمة ان
وعبد الجيد والناج معقود	انت عبد الجيد والناج معقود
خالد انت رغم انت الليالي	في كبار الرجال اهل الخلود

وهذه القصيدة ، برغم ما يتخالها من ذكر بعض المساوىء الجيدية ، مرتبطة بشعور واحد هو شعور العطف والوفاء خليفة

ولي الامر ثلث قرن ينادي باسمه كل مسلم في الوجود

على ان هذا العطف أخذ يخف في شعر حافظ وها نحن نراه في العيد الدستوري الاول ينشد قصيده التي مطلعها «اجل هذه اعلامه ومواكبها» فيذكر حامد الدستور ومامي محمود شوكت ونيازي وانور . ويقف على يلدز واصفاً ما اصابه ، معدداً اوهام صاحبه وانخطاءه ثم يقول

سلوه أأغنت عنه في يوم خلعه	عجباته او احرزته رغائبه
واخرجه من يلدز رب يلدز	وجرده من سيف عثمان واهبه
واصبح في منفاه والجيش دونه	يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحق ذق ما اذقتهم	فكل امرئ رهن بما هو كاسبه

(١) داجع ديوان مصطفى آغا ٨٢
 (٢) راجع ديوان في ديوانه (١٩٢٢) ص ٣٠-٣٢

مضى عهد الاستبداد واندك صرخه' وولت افاعيه' وماتت عقاربها
و اذا قابعنا حافظاً في قضيته هذه التي نظمها بعد خلع عبد الحميد بنحو ثلاثة اشهر
وجدنا ان تحوال عطفه عن ذلك السلطان لم يخفف من ولائه للعرش العثماني والخلافة
الاسلامية فهذا العيد يستخفه' لدح السلطان الجديد محمد رشاد وتعظيم عرشه فيقول -

لتهني امير المؤمنين محمدأ خلافته فالعرش سعد كواكبه
ستملک امواج البحار سفينه كا ملكت شم الجبال كأنبه
مالکه محروسة وتغوره' وكأنبه منصورة' ومراتبه

لهم الله رب العالمين

الدستور والروح الوطنية

ما ذكرناه آنفًا يتضح أن ما ندقق به الشعر الدستوري من عواطف الجبور والتهليل راجع بالاكثر إلى ما نشأ في نفوس العثمانيين عموماً والعرب خصوصاً من إيمان ثابت بخلاص الدستوريين ورجاء حيّ بحسن المصير . فكنت تراهم على شبه يقين من أنهم أصبحوا أبناءً لدولة عظيمة تحبّهم وتُرحب في تقديمهم

ذلك الإيمان وذلك الرجاء بعثاً في الشرق العربي روحًا جديدة ابقطت القلوب وأضربت فيها الشعور بالفخر والكرامة الذاتية فألبست الأدب حللاً قشيبة من الجمال . وقد ظهر ذلك في مظہرين رئيسين هما الاعتزاز بالوطنية، والدعوة إلى الاتحاد القومي . وبالبكاليان مما اختبرناه بأنفسنا وعرفناه من اختبار الآخرين

الاعتزاز بالوطنية اشرنا في فصل سابق إلى ما كان للحرب الروسية اليابانية ١٩٠٥ من أثر في تخمير الشرق العربي بروح الكرامة الشرفية . وقلنا ان ذلك لم يكن الا سبباً تمهيدياً لحركة أعمق واسع نطاقاً . وقد بدأت هذه الحركة فعلاً عقب إعلان الدستور . وسنجري كيف تطورت مع الزمان . وكيف تغيرت اشكالها في ستي البلدان .

ولا يخفى ما كان للإجاذب في السلطنة العثمانية من نفوذ سياسي واقتصادي وفكري . فهم أصحاب الامتيازات وفي معاهم نشأ سواد المتعلمين ، فلا بدع ان يتولد في نفس الشرقيّ ازاءَهم ما يسميه علماء النفس بركب النقص او بالصغرى الذاتي^(١) حتى صار عند الجمود كل شيء غربي افضل من كل شيء شرقي ، تاجرهم اصدق ، وعالاهم اعلم ، وحان عليهم أحذق ، بل وعندهم اشرف وارق . وجرى ذلك بين الناس في الشرق العربي والغزو حتى صار جزءاً من كيانهم النفسي . على ان النهضة العلمية اخذت منذ

(١) مقابلة للتعمير الانكليزي Inferiority Complex

القرن الماضي تعمل على اضعاف هذا الشعور ، فنشأ بين المفكرين من آثار على «الصغار الذاتي» حرباً شعواءً داعياً الناس إلى احترام النفس واحترام الوطن. كقول أحدهم^(١) «كيف نؤمل بخواج صناعتنا وتتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يسدد صناعتهم ويطعن في صناعة بلاده ، ويفضل ما كان أفرنجياً، مما كان». وقد نظر الكاتب هنا إلى الوجهة الاقتصادية وهاله أن يرى تأخر الوطني لتأصل فكرة سقيمة فيه . ومنهم من نظر إلى الوجهة الاجتماعية أو الروحية فآلله ان يرى ما يسود الناس من اعتقاد بأفضلية الغربي وتفوقه الفطري على الشرقي . فقال^(٢) «ام لا ترى انك لو عنيت بأمر قومك عنيتك بالاجنبي تقوم بأمره وتولع بشكره ، لما لبست ان ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان رفيعاً ، ومن يدرك سعيه وإن كان سرياً»

وعرف الغربيون ذلك الشعور في الشرقين فاستغلوه بل تادوا في استغلاله حتى صاروا لا يتورّعون عن التسامخ على بني الشرق وامتهاهم في عقر دارهم . فمن الطبيعي ان يولد ذلك في نفوس الآباء من الشعراء والكتبة «رد فعل» يظهر في منظومهم ومنتشرهم كما ترى في قصيدة للزهاوي قالها قبل الدستور ومنها^(٣)

كى الغرب فخرا انه متقدم
وان له في البر جيشاً عرماً
يائله في البحر جيش عرم
ترقى فلما استند سعاده عنا
وبات يعظ الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه بمحققه
سكوتاً كأنّ الشرق ليس له
فيها الغربية المدلّ بنفسه
رويدك ما هذه الغرور المذموم
أتزعم ان الشرق يلبث صاغراً
أمامك مغضوباً وأنت المكرم
وتبقى عليه هكذا متسيناً
قصـدم الاموال منه وتهضم

والقصيدة حوالي ثلاثة بيتاً وكلها على هذا النسق من التبرّم بهذه الحال ويتخللها فخر بالماضي وأمل بالمستقبل . وعلى هذا النسق اقوال كثيرة^(٤) وظلّ الامر كذلك إلى أوائل القرن الحالي حينأخذت الحضارة الجديدة تعمّ البلاد وحين توفر الشرقيون على دراسة العلوم الحرة ، فعرفوا ما لهم وما عليهم .

(١) سليم البستاني . بحالي الغرب (١٩٥٦) ١٠٠ (٢) أديب اسحق في الدرر ١٢٨

(٣) ديوانه (١٩٣٦) ٢٩٣ (٤) داجع ديوان احمد نسيم ١ - ١٣ و ٢١ و ديوان

مصطفى الرافعي ١ - ٣٦ و متنقفات في ديوان محمد جبد المطلب

وَكَبُرَتْ نَفْوَسِهِمْ فَصَارَتِ الطِّبْقَةُ الْمُتَقْفَةُ مِنْهُمْ تُشْعَرُ بِوُجُودِهَا، فَيُسُؤُهَا مَا تَرَاهُ فِي الْوَطْنِ مِنْ أَثْوَرَةِ أَجْنِبَةٍ وَتَحَاوُلُ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا بِشَنِّ الْوَسَائِلِ وَلَا سِيَّما بِاحْيَا الرُّوحِ الْوَطَنِيَّةِ . عَلَى أَنْهَا كَانَتْ تَصْطَلِدُ بِالْأَمْتِيَازَاتِ الْأَوْرُوبِيَّةِ . وَيَفْتَأِي فِي عَضْدِهَا خَنْوَعُ الدُّولَةِ لِلْأَجَانِبِ وَجَهَلُ الْعَامَةِ مَعْنَى احْتِرَامِ النَّفْسِ وَالْوَطْنِ . وَقَدْ زَادَ الطِّينَ بِلَئِنْ تَلَكَ النَّعْرَاتُ الطَّائِفَيَّةُ وَمَا وَلَدَتْهُ مِنْ ضَغَائِنَ وَمَخَاوِفَ ، إِذَا قَعَ الْبَابُ لِتَدْخُلِ الْأَوْرُوبِيِّينَ بِمَجْهَةِ حِمَايَةِ الْأَقْلَمِيَّاتِ ، وَبِالْتَّالِي لِأَزْدِيَادِ نَفْوَذِمِ الرُّوحِيِّيِّيِّ وَالسِّيَاسِيِّيِّ وَشَيوُعِهِ فِي جَمِيعِ الْمُجَاهِ الشَّرْقِيِّ (١) فَلَمَا أُعْلَمَ الدَّسْتُورُ وَارْتَقَعَ الضَّغْطُ الْمُضِيقُ عَنِ الْأَلْسُونِ وَالصُّدُورِ ، اتَّقَدَ الشَّعُورُ الْوَطَنِيُّ اتَّقادًا لَمْ يَعْهُدْ مِنْ قَبْلِهِ وَأَخْذَ الْأَدْبُ الْعَرَبِيَّ يَتَغَيَّرُ بِالْقَوْمِيَّةِ تَغَيِّرًا غَرِيبًا اسْتَرَكَتْ فِيهِ جَمِيعُ الْعَنَاصِرِ وَالظَّواَنِفَ . وَقَلَّمَا كَانُوا لَا يَفْرَقُونَ بَوْمَيْذَ بَيْنَ الْكَرَامَةِ الْشَّرْقِيَّةِ وَالْكَرَامَةِ الْعَثَانِيَّةِ ، بَلْ ذَهَبُوا إِلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ فِي حِسَاسِهِمِ الْدَّسْتُورِيَّةِ فَقَلَّبُوا لِلْأَجَانِبِ ظَهَرَ الْمُجَنَّنَّ وَرَفَعُوا الْمَلَلَ الْعَثَانِيَّ إِلَى أَوْجِ التَّعْظِيمِ .

وَقَدْ كَانَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ الدَّسْتُورِ وَلَكِنَّهُ لَا يَقْاسِ بِهَا وَصَلَّى إِلَيْهِ بَعْدَهُ وَالَّذِينَ ادْرَكُوا ذَلِكَ الْعَهْدَ لَا يَنْسَوْنَ قَطْ تَلَكَ الْمُهَبَّةِ الْقَوْمِيَّةِ الَّتِي كَانَ هَنَا فِي نَفْوَسِ الشَّبِّيَّةِ فَعَلَى الْمَسْكُرَاتِ فَأَثْلَلُوهُمْ حَتَّى نَسَوا مَسَاوِيَ الْعَهْدِ السَّابِقِ ، وَاطَّلَقُوا لِأَقْلَامِهِمْ وَأَسْتَهِمِ الْعَنَانَ فَجَرَتْ فِي هَذَا الْمُضَارِّ جَرِيَ السَّوَابِقِ . فَلَا تَسْتَعْرِبُ الْيَوْمَ إِذَا قَرَأْتَ لَأَحَدِ ادْبَاءِ بَيْرُوتِ الْمُسِيَّحِيِّينَ الْاَصْلَاحِيِّينَ قَوْلَهُ مِنْ خَطَابِ الْقَاهِ فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ (٢) :

« لِيَتَبَعِّجَ الْعَثَانِيُّونَ فَقَدْ نَشَرَ الدَّسْتُورُ ، وَجَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي لَمْ فِيهِ شُعُّتِ الْأَمَّةُ الْعَثَانِيَّةُ وَتَأَلَّفَتْ أَعْضَاؤُهَا ، وَتَأَخَّتْ أَبْرَؤُهَا . فَكَلَّا بِنَعْمَةِ الدَّسْتُورِ عَثَانِيُّونَ - عَثَانِيُّونَ لَا نَعْرِفُ غَيْرَ هَذَا الْلَّقْبِ لِقَبَّاً ، وَلَا نَتَخَذُ سَوَاهِ نَعْتَاً . عَثَانِيُّونَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، عَثَانِيُّونَ طَوْلُ الْحَيَاةِ . عَثَانِيُّونَ مَذْهَبُنَا الْحُرْبَةُ وَشَعَارُنَا الْوَطَنِيَّةُ وَفَغَرَنَا الرَّايةُ الْمُهَلاَّةُ وَمَلْجَانَا الدُّولَةُ الْعُلِيَّةُ »

وَمِثْلَهُ مَا جَاءَ فِي لِسَانِ الْحَالِ مِنْ افْتَاحَةِ (٣) : - قَالَ الْكَاتِبُ يَصْفِحُ حَالَتَنَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ قَبْلَ الدَّسْتُورِ وَيَقْبَلُهَا بِمَا صَارَتْ عَلَيْهِ بَعْدَهُ - « لَمْ يَكُنْ حَالَنَا حَالَ الْمَرِيضِ فَقَطْ . بَلْ لَا يُجَازِفُ إِذَا قَلَّنَا أَنَّا كَانَ قَدْ بَلَغَنَا حَالَ الْمُخْتَسَرِ . وَهُوَ حَالُهُ الدُّورِ (أَيْ دُورِ الْاِحْتِضَارِ) إِلَى أَنْ أَتَانَا الدُّرِّيَّاقَ فَنَشَطَنَا مِنْ عَقَالِ الْمُهُولِ وَوَبَّنَا وَثَبَّتَهُ الْأَسَدُ مِنْ الْعَرِينِ » وَبَعْدَ أَنْ يَصْفِحَ هَذِهِ النَّهْضَةَ يُشِيرُ إِلَيْهَا عَلَقَةِ الْوَطَنِيِّيِّيِّنَ الْأَجَانِبِ فَيَقُولُ (وَهُوَ

(١) خَلِيلُ ذِيَّنَهُ جَرِيدَةُ الْثَّبَاتِ ٦ عَدْدٌ (٢) عَدْدٌ ٢٦ تَنْرِينٌ اُولٌ : أَكْتُوبِر١٩٠٨

من المعروفين باعتدال المنهج) - « وسيرى الغريب من الفرنجة وغيرهم كيف يعاد
بجد الامم وتتجدد حياتها بقوة افراد رجالها »
وقال احد الكتبة المسلمين^(١) واصفاً ما كانت تقاصيه الدولة من السياسة الاوربية
- « ان الدول كانوا يواصلون الضغط على جسم المملكة العثمانية وبضاعفون السعي
لایقاع الشلل في عروقها الكثيرة التشعب . ولكن قضى ربك ان يهـ كيد اوئلـ
المتسابقين الى نعش هذا الجسم المتضعف الى نحرهم ، وتعود العثمانية بفضل الدستور
قوية الشكيبة تقف في وجوههم وقفـةـ الرـبـالـ لاـ جـزـعـةـ ولاـ فـزـعـةـ »
وعلى هذا المنوال نسجـ كـثـيرـ منـ المـقـالـاتـ وـالـخـطـبـ وكـلـهاـ تـشـيرـ الىـ ماـ كـانـ يـلاـ
النـفـوسـ مـنـ النـقـمةـ عـلـىـ الـاجـانـبـ اوـ عـلـىـ الـاـقـلـ منـ الـاـمـلـ بـنـهـوـضـ الـدـوـلـ فـيـ سـرـهـ
ابـنـاـءـهـ (ـ التـرـكـ وـالـعـربـ عـلـىـ السـوـاءـ) بـجـدـهـ الـغـابـرـ وـلـاـ يـضـطـرـوـنـ بـعـدـ انـ يـقـفـواـ اـمـامـ
الـاجـنـيـ وـقـفـةـ الـضـعـيـفـ اـمـامـ القـادـرـ .

اما الشعر فحدث عن اتقاده الوطني ولا حرج . فيه استركت جميع الاقطار
العربية والماهجر حتى لبنان فانه رغم استقلاله الذاتي ورغم اتجاهه نحو الغرب علقت بهـ
شرارة من ذلك ال�يب فكلـ منـ اـبـنـاـءـهـ فيـ الـوـطـنـ وـالـمـهـجـرـ شـعـرـاءـ يـزـجـونـ بـتـعـظـيمـ
الـانـقلـابـ وـالـاسـتـبـشـارـ بـهـ ، وـيـلـلـونـ لـلـعـرـشـ الـعـثـانـيـ وـابـطـالـ الـحـرـيةـ . وـمـنـ اـرـادـ الـاطـلـاعـ
عـلـىـ مـاـ قـيلـ فـلـيـرـجـعـ إـلـىـ الصـحـفـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ الـعـامـيـنـ ١٩٠٨ـ وـ ١٩٠٩ـ^(٢)
وـمـاـ لـرـبـ فـيـ انـ الشـعـرـ الـدـسـتـورـيـ فـيـ السـتـيـنـ الـمـذـكـورـيـنـ مـفـعـمـ بـرـوحـ النـفـاؤـلـ
شـدـيدـ الـحـمـاسـ الـمـكـرـامـ الـشـرـقـيـةـ وـالـجـامـعـةـ الـعـثـانـيـةـ . سـوـاءـ فـيـ ذـلـكـ الـمـسـجـيـ وـالـمـسـلـمـ ،
الـنـاقـ علىـ سـيـاسـةـ عـبـدـ الـجـبـدـ اوـ غـيـرـ النـاقـ . وـمـنـ اـمـثـلـهـ هـذـانـ الـبـيـتـانـ لـسـعـيـدـ شـقـيرـ مـنـ
قصـيـدةـ الـمـارـ ذـكـرـهـ .

لـازـلتـ يـاـ جـيـشـناـ فـخـراـ لـامـتـناـ وـحظـ اـعـلامـكـ الـاحـمـادـ وـالـغـلـبـ
نـرـقـ الـمـعـالـيـ وـتـرـكـيـاـ لـنـاـ وـطنـ لـلـعـزـ وـالـجـدـ فـيـهاـ تـرـفـعـ القـبـ
وـالـاـبـيـاتـ النـالـيـةـ مـنـ قـصـيـدةـ لـلـدـكـتـورـ نـقـولاـ فـيـاضـ^(٣)
يـاـ بـنـيـ عـنـاثـ إـنـاـ اـمـةـ اـصـبـحـتـ مـوـضـعـ اـعـجـابـ الـأـمـمـ

(١) طـهـ المـدـورـ فـيـ لـسانـ الـحالـ ٢٢ـ شـبـاطـ (ـ فـبـراـيرـ) ١٩٠٩

(٢) دـاـجـعـ خـصـوصـاـ الـشـرـقـ (ـ بـيـرـوـتـ)

(٣) رـاجـعـهاـ فـيـ مجلـةـ الـحـلـالـ ١٧ـ ،ـ ٨٢ـ

سيعيد العدل تاريناً لكم طبع المجد به منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسلٍ واسع النعمة كثاف الغيم
وبعد ان يصف حماة الدستور الاحرار وافعاليهم الجبدة وخوالج الامة يلتفت الى
الغرب وعلاقته بترکيا فيقول : -

قل لاهل الغرب عنا حبكم ان للاراك بأساً و كرم
حرروا الشرق و ذي افعاليم جددت صبوته بعد المرم

وكانه يرى ما كان يراه كثيرون من ان الاجانب سبب التفريق بين الشرقيين فيقول :

ولمن يطمع في تفريقتنا كان للتفريق عهدٌ وانصرم
غير دين الحب لا دين لنا نحن في المؤس سواه والنعم

ولعل الايات التالية تمثل تزوّات الشباب الوطنية عبدنْد وعصيّتهم الشرقية
النائرة . وهي من قصيدة تليت يوم افتتاح « المبعوثان » (البرلمان العثماني) ^(١) وتصف
تألم الشرقيين من غطرسة الغربيين وشعورهم ان العهد الجديد سيضمن للشّرقي حقوقه
وكرامته . تبدا بذكر ما كانت عليه مصر وسوريا وما كان يعانيه ابناء الضيم فيما وفي
سائر الاقطار العربية من صلف الاجانب حتى يحمل الناظم شعوره الى قوله : -

أرتضي الذل من أيدٍ نقّبلاً كأنها للبدى والدين معتصم
ونحن نمحق في القطرين سيدنا ونكرم الزعنف الصعلوك بينهم
دائم سرى في دم ابن الشرق فانقلب أهلوه لا همُّ فيهم ولا شيم

ويتقدّم من هنا الى ذكر الانقلاب الدستوري وانبثاق النور الجديد من العرش
العثماني وان هذا النور سيجلو ظلمات المروان عن البلاد وسيربطهم معاً برابطة الوطنية
الحلقة والولاء لصاحب العرش . ثم يلتفت الى الغرب فيقول متّهماً

لظى من النيل للدانوب متقدّ الى العراق الى البحرين ملتهم
ان يكرموا فان الشرق يكرهم او يمحقونا فان الشرق منتقم

وما يلاحظ ان هذه الحماسة كانت شديدة الاتقاد في شعراء المهاجر . كقول احدهم ^(٢)

(١) للمؤلف سنة ١٩٠٦ (٢) ادب القرن الثامن عشر شيخوخو ٢ - ١٧٣

حسب الغرب هبة الشرق نوماً ورماها بأنها وهبته
كذب الغرب ان في الشرق قوماً بشفار المصمam شقوا الدجىه

وليس ما قدّ منها الا غاذج قليلة من الشعر الوطني الذي انشأه الامل الدستوري
في الاوساط الادبية المسبحية، فما قوله بالاوساط الاسلامية وما نشأ فيها من حماسة
شعرية وما اثارته من عواطف قومية والمسلمون عموماً اكثر ميلاً الى العنانة واسدة
نفوراً من السيطرة الاجنبية

ومن الخطأ الفادح ان يُساء الظن بتلك العواطف الوطنية وان يقال انها لم تكن
الا من قبيل التزلف او المداهنة . فقد تكون عواطف مغترٍ او سكران ولكنها
كانت يومئذ تخرج من قلوبٍ كان كثيرون منها طافحةً بالامل والاخلاص . وبالرثٍ تركيبةٍ
لذلك قول أستاذ عرف ببعد نظره وتوبيه في الامور . فقد نشر له المقططف خطبة
اختارها من بين كثيرون من خطب ذلك العهد اذ رأها من ادل ما انشىء في وصف
تلك الحالة^(١) . وقد جاء فيها وصف دقيق لحالة العثانيين قبيل الدستور كقوله - «كنا
منذ بضعة اسابيع والصدور خائفة بما فيها والتفوس واجهة من هول ما ترى من
موقعها ، والعقلاء النزهاء لا يدرؤون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون . وكأنما اطبقت
عليهم السماء او سدت عليهم منها منافذ الرحمة . وبينما نحن في هذه الظلمة المذهبة وفي
حال من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بفتحة نور القانون
الاوليائي فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية
الادبية » ثم يتقدّم الى شرح معنى الدستور وتاثيره حتى يصل الى قوله - «ترون بما
ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا ارى ان افراحتنا به صيارات تاهة ولا
احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكرمه له ولما تهويت ضارة . بل هي مها بلغت
مع القصد والحكمة قليلة في جنب اهميته ومقدار قيمته . واي قيمة اعظم من قيمة
الحياة - حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد ، وحياة العزة والقوة والتوازن
والاستقلال والاستبسال للامة . فمن اراد الحياة فليقبل ليحيى الدستور العثاني والقانون
به ومن اراد الموت موت الذل والصغر والاستبعاد فلا رحمة الله . ولنمت هذا
الشخص من بين جماعة العثانيين الحرة »

(١) المقططف ٣٣ - ١٩٠٥ للاستاذ جبر ضوط

وقد شعر الاستاذ كما شعر اكثـر العـقـلـاء يومـئـذ بـطـغـيـانـ ذـلـكـ التـيـارـ الوـطـنـيـ وخـشـيـ

كـاـ خـشـواـ انـ يـقـودـ الىـ الغـرـورـ وـالـهـوـرـ اوـ انـ يـسـتـغـلـ اـهـلـ الـمـأـرـبـ فـنـاشـدـ النـاسـ قـائـلاـ

ـ دـعـواـ التـسـرـعـ فـانـ تـسـرـعـكـمـ لـاـ يـفـدـنـاـ الـآـنـ وـاـنـ كـنـتمـ اـخـلـصـ اـخـلـاصـينـ وـاـغـيـرـ اـهـلـ

ـ الـفـيـرـةـ الـحـقـةـ عـلـىـ شـرـفـ الـعـثـانـيـةـ وـمـصـلـحـةـ الـعـثـانـيـنـ .ـ اـنـاـ فيـ حـاجـةـ إـلـىـ اـخـلـاصـينـ اـصـحـابـ

ـ الـعـلـمـ وـاـخـبـرـةـ الـذـيـنـ قـبـلـ انـ يـقـولـواـ يـفـكـرـونـ وـيـتـرـوـنـ وـبـعـدـ انـ يـقـولـواـ يـفـعـلـونـ كـمـاـ

ـ يـقـولـونـ .ـ مـثـلـ هـؤـلـاءـ تـطـمـيـنـ الـيـهـمـ نـفـوسـنـاـ وـنـسـلـ الـيـهـمـ قـيـادـنـاـ وـتـدـبـيرـنـاـ »

وـمـنـ ظـواـهـرـ الـاعـتـازـ بـالـوـطـنـيـ فـيـ ذـلـكـ الـحـينـ تـلـكـ الـغـارـاتـ الشـعـوـاءـ الـيـ شـتـهاـ

ـ الـشـعـرـاءـ عـلـىـ بـعـضـ الـدـوـلـ الـأـوـرـيـةـ لـتـعـدـيـاـ عـلـىـ بـعـضـ الـمـمـلـكـاتـ الـعـثـانـيـةـ وـخـمـسـهاـ نـهـائـاـ

ـ إـلـىـ اـمـلـاكـهاـ .ـ كـاـ فـعـلـتـ النـسـاـ بـالـبـوـسـنـاـ وـالـمـرـسـكـ ،ـ وـالـبـيـونـانـ بـكـرـيـتـ .ـ ثـمـ مـاـ فـعـلـهـ

ـ إـيطـالـياـ بـطـرـابـلسـ الـغـربـ :ـ فـكـانـ شـعـرـاءـ الـعـرـبـ عـلـىـ اـخـلـافـ مـخـلـمـهـ وـمـنـازـهـمـ يـدـأـ

ـ وـاحـدـةـ عـلـىـ الـمـعـتـدـينـ .ـ وـكـانـ شـعـرـهـ غـالـبـاـ كـالـبـحـرـ التـأـثرـ يـرـمـيـ صـخـورـ الشـاطـيـ ،ـ بـالـزـيدـ

ـ الصـاخـبـ .ـ كـقـولـ شـبـلـيـ مـلـاطـ منـ قـصـيـدةـ وـطـنـيـةـ^(١)

اـلـاـ مـنـ يـلـغـ النـسـاـ كـلـامـاـ
نـسـجـلـهـ وـنـورـهـ الـبـنـيـناـ
بـاـنـ عـهـودـهاـ كـانـ سـرـابـاـ
وـكـانـ وـدـادـهاـ (ـبـلـفـاـ)ـ مـيـنـاـ

فـلـاـ تـجـدـ السـنـونـ الـتـصـافـيـ
سـيـلـاـ مـاـ تـعـاقـبـتـ السـنـوـنـ
اوـ النـسـاـ تـكـفـرـ عـنـ ذـنـوبـ
جـنـتـهاـ فـاغـنـدـتـ عـارـاـ وـهـوـنـاـ

اـنـحـسـبـ جـارـةـ الدـانـوبـ اـنـاـ
نـذـلـ مـلـهـاـ اـبـداـ جـيـنـاـ

وـلـاـ رـيـبـ اـنـ الشـاعـرـ كـانـ فـيـ هـذـهـ الـاـيـاتـ يـعـبـرـ عـنـ الشـعـورـ الـعـامـ فـيـ الـمـلـكـةـ

ـ الـعـثـانـيـةـ ،ـ وـقـلـمـاـ خـطـرـ يـوـمـئـذـ بـيـالـهـ اـنـ «ـجـارـةـ الدـانـوبـ»ـ سـتـصـبـعـ عـنـ قـرـبـ حـلـفـةـ الـدـوـلـةـ

ـ الـعـثـانـيـةـ فـيـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ .ـ وـفـيـ حـادـثـةـ كـرـيـتـ كـانـ مـنـ تـحـمـسـ الـعـثـانـيـنـ عـمـومـاـ مـاـ حـلـ

ـ شـاعـرـاـ لـبـانـيـاـ آـخـرـ عـلـىـ نـظـمـ قـصـيـدةـ بـدـوـيـةـ النـزـعـةـ وـمـنـهـاـ^(٢)ـ:

اـظـنـ بـنـوـ الـبـيـونـانـ اـنـ سـيـوفـنـاـ تـلـتـمـنـ اـمـ اـخـنـ عـلـيـنـاـ التـاـخـرـ
الـمـيـذـكـرـوـاـ بـالـامـسـ ماـ كـانـ بـيـنـنـاـ عـلـىـ حـيـنـ خـضـنـاـ الـمـوـتـ وـالـمـوـتـ يـزـخـرـ

لـعـلـهـ يـشـيرـ بـذـلـكـ إـلـىـ الـحـرـبـ الـبـيـونـانـيـةـ الـعـثـانـيـةـ سـنـةـ ١٨٩٧ـ

(١) رـاجـعـ شـيخـوـ ١٢٢ـ (٢) لـامـينـ نـاصـرـ الدـيـنـ رـاجـمـهـاـ فـيـ دـيـوـاهـ صـدـىـ الـمـاـفـرـ تـحـتـ

ـ مـوـضـعـ غـادـةـ كـرـيـتـ صـ ٢٥ـ وـكـذـلـكـ فـيـ شـيخـوـ ١٩١ـ عـلـىـ اـنـ فـيـ الرـوـاـيـتـيـنـ بـعـضـ الـاـخـلـافـ

صدمناهم تحت العجاجة صدمةً كارع امراب الظباء غضنفر
وكان لنا معهم وقائع لم تزل احاديثها في الخافقين تكرر
ومنها يخاطب اليونان : -

تجيئتم وقتاً توالت خطوبه لادراك امير نيله متعدداً
وخاتم توالي الظلم اورث شعبنا خولاً واصبحنا على اهون نصر
فغيرناكم والملك قد كان ذاويآ فكيف وروض الملك فينان اخضر

أي قهريناكم أيام عبد الحميد والدولة في حال البؤس فكيف الآن وهي زاهية بعدها
الدستوري الجديد

فماضم إكريت بسهل فدونه صدام الرزايا والملائكة المقرر^(١)
ولشاعرنا اللبناني نفتات كهذه في حوادث البلغار وأدرنه وحرب طرابلس الغرب
وغيرها من الواقع السياسية التي كانت مثاراً للخواطر قبل الحرب الكبرى
ومثل ذلك تجده في الشعر العراقي . فالرصافي مثلاً ، وقد عرفنا انه كان قبل
الدستور من الاحرار أو الناقدين على سياسة الحكومة الجديدة ، اصبح بعده من المغالين
في نصرتها ، المتحمسين في مقارعة أعدائها . وله قصائد رائعة يستهض فيها المسلمين الى
الجهاد ذو دأ عن الوطن العثماني كقوله من قصيدة في الحرب الطرابلسية موضوعها
« الى الحرب »^(٢)

ألا انقض وشتير ايها الشرق للحرب وقبل غرار السيف واسل هوى الكتب
فان الذي قالوه من اكذب الكذب
ولَا تغتر انت قبيل عصر تذلت
الست تراهم بين مصر وتونس
اباحوا حمى الاسلام بالقتل والشهب
وما يؤخذ الطليبات بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنب
وله اشد من ذلك في هذه الحرب وفي ادرنه والبلقان وسوهاجا . والظاهر ان اقامته
في الاستانة قد اثرت كل التأثير في الناحية القومية الدينية من نفسه . فلما نشب الحرب
العالمية وخاضت غمارها تركيا الى جانب المانيا والنمسا اخذته الجماعة الدينية كما
اخذت كثيرين سواه فنظم قصيدة موضوعها « الوطن والجهاد » يدعوا فيها المسلمين

(١) والظاهر ان هذا البيت حذف من القصيدة في صدى الخاطر (٢) راجعها وراجع

امثالها في باب الحريات من ديوانه (بيروت ١٩٣١)

إلى قتال أعداء الوطن والدين (أي الخلفاء). ولكي يدرك القارئ ما كان يسود بعض الأوساط العربية في ذلك العهد (أي قبل أن تبدل الحال بظهور الدعوة العربية والثورة الحجازية ،) ننقل له منها بعض أبياتها الأولى – قال : –

يا قوم إإن العدى قد هاجروا الوطن
فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنى
 واستنفروا العدو الله كلّ فتى من نأى في أراضي ارضكم ودننا
 واستنهضوا من بني الاسلام قاطبة من يسكن البدو والارياف والمدن
 واستقتوافي سبيل الذود عن وطن به تقيسون دين الله والستنا
 وبعد ان يجري شوطاً في هذا المضمار يلتفت الى مصر فیندد بحكومتها (او قل
 بسلطانها يومئذ وزارته) بغارتهم الانكليز والانقباد لسياساتهم . ويعود بعد ذلك
 الى الوطن والدعاء له فيقول

لازلت يا وطن الاسلام منتصارا بالجيش يزحف من ابنائك الأمانة
إتنا محبتك حبا لا انتهاء له يستغرق الارض والاكون والزمان
ويخص العراق بالقسم الاخير من القصيدة وما اشيع عن اقتراب العدو منه ،
فيحضر العراقيين على الاستبسال في صدّه –

إإن العراق لعمر الله مسبعة توائب الأسد فيها من هنا وهنا
هم المغواير ان صالحوا بلحمة فلا يرون لهم غير الموت مني
ويمري بجري الرصافي من شعراء العراق رضا الشبيبي ومحمد حبيب العبيدي ،
وخيري المنداوي ، ومحمد الحسين كاشف الغطاء ، وعبد العزيز الجواهري وسواهم من
نفع فيهم الدستور روحًا جديدة فجعلهم على مناصرة الخلافة والتمهجم على اعدائهم في
أوروبا، واضرم فيهم النعرات الشرفية والدينية، حتى قال احدهم من قصيدة موضوعها
« بعد حرب الطليان والبلقان » (١) .

اظهر الغرب ما اجنب من الغدر – وابدى كرامـن الاخـفات
واحاطـت بالـمسلمـين عـلـوجـ البـغيـ – من كلـ جـانـبـ او مـكانـ
اـيـهاـ المـسلـموـن هـبـتوـا فـلـيـسـ الموـتـ – الاـ جـانـاتـكمـ بـهـوـانـ

(١) محمد كاشف الغطاء . راجعها في كتاب ادب العصر في العراق لروفائيل بطي الطبعة الاولى ج ٢ - ٨٢

قد دهاكم ويله فماذا القادي وأفاسكم سيله فماذا التوازي
جاءكم جارف من الغرب تياره - هده البناء وأسـ المبني

ولحبيب العبيدي قصيدة اسمها «ألواح الحقائق» القاها في المنتدى الأدبي العربي
في الاستانة بعد خطاب له في الحرب الطرابلسية وهي تقرب من خمسينات بيت وقد
ضمنها أهم الحوادث التاريخية من عهد الرسالة الى زمان انشادها^(١). وما نقل اليـنا منها
يـصح ان نـحكم انـها تعـبر تعـبـيراً جـلـياً عنـ هذه المـبـةـ المـعـنـوـيـةـ فيـ نـفـوسـ الشـرـقـيـنـ وـعـنـ
آمـانـيـهـمـ فيـ ارجـاعـ مـجـدـهـ الـغـابـرـ وـنـفـضـ ماـ كـانـ قدـ لـقـ بهـمـ مـعـارـ التـأـخـرـ - كـقولـهـ -

كيف ترضي يا شرق ان يـشـيـيـ الـغـربـ اـمـامـاـ وـانتـ تـشـيـيـ وـرـاءـ
أـفـلمـ يـانـ اـنـ تـجـددـ عـهـداـ شـهـدـ الصـبـحـ فـضـلهـ وـالـمـاءـ
أـنـاسـ الـهـوـاتـ دـوـنـ المـنـيـاـ اـنـاـ المـوـتـ وـالـهـوـانـ سـوـاءـ

وـهـوـ يـصـلـ هـذـهـ النـهـضـةـ الشـرـقـيـةـ بـمـجـدـ الـعـرـبـ الـاـقـدـمـيـنـ وـيـخـتـمـهاـ بـذـكـرـ مـفـاخـرـهـ
التـارـيـخـيـةـ .ـ وـيـدـعـوـ بـنـيـ الشـرـقـ عـمـومـاـ إـلـىـ النـهـضـ وـالـجـرـيـ فيـ سـبـلـ الـعـلـىـ وـالـتـقـدـمـ .ـ
وـمـثـلـ ذـلـكـ خـيـرـيـ الـفـنـدـاـويـ فيـ قـصـيـدـتـهـ «إـلـىـ الشـرـقـ»^(٢) ،ـ وـقـصـيـدـتـهـ «فـتـاةـ سـلـانـيـكـ»^(٣)
وـمـنـ هـذـهـ الـاـخـرـةـ قـوـلـهـ مـتـلـماـ -

أـمـ الـبـلـادـ أـخـاعـكـ الـاقـوـامـ فـبـكـيـ مـرـابـعـ بـجـدـكـ الـاسـلامـ
يـأـلـيـاـ الشـرـقـ الـذـيـ قـدـ عـمـهـ لـغـرـبـ مـنـ بـعـدـ الشـرـوقـ ظـلـامـ
مـاـ الـغـرـبـ اوـلـ ظـالـمـ لـلـكـ بـالـذـيـ يـأـتـيـ بـلـ اـبـنـاؤـكـ الـظـلـامـ
قـدـ أـهـلـوـكـ وـانتـ مـعـقـلـ عـزـّهـ فـاستـهـونـتـكـ بـوـطـنـهـ الـاـقـدـامـ

ولـقـدـ يـجـوزـ انـ نـثـمـ بـعـضـ شـعـراـهـ ذـلـكـ الـعـهـدـ بـدـاهـنـةـ الـاـتـرـاكـ وـانـ شـعـرـهـ ذـلـكـ لاـ
يـعـكـسـ لـنـاـ الشـعـورـ الـعـرـبـيـ الـحـقـيقـيـ .ـ وـهـنـاـ نـكـرـرـ قولـنـاـ اـنـاـ اـنـاـ نـورـخـ الـعـواـطـفـ الـعـرـبـيـةـ
كـاـ تـظـهـرـ فـيـ نـفـثـاتـ اـدـبـ الـعـرـبـ الشـعـرـيـ ،ـ وـمـهـاـ تـكـنـ الـاـغـرـاضـ الـنـفـسـيـةـ وـرـاءـهـاـ فـذـلـكـ
لاـ يـنـفـيـ حـقـيقـتـهاـ وـانـهاـ فـاشـةـ عـنـ الـحـوـادـثـ مـتـصـلـةـ بـالـشـعـورـ الـعـامـ .ـ وـالـحـقـ يـقـالـ اـنـ ماـ
اخـتـبـرـنـاـ بـأـنـفـسـنـاـ ،ـ وـماـ عـرـفـنـاـ مـنـ اـخـبـارـ الـآـخـرـيـنـ يـدـفـعـنـاـ إـلـىـ تـنـزـيـهـ كـثـيرـ مـنـ الشـعـراـءـ
يـوـمـيـدـيـ عـنـ الـمـدـاهـنـةـ الـمـقـصـودـةـ ،ـ وـيـغـيلـ بـنـاـ إـلـىـ اـنـ نـغـزـ وـعـثـانـيـتـهـ إـلـىـ مـاـ آـثـارـهـ الـاـحـدـاثـ

(١) راجـعـهـاـ فـيـ الـادـبـ الـعـرـبـيـ لـبـطـيـ ١٦٦ - ١٦٨ (٢) الـادـبـ الـعـرـبـيـ ١ - ١٢١

(٣) الـادـبـ الـعـرـبـيـ ١ - ١٢١

السياسية من شئ النعرات في نفوسهم^(١) ففي أوائل العهد الدستوري كانت الشعر العربي في سوريا ومصر والعراق مجلّ لالوان من الوطنية غير واضحة الحدود . ولكن كما ان الون الطيف اذا مزجت معًا كونت شيئاً واحداً هو النور . كذلك تلك الالوان العاطفية من دينية او قومية مرجعها واحد هو الاحساس الحاد بكرامة شرقية لم يعدها الشرقيون او العرب منهم قبل ذلك العهد . وقد كان لنشوة الدستور يد في تعميم ذلك الاحساس والباسه حيناً لباس الجامدة العثمانية . وكانت تلك النشوة على اشدتها في السنة الاولى من اعلان الدستور ايام كان الناس لا يزالون يطوفون فرحاً بزوال الاستبداد ، وينظرون الى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشر ، ثم اخذت بالترانح تدريجياً

على ان النزعه الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة في الادب العربي الى اوائل الحرب العالمية . وما يزيكي ذلك ما نظمه الشعراه سنة ١٩١٣ في حادثة الطيارين التركيين فتحي وصادق وهما اول طيارين شرقيين ظهراء في سماء الشرق العربي . فلما وصلا سوريا ولبنان قابلاهما الادب العربي بهبة وطنية هزت اعصاب الناس وأثارت نخوتهم الشرقية او قل العثمانية . كقول الشيخ مصطفى الغلاياني من قصيدة حماسية:-

خيمتا فوق الرؤوس فأشرقت منا الوجوه وأزهرت انوارها
وفتحت يا فتحي القلوب بزمرة احبا موات رجاها تذكارها
ونزعت منا اليأس وهو بلية شفاء عمت قومنا اضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تجلّى في اقوال اكثير الشعراه لذلك العهد . ثم طار الطيار ان يقصدان مصر ، ولكن القدر المحتوم لم يمهلاهما فسقطا قرب طبريا وكان مصر عرها رنة اسف عمت جميع الاقطار العربية . وقد جعلها الشعر العربي مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب . وفي ذلك يقول الياس فياض -^(٢)

فتحي أحل من العلاء مكذبأ من قال إنا امة لن تقدما
من قال ان الشرق شعب خامل لا يستطيع مع الشعوب نقدما
اليوم قد جددنا لشبابه عهداً ينسى عهده المتصرّ ما

(١) راجع ايضاً ديوان عبد المطلب ٢٨٦ والباروني ١١٥ والرافعي ٢٩٢ والكافوري ٩٩١

والمطران في الملال ٢٠٢ - ١٨٢ وعبدالحليم المصري في آداب المصر لسعد ١٨٨

(٢) اورد الصافي ٥ - ٢٦٣ (٣) المورد الصافي ٥ - ٣٠١

أهرقنا للعلم افضل مهجة كانت تراق على المظالم قبلما
هذا هو الدرس المقيد وهذه عظة الزمان فهل لنا ان نعلم
من ليس يعرف ان يموت مكرماً هيئات يعرف ان يعيش مكرماً
ويتجلى شعور المصريين يومئذ في قول شاعرهم حافظ من قصيدة^(١)

اخت الكواكب ما دماكِ وأنتِ رامية النسورِ
ماذا دهاكِ وفوق ظهركِ مربض الاسد المصوَّرِ
ومنها خطاباً فتحي: حاولت أن ترد المجرةَ والورودُ من العسيرِ
فوردتَ يا فتحي الحمامَ وأنتِ منقطعُ النظيرِ
وهو يت من كبد السماءَ وهكذا مهوى البدورِ
ان كان اعياك الصعود بذلك الجسد الطهورِ
فاسمح بروحكِ وحدها واصعد الى الملك الكبيرِ

ومثلها قصيدة لعبد المطلب مطلعها : « وفت لك الدنيا فسيري^(٢) » وقصيدة
شوفي : « انظر الى الاقمار كيف تزول »
وعلى هذا النمط نظم كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة
وسوها من حواضر العالم العربي

واذا قيل كيف ذلك والعرب يومئذ كانوا قد بدأوا يستنكرون سياسة الاتحاديين
الأتراك وينشون الى حياة قومية وكيان مستقل بدليل ما نراه من جمعياتهم
السياسية في مصر وغير مصر قلنا ان تلك الجمعيات لم تكن غلوك من وسائل الدعاية ما
يشع في جميع الانحاء مبادئها او ما يجمع القلوب على نصرتها . فظل « السواد الاعظم »
من ابناء العربية متعلقين بآمامهم الدستورية لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة
العثمانية . ثم ان الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل
فكرة الانفصال عن الجامعية العثمانية . ويخيل اليها من دراسة عواطف الناس في ذلك
الحين ان الزعماء الذين كانوا يعملون في سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على يقنة من
هذا الامر . ولو راجعت الرسائل التي كان يتبادلها سراً امثال عبد الحميد الزهراوي ،
ومنخار بيه ، ومحمد الحصاني ، وسلمى الجزائري ، ورشيد رضا ، وآخرين من اعضاء

المؤتمر العربي او الجمعية الاصلاحية ، لوجدت ما يذكر قوله ان الاصلاح الذي كانوا ينشدونه لم يكن يراد به اولاً القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار^(١). ولو عرفت تركيا يومئذ كيف تستغل شعور الناس لافت من الكتلتين التركية والغربية جامدة عزيزة الجانب صادقة الوطنية لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الاسباب المعلنة لنجاح الدعايات الاوروبية في الشرق العربي ، ثم لاستعمال الثورة العربية في اثناء الحرب الكبرى (سنة ١٩١٦)

وسواء أصبح استنادنا الى تلك الرسائل أم لم يصبح فالواقع المشاهد ان الشعر العربي كان في أوائل العهد الدستوري أسرع الى الصفح عن مساوى العهد الماضي والى تعزيز الرابطة العثمانية . ثم حدث الاختلاف بين العنصرين التركي والعربي وأخذ البعض يلهجون بحقوق العرب في السلطنة وقد ظهر ذلك في الشعر العربي (كما سترى) . على أن الشعر لم يقطع صلته بعنة بأماله الدستورية التي كان يشيد بذكراها . وقد ظل طيلة العهد الدستوري أميل الى التوفيق بين الأمانة القومية والجامعة العثمانية ولو تأملنا لرأينا انه لم يصبح عدواً لهذه الجامعة الا بعد الثورة العربية وال الحرب العالمية فليس من الغريب ان نراه من حين الى آخر يتاجج بالشعور العثماني إزاء بعض الحوادث الوطنية كالي مرت ذكرها من حوادث التعدي على الدولة في البلقان وطرابلس او من حادثة الطيران التي اضرمت القلوب في مختلف الاقطاع حتى قال فيها شاهد عدل هو الدكتور هوردن بلس رئيس جامعة بيروت الاميركية سابقاً وكان يوم الحادث في مصر - « ان ما آتته من حماسة اخواننا المصريين وشدة استعدادهم لاستقبال الطيارين واقامة المآدب والاحتفالات اللائقة بها جعلني اتصور شيئاً مما سمعته عن عظمة الاستقبال الذي جرى لهما في بيروت وعن الابتهاج الذي شمل الاهلين لمشاهدتهم الطيارين العثمانيين لأول مرة »^(٢)

١) راجع هذه الرسائل في كتاب ثورة العرب (واحد أعضاء الجمعيات العربية) مطبعة المقطم

٢) ١٣٨ ص ١٣٧ - ١٣٨ جلة الكلية ٥ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٣٩ - ١٣٩

الدستور

والنمرات المذهبية

إن من يعرف الشرق العربي قبيل الدستور يعرف ما بلغه من الاحتلال الاجتماعي والاقتصادي . فسياسة الحكومة الخرقاء والدعایات الاجنبية المختلفة كانت من افعى الوسائل لتوسيع شقة الخلاف بين أبناء البلاد حتى أصبحت البغضاء الطائفية مستحكمة الحلقات وكثيراً ما كان ذلك يفضي إلى «حوادث» دامية وشرّ مستطير^(١) . ومها محاول تخفيض الامر فلا سبيل إلى انكار ما كان في العهد الجبدي من حزازات بين الأكثريّة والأقلية ، بل بين الفروع التي تنتمي إلى كلٍ منها . وفي ذلك يقول سليمان البستاني وهو عناني صميم ومن الذين خدموا الدولة ثائباً وزيراً «لم يكن من مصلحة طامة الاستبداد في الحكومة الغابرة ان يؤلفوا بين القلوب اذ كانوا يعتقدون جله لهم ان وفاق الامة يدك معاقل صولتهم^(٢) والى هذه الحال يشير بطل الانقلاب نازي بقوله من خطبة القاهما في جمعية الاخاء والترقي وذلك قبيل اعلان الدستور^(٣) «تعلمون ان سفالة الحكومة وجبنها وهرتها صيرتنا سخرية بين الناس والذي يجب ان تقوم به لقاء الحكومة ولقاء مؤامرة اوربا على تقسيمنا هو ان نثبت فعلاً في ثورتنا هذه اننا نحب المسيحيين كاخواننا ونساوي بينهم وبيننا . فليس ثورتنا ضد الاشخاص والعناصر بل هي نهضة ضد اصول الادارة التي اوقعت العداوة بيننا وبين اخواننا في الوطن» . فناري هنا يصرّح بهذه الحقيقة المؤلمة ويعزو اللوم في ذلك الى سوء الادارة من جهة والتي سياسة المستعمرين من جهة اخرى . ولقد يصح ان نستثنى مصر لما كانت تتمتع به من حرية اجتماعية بعد الاحتلال . على ان سائر البلدان العربية ولا سيما سوريا كانت

(١) راجع وصف هذه البغضاء الطائفية في مكتاب حوادث الشام ولبنان لمخايل الدمشقي (المطبعة الكاثوليكية ١٩١٢) ص ١١ و ٢٠ و ٢٩ و ٣٦ و ايضاً كتاب حسر الشام من نكبات

(٢) كتابه عبرة وذكري (١٩٠٨) ص ١٠١ (٣) شام مصر ١٨٩٥ ص ٣٦

(٤) من تأملات ناري راجع المورد الصافي ٦ - ٦٢

— كا هو معروف — تخبط في دياجير التغضب وتقاسي منه الاهوال . فلا عجب اذا رأينا السوريين واللبنانيين يهاجرون الى وادي النيل او يضربون في آفاق الارض سعيًا وراء الرزق والحرية . وقد اصاب حافظ ابراهيم اذ قال في وصف هؤلاء المهاجرين^(١)

لم يجههم عَلَمٌ فيها ولا عَدَدٌ سُوِي مِضَاءَ تَحَامِي وَرَدَه التَّوَبَ'

لَمْ بِكُلِّ خَضْمٍ مُسْرِبٌ نَهَجَ وَفِي ذَرَى كُلِّ طَوْدٍ مِسْلَكٌ عَجَبٌ'

مَا عَابَهُمْ أَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ قَدْ نَثَرُوا فَالشَّهَبُ مُنْتَهَرٌ مَذْكَانَتُ الشَّهَبِ'

ولا ينكر ان كثيرون من العقلاء كانوا يرغبون في الحسن وفي القضاء على هذا الاختلال الاجتماعي المؤذني ، لكن السياسة على ما يظهر لم تكتنهم من ذلك فلما أعلن الدستور ونودي في الناس بالحرية والمساوة والاخاء زال الضغط فجأة عن الصدور حتى رأينا من غريب المشاهد ما كان له اثر عميق في ادب ذلك العهد . زعماء الطوائف يتعانقون في الساحات العمومية ويتناعدون على المودة الاخوية . قال الدكتور هورد بلس من خطبة له القاها في الجمعية الجغرافية الوطنية باميروكا (في ١٨ ديسمبر ١٩٠٨) ذاكراً تلك الحال في بيروت —^(٢) « فاطلت حينئذ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يتكلون ضبط نفوسهم عن اظهار هجرتهم - والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحکمة صاروا الآن اصدقاء اعزاء في الخلافات والمجتمعات وصار رؤساء الدين من المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتناucion . قطعت الاغصان من الاشجار وأقي بالبسط من المنازل واكتنلت الشوارع بالناس فكانوا يضيوفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زماناً طويلاً . وكانت امارات المودة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم »

ولنترك لاديب بيروتي معروف وصف مشهد من هذه المشاهد وهو انوذج لـ حدث في اهم الحواضر العربية قال —^(٣) « من ابهج ما رأيت من هذا الوفاق ان نقرأ من سبان حي السراي (حي اسلامي) ركبوا العربات فسارت الى محللة الجمیزة (حي مسيحي) فجددوا عبود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد ان ابلالها الجهل ورجال السوء . هناك تآخي الفريقيان وتحاب القبيلان وعلموا ان العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة »

(١) من قصيدة الشهيرة (اهرام اربع الثام تنتب) (٢) راجبها في المقططف ٣٥٠

(٣) مصطفى النلايبي في اسان الحال ، آب ١٩٠٨ ، تسلیمان ، ٢٠٢ - ٢٠٣

ويذكر هذه الشهادة ما ذكرته "مجلة الملال عن بيروت اذ قالت^(١) - « اظهر اهل بيروت بعد اعلان الدستور ما ادهش العثمانيين من الانحاد والحرية الشخصية وصحة المبدأ . فقد كان اهلا اول من تصفح فيهم الشيخ والقيس . واظهروا في اثناء انتخاب النواب مجلس الامة استقلالاً في الفكر والاتحاد في الكلمة . ولما وتب بقية حزب التقدير بجمعية الاتحاد والترقى بالاستانة كانوا في مقدمة الناقمين على الواثبين . وقاموا يؤيدون الدستور بخطفهم ورسائلهم . وعثروا على بعض الجوايس يسعون في التفريق بينهم فقبضوا عليهم . وجددوا الوفاق بين طوائفهم . وقالوا اذا تبغضت الطوائف في كل المملكة فنحن متتفقون في نصرة الدستور الى آخر نسمة من الحياة »

والشعراء في هذا الوفاق وفي الحضرة على نبذ التعصب الذميم قصائد كثيرة نجتزيء منها ببعض مقطوعات على سبيل التمثال . فمن ذلك هذه الايات^(٢)

من آل عنان لا عرباً ولا عجا
قد صرتم امة في الارض واحدة
فلا تفرقكم اجيالكم فرقاً
ولا تقسّمكم اديانكم قسماً
كم قيدوكم بها اسرى وكم سفكوا دماءكم او احلوا فيكم النقا
والاليوم جرد سيف الحق صاحبه
تعانق الشيخ والقيس واصطحبها
نهراً من بعدما افترقا خدين واختصبا
تآخيَا في حمى الدستور واتحداً ورفرت راية التوحيد فوقها

وهذه النغمة تسمعها في بيروت كما تسمعها في دمشق وبغداد وسواهما . فمن دمشق مثلاً قول احد ادبائها^(٣) من قصيدة : -

كنت ترجوه فهل ثم خلل
ايهما الشرقي قد بلّغت ما
فانبذ البغضاء والخذل ودع
كلّ ما فيه فساد وzugal
فرق بين الخلق من كلّ التحل
ومن العراق قول الرصافي^(٤)

اكرم بعصر حبانا بالمساواة وخصنا بالتهاني والمرات

(١) الملال مج ١٢ - ٦٩٦ (٢) الملال ١٢ - ١٢٢ (٣) محمد شاكر ياسين :

شيخو ٢ - ١٦٥ (٤) من قصيدة : راجع شيخو ٢ - ١٦٦ (ولم نجد لها في ديوان الشاعر)

عصرٍ به قد تآخينا فليس ترى بعد الأخاء طریقاً للعداوات

ومن مصر نقولا رزق الله^(١) وغيره من الادباء

والذى يظهر من مراجعة النثارات الدستورية ان هذا الشعور المتألم من مساوى التعصب الدينى كان أبرز في الشعر السوري اللبناني منه في سائر الاقطار العربية . ولعل من أسباب ذلك أن مسألة « الاكثريه والأقلية » لم تبلغ في مكان ما بلغته في الاقطار السورية . فنصر كما ذكرنا كانت تحت نفوذ الاحتلال ، والعراق قطر اسلامي لا قوة للأقلية فيه وبالتالي لا تناقض طائفي موجب للبغضاء . وان كانت شيء من ذلك في ذلك الحين فيين المسلمين أنفسهم من سنّة وشيعة . ولم يظهر في الشعر العراقي من اشاره الى احتكار المسلمين باليسحيين الا في عهد الانتداب ، كما ترى في قصيدة وجهها الرصافي الى المسيحيين ومطلعها^(٢) -

أما آن ان 'نسى من القوم اضغان' فيبني على اس' المساواة بنيان

علام' التعادي لاختلاف ديانة وإن التعادي في الديانة عدوان

إذا جمعتنا وحدة' وطنية' فهذا علينا ان 'تعدد اديان'

وهي طوبية وشفف عن خوف العراقيين من السياسة العاملة على هدم الكيان القومي بالتفريق بين طوائفه . وسنرجع الى ذلك بعد

اما سوريا وبنوع خاص منطقتها الساحلية التي تشرف عليها جبال لبنان فقد كان التناقض الطائفي فيها على اشدّه ، وكانت دائمًا أكثر تعرضاً للدعایات الاجنبية وأكثر اختلاطاً بالحضارة الغربية . فنشأ عن ذلك ضغائن ووقائع دموية كان لها اثر عبيق في النفوس . فلا بدّع ان نرى الشعر السوري واللبناني في ذلك العهد اشدّ تهيجاً على التعصب الدينى وأكثر ترحيباً ورجاءً بالعهد الجديد . وقد حملت النشوء الدستورية بعضهم على الخروج عن جادة الاعتدال . فلم يقفوا عند حد التهليل بالاخاء والدعوة الى نبذ الاحقاد ، بل تجاوزوه الى درجة التطرف فصاروا يعزون الى الدين ورجاله كلّ اسباب التعصب والشقاق ، ويرجعون اليهم كلّ ما اصاب الشرق من البلایا الاجتماعية ، كقول احد شعراء المهجـ^(٣)

(١) المتنطف ٢٠ - ٣٨٩ (٢) ديوانه (١٩٣١) ١٥٠

(٣) ابو الفضل الوليد في « أغاريد وعواصف » ٢٠

وإني ليوهيني تقسم امي بآديانها والشر بين المذاهب
متى ينتهي كهاننا وشيوخنا فنخلص من حياتهم والعقارب
شقينا لنعاهم وراحتهم فهم يسوقوننا كالعيسى نحو المعاطب
في الدين إلا نسخة بعد نسخة يزخر فيها الناس اهواً كاذب

وفي الشعر الدستوري كثير من مثل هذا التطرف (ومعظمها في الاوساط
المسيحية) . فلا عجب اذا دأينا رجال الدين ينكرون ذلك ويقاومونه كا فعل الاب
لويس شيخو في كلامه على الحماة الدستورية اذ قال^(١) . « واسوا من هؤلاء (اي
المبالغين والمتھوسين) او لئلک الذين توسلوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم ذمار الدين
وانتهکوا احماه وبخسوا حق مئسليه . فترى هذا ينسب الى الدين كل الشرور واسباب
النفور ، والدين كما ياخذني يأمر بالاخاء والتحاب : وغيره يدعى ان الدين لا دخل له في
العمران وانه من المسائل العرضية (كقوله)

خل فتی وشيخكم في جدال واحکم في المسائل الجوهرية
واذا ذکر الذين حکم عليهم بالظلم وقت الاستبداد تعجب انهم لم يكرموا كائنة
مثل السيد المسيح

مات عيسى فأنتهي الوف والوف ماتوا وراحوا ضحيته

« ويجعل آخر كل الاديان متساوية وكلها صحيحة » ... الى ان يقول .. « فتنشدكم
الله ایها الشعرا صونوا قراشم من كل امتحان ولا تبتذلوا موهبة جاد بها عليک المنان »

ولابد لنا من القول ان هذه الحرب التي اثارها الشعر الدستوري على التعبير
الديني قد احدثت شيئاً من التقارب المنشود ، لكنه لم يكن ثابت الاركان . فظلت
الطاافية اساس الاجتماع والسياسة في البلدان العربية . وظللت مسألة الاكثرية والاقلية
عقدة من العقد المستعصية ، حتى في مصر حيث كانت السلطة الاحتلالية تقوم بدور
المجاهدة لحقوق الاقليات . ففي سنة ١٩١١ عقد الاقباط في اسيوط مؤتمراً عاماً للمطالبة
بامور تتعلق بطفتهم^(٢) وازاء ذلك عقد المسلمون مؤتمراً في عين شمس^(٣) . ومن بواعث

(١) آدب القرن الناجع عشر ١٩٨٠ - ٥٠٦ وكان كاتب هذه

(٢) افلال ١٩ - ٥٠٢ السطور من انجح له حضور هذا المؤتمر

الرضي ان جو المؤذن كان مشبعاً بروح الوئام . الا ان المدقق في البواعث على اعقادهما لا يسعه الا ان يرى شبح الطائفية فيها مائلاً للعبان . وكذلك كان هذا الشبح في سائر الاقطارات العربية

فالدستور ارهف الشعور الاخوي بين الطوائف حينما، وفتح للاحرار باب التهجم على التعصب، حتى ظن كثيرون ان اسباب الجفاء الديني قد زالت من الشرق العربي، وان ابناء الشرق ، على اختلاف مخلبهم ، سينعمون في ظل العناية الجديدة بعد جديد تتغلب فيه روح الوطنية الحرة على النعرات الدينية المدamaة . والحق يقال ان الشعر العربي لم يقتصر في الدعوة لهذا العهد الجديد ، ولم يأل جهداً في اثاره النغوص للتخلص من قيود الاوهام و بما ورثته من سخافات القرون المعروفة بقرون الظلام . لكن تلك النعرات على ما يظهر كانت ارسخ من ان تستأصلها الثورات الكلامية ، فعادت الى الظهور ولا تزال الى الآن تعمل عملها في حياة الشرق الاجتماعية والسياسية وسوى انه قد ظهر بعد هبة الدستور هبات اخرى هي ايضاً ارهفت الشعور القومي واهابت بالشرقيين الى الاخاء والوئام . على ان عوامل التفرقة لا تزال تعمل في الشرق عملها المعيب ، ولا يزال الشرق ب رغم الجهود المبذولة بعيداً عن هدفه الوطني المنشود

بعد النسوة الدستورية

حاولنا فيما سبق ان نؤرخ العواطف العربية بوصفنا الاتر الذي أحدثه الدستور الاول وهلة في نفوس العتانيين ولاسيما ابناء الشرق العربي . وقد رأينا كيف بروز الشعر في مفتاح العهد الدستوري محل قشيبة من الحماسة سداها الامل وحلتها الاستشارة . على انه لم يظل كذلك طويلا . فلم تكمل تمر سنة على اعلان الدستور حتى رأينا كثيراً من النكات الشعرية مصطبغة بالوان فاتحة من الاشواق والحنر . ولو تحررنا الاسباب لوجدناها متباعدة الاصول . فمنها نفسي ومنشأه ذلك التراخي الذي يعقب عادة شدة الانفعال او الثوران العصبي . خذ الغضب مثلا فهو يثير النفس ويشعرها مؤقتاً بشيء من القوة ، لكنه لا يلبث ان يزول ويعقبه « رد فعل » مقترن بالضعف والمبوط . ومثله الاغراق في الجنون او الحزن والامل وما الى ذلك من الظواهر النفسية . وذلك ماحدث في الجهة الدستورية . فقد كان الشعر على اثرها متوراً شديداً الحماسة مثلاً يتربّع بخمرة الاغبط فهزج ورقص وصخب ما شاء . ثم عراه في بعض الاوساط هبوط تدريجيّ القى عليه مسحة من التشاوُم

ومن اسباب هذا التشاوُم خيبة الامل في النظام الدستوري . كان الناس يرجون من الدستور المستحيل . يرجون منه ان يقلب الاحوال وينغير الطبع وان يحيي لهم فجأة اسباب التقدم والسعادة . على ان النظام وحده غير كافٍ ، ولا بد من اتحاد الزمن والعلم والاخلاق للوصول الى الغاية المنشودة . وكما ان الشجرة لا تنمو الا اذا تهيأت لها اسباب النمو ولا تشرق الا متى حان الاوان ، كذلك كل دستور . وما على القائمين به الا تعهد بمحنة واخلاص ، وتدريب الناس تدريباً منتظماً على السير بوجهه والعمل بمقتضياته . ولا شك في ان العتانيين عموماً لم يكونوا على استعداد كافٍ للحياة الدستورية . وقد ظهر في تطبيقه نقاط لم يكونوا يتوقعونها بما اثار في النفوس احساسات معكوسة ظهرت في الادب باظهر الحيبة والفشل

واذا عرفنا ذلك عرفنا الدافع الى قول جرجي زيدان بعد زيارته لسوريا ولبنان عام ١٩١٠ مشيراً الى التشاوُم المستحوذ على بعض النفوس . ومحذراً من القادي في

ذلك^(١) وطائفة تعجلت استئثار الدستور فهي ت يريد ان تصير المملكة العثمانية التي قضت قرنين في حال الاحتضار وقد نسبت ماليتها وأجذبت أرضها واظلمت مدنها وخرّبت طرقها وشوارعها وفسد كل شيء فيها حتى أخلاق أهلها واختل نظام اجتماعها وفرق التعصب بين طوائفها ومذاهبها—تريد هذه الفئة من المنتقدين ان تصير هذه المملكة في سنتين مثل ارقي مالك اوربا وهذا مستحيل ،

فقد ادرك زيدان يومئذ ما كان يشعر به الناس عموماً من سوء الظن بالحكومة الدستورية وخيبة الامل بما اعلنته من الاصلاح فلم يجارهم في النقد بل رأى التربث والصبر اولى وأضمن للوصول الى الغرض المقصود . وقد شاركه في ذلك كثير من المفكرين . الا ان بعض الشعراء لم يستطع الصبر على هذه الحال فاندفعوا في سبيل النهم والانتقاد ، كقول الرصافي من قصيدة شکوى الى الدستور^(٢)

فهل ايا الدستور تسمع شاكينا
بكاليوم يرجو ان يرى نهضة الشرق
لقد جئت من افق الصوارم طالعا
 علينا طلوع الشمس من منتهي الافق
صادفت هنا امة قد تعشق
لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
ولكن تراخي الامر منشغلاً
وظللنا نرجي منك للخلق رافعاً

وقول الشاعر القروي في البرازيل^(٣)

جاءت فكبّرنا وشقّ هنافنا قلب العنان تبتنا بالجاني
 ودعا الفقير لها وسماها أخو الرئيس الشديد بأعذب الاسماء
 حتى اذا فتر التحمس والجنحلي صبح الحقيقة عن دجي الضوضاء
 فادى فلم يجد النداء ودعا فما لباء غير تجاوب الاصداء

ولولي الدين يكنى قصيدة موضوعها (الاسترقاق في ايام الحرية) صدر بها احد
فصول كتابه الصحائف السود سنة ١٩١٠ . وفيها يقول عن الحرية

تشتاق في عزها ذويها وحصنهما دونهم حصين
ختام هذي القيود تبقى يارب قد كاتت المuron

وقد عبر عن عواطف كثير من الناس حين قال على طريقته الشعرية النثرية^(٤)

(١) راجع الملال ١٩ - ٣٩ (٢) ديوانه (١٩٣١) ٣٧٥ (٣) الرشيديات
(سان باوار ١٩١٦) ٧١ (٤) راجع كتاب التجارب (١٩١٣) ٢٥٢ و ٢٢

« قلت حين نبذوا لنا جيفة الدستور : نؤازر هؤلاء القوم القاعدين فينا بالامر . ربما أصابوا من حيث لا يشعرون - وكم رمية من غير رام . وقلت اطمئني ايتها القلوب واسكني يا ثارات النفوس . ووقف اخواني العثانيون يتفرجون فما راعنا الا مذابح وفتن ، وغارات تتلوها غارات ، وصخب وضجيج ، بينما نواب الامة يتجادلون اطراف الفوائد كل ي يريد ان يسمى كبه » ثم يقول « اخواننا الذين يظلمهم الدستور العثاني لا قبل لهم بمعارضة الحكم وهم معذورون . ثم شفار ارهفت ، وسيوف سلت تقطف الرقاب كما تقطف النار »

ويبلغ به التشاوُم مبلغه في هذين البيتين^(١) مخاطباً رجال الدولة

ـ افلانزال السوط حاكمـ وأنبو السياط بيذر ذهباـ^(٢)
ـ ونقول أحرار فتمدحـمـ لا حرـ فيـكـ . كـلـناـ كـنـبـاـ^(٣)

على ان أهم ما يذكر له في هذا الباب قصيدة موضوعها « بين انقضاض الوطن » قالها بصف حال الدولة وما وصلت اليه على يد الدستوريين وهي تنتهي على الستين بيتاً^(٤)

ـ حـلـنـاـ بـشـيـ وـأـنـتـهـنـاـ بـضـدـهـ وـمـاـ يـجـتـنـيـ مـنـ كـاذـبـ الـحـلـمـ حـلـمـ؟ـ
ـ أـفـيمـ بـنـاءـ بـالـعـرـاءـ عـلـىـ شـفـاـ وـلـمـ تـقـوـ آـسـاسـ لـهـ وـدـعـائـمـ؟ـ
ـ فـاـ ظـنـ مـنـهـ فـائـأـ فـهـوـ مـائـلـ وـمـنـ ظـنـ مـنـهـ فـائـأـ فـهـوـ هـادـمـ
ـ وـأـرـبـعـةـ (٤)ـ مـرـتـ وـلـمـ تـحـلـ لـاـمـرـىـ تـهـادـتـ عـلـىـ الـاقـطـارـ وـهـيـ سـائـمـ
ـ تـعـوـضـ يـائـأـ مـنـ غـداـ وـهـوـ آـمـلـ وـشـامـ يـقـنـاـ مـنـ سـرـىـ وـهـوـ وـاهـ

ومثلها تشاوُماً وسخطاً قصيدة موضوعها « التغصب يخرج الحرية من ديارها ». قالها حين نفى الحكم جيل الزهاوي من بغداد . ومطلعها « اسير بدار الظلم اعياد آسره » وفيها يندد بالجور والتعصب ويلوم اولي الامر على انتهاك حرمة الدستور . وهي تبلغ تللين بيتاً ويتجلّى لك روحها في قوله^(٥)

ـ أـحـيـنـ هـوـيـ عـبـدـ الـجـيدـ يـعـرـشـهـ وـغـبـرـهـ بـالـذـمـ فـيـ النـاسـ غـابـرـهـ

(١) راجع كتاب التجارب (١٩١٣) ٤٢ (٢) اشارة الى اقصاء العهد الحميدي

(٣) راجعها في التجارب ١٠٨ (٤) أربعة اعوام مرت على اعلان الدستور

(٥) راجعها في التجارب ١٩

يقوم اناس يستعبدون عبده وفينا نيازي قائم وعساكره
 الا لانزجي العدل والعدل دوننا موارده محبة ومصادره ثباتها
 تجتلى زمانا ثم لم تبسم لنا او والله حتى استسررت او اخراف العذاب
 فولي الدين ينسب الى الاتحاديين الاستبداد بالامر والضغط على الحريات بما يجعل
 الدستور نظاماً اجوف لا خير منه^١. وقد يقال ان هذا الشاعر عصي المزاج بليل الى
 سوء الظن فيبالغ في نقده سيئات الدستوريين . على انه لم يتفرد بذلك . والذي يراجع
 ادب ذلك العهد يجده مثبعاً باليس والمرارة ، او على الاقل مصطبغاً بصبغة عدم الرضا
 كما ترى في مقال لرفيق العظم موضوع الاحزاب في الامة^(٢) ينتقد فيه الاتحاديين
 واستئثارهم بالسلطة النيابية فيقول - « ان الاحزاب في البلاد الدستورية كالقواعد
 التي يشاد عليها بناء الدستور . ولا يمكن لقاعدة واحدة ان ترفع ذلك البناء . فهل
 لا خوانا الاتحاديين ان ينعموا في هذا الامر قليلاً ليعلموا ان القوة لا تبلغ بحرب واحد
 يحمل ذلك البناء الثقيل بازاء امة جامدة مثل هذا الجمود الخيف . فهي في حاجة الى من
 يسوقها الى ميدان السياسة ويرشدتها الى فضيلة الحكم الدولي الا وهي الاحزاب فانها
 هي التي تتولى تربين الشعب على ذلك الحكم وتشویقه اليه لتكون يداً واحدة في
 المحافظة على الحرية والدستور » . وهذا الكلام كلام عارف بأحوال البلاد مطلع على
 دخائل الامور . نعم ليس فيه لذع ولبي الدين ولكن فيه ما يشير الى الاسباب التي
 اثارت كوابئ نفسه الحساسة . وقريب من هذا المعنى قصيدة لرضا الشيباني يشير فيها الى
 خيبة الآمال التي عقدت على الدستور^(٣)

ومن المنتقدين من رأى الخلل في الشعب نفسه لا في القائدين باصلاحه او التولين
 لشؤونه فمن الاجحاف عندهم ان تلقى كل التبعة او معظمها على عاتق الذين احدثوا
 الانقلاب وتولوا الاحكام وان يعزى اليهم وحدهم هذا الفشل في تطبيق النظام .
 وعلى ذلك يقول الاستاذ الدكتور فيليب حتى من خطبة له موضوعها من الملوم^(٤) -
 « ما لنا قافية قيامتنا ابداً على حكمتنا ورجال الحكم فيما فيها ولا لوم على هؤلاء ولا
 تثريب . انما اللوم كل اللوم علينا نحن كامة اذ ان الحكم ليسوا الا بعض افرادها
 يرتكبون بارتقايتها وينحطون بالخطاطها . يقولون الداء اختلاف العناصر والدواء ائتلافها

(١) المورد الصافي ٢ - ٢٢٢

(٢) ديوانه ١٩٦٠ ص ٦

(٣) راجعها في المورد الصافي ٣ - ٢٠٥

وامتزاجها – يقولون الداء «المركزية» والدواء توسيع المأذونية والسلطة الادارية – يقولون ويقولون الواقع غيرما يقولون . الداء الحقيقي هو جهلنا حقائق الامور وانحطاطنا عالمياً وأديباً كأفراد وبالتالي كمجموع ، والدواء التهذيب الحقيقي . وما الضعف القومي سوى عبارة عن مجموع الضعف الافرادي . اننا في حاجة الى تهذيب عام يشمل القتباين والقتبايات – حاجتنا الى مبادىء قوية الى آداب حصينة الى رجال . وتصف لنا الشعور نفسه قصيدة للمؤلف موضوعها «العامة في الشرق» وقد نظمت على اثر بعض الحوادث المؤسفة عام ١٩٠٩ ومنها^(١) –

سلام سلام سلام المتهم التيم
سلانيك^(٢) حتى الجند عنا وسلمي عليهم سلام المتهم التيم
وهبت لنا الدستور منك نكرماً وما نحن اهل للعطى والتكريم
ضجيج وأوهام هو الشرق كله فهل من فعول في الشدائيد مقدم
يقولون ان الشعب في الشرق حاكم وربك ما السلطان منه بأظلم
بني الشرق نسرى في الظلام الخيم
أنيراوا أنيراوا الجاهلين فاننا
أنيراوا أنيراوا الجاهلين وبشروا
بسنتوركم في عالم الشرق ينعم
فما الشعب بالرأي العمومي فاهض الى ذروات الجهد من غير سلام

وهما زاد الحالة تفاقماً والنفوس تشاواماً ما نشأ بعد خمود النازة الدستورية من مشادات عنصرية بين العرب والاتراك . فبعد تلك المبة المتفاصلة التي نراها في الادب ما بين سنتي ١٩٠٨ – ١٩٠٩ ، والتي كانت غليل الى تعزيز الجامعة العثمانية والتباكي بها أمام الاجانب أخذ التشاوؤم يتسرّب الى بعض الاوساط العربية . فتنبّه العرب الى المطالبة بحقوقهم وصاروا يلهجون بقوميتهم ومقامهم في السلطة وتلك هي الشرارة الاولى من النار التي تأججت بعدئذ في الثورة الحجازية ثم في الحركة القومية العربية بعد الحرب الكبرى وسفره بعد هذه الحركة فصولاً خاصة . فلتتقدم الآن الى الكلمة في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ – ١٩١٨) واثرها الادبي

(١) راجعها في المورد الصافي مجلد ١ جزء ٣

(٢) سلانيك كانت يومئذ المركز الرئيسي للاقلاب الدستوري

الحرب العالمية الأولى

وارتها في الأدب

والمتأمل في الشعر العربي السياسي أثناء هذه الحرب يراه على نوعين - حكومي وعمومي . فالاول مقرن بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوجهه الى الاقلام احد العوامل التالية : -

(١) رهبة تدفع الى الملافة والتنة

(٢) طبع يبعث على التزلف والمداهنة

(٣) هوس ديني يثير في النفوس التعصب والحسنة

ولو التفتنا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا فخبا بغتة ذلك التوتر العنصري وكمّلت الافواه والاقلام الا عن حمد الدولة وتحبيذ سياستها . على ان تركيام تكون غافلة عن التزععات اللاترکية الناشئة في الاقطارات العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما عملته بعد دخوها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت المسيطرة المطلقة على مقدرات البلاد ، ثم قسمت الجبهة العربية الى منطقتين حربيتين الاولى منطقة الجيش الرابع ويدخل فيها سوريا ولبنان وفلسطين والجهاز - والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين وأقليم سط العرب . وقد رأت ان تنظم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجميع ما جرى على يديه من بطش وارهاب وما قاساه العرب في عهده من شدة وضيق

فمن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية العثمانية أدب سياسي حر وان تكتب العواطف الحقيقة في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المسلمين ، وان المأرب الذاتية كانت تعشش في صدور الكثيرون فلا تستغرب ان ترى الأدب العربي يومئذ

يلبس اثواب التعجب للسبف التركي او الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت اهم مركز ادبي في الشرق العربي (خارج مصر) ومستنباً خصباً للدعويات الاصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذى يلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كانت قبل دخول تركيا الحرب تجاهر بعلها الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطررت اما الى التوقف وإما الى بمالأة السلطة . فلم يبقَ في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الا بلاغات تركية المانبة ، ولم تكن مقالاتها الا انشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانه من المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبه طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبه بعدها ، ولا سيما فيما له علاقة بنهاية العرب ومطالبهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الالثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان «البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية»^(١) في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظمت قيادة الجيش الرابع وفداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطنة للاغراض التالية^(٢)

- ١ - لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدة الخلافة الاسلامية
 - ٢ - لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الاحربى
 - ٣ - بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين
- وبعد انت قضا نحو شهرين هناك بين مآدب تكريمية ومشاهد حربية ، ومحفلات خطابية وموافق شعرية عادوا الى اوطانهم يقتضون على الملايين ما شاهدوا وسمعوا وقد دوّنوا النما اقوالهم ومشاهدتهم في الكتاب المذكور واليكم بعض النماذج منها -
- فقرات من خطب القبيت في حضرة وزير الداخلية^(٣) يا صاحب الدولة والفضل :-
- «ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتكم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد علت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجمع شملنا ونسير في داخلتنا وخارجيتنا . حتى اذا نشب الحرب العامة اثبتنا اننا امة لا تزال حية »

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ (٢) البعثة العلمية ص ٢٥٢

(٣) راجع الكتاب المذكور ص ٤٥ - ٤١

«كان أئم قليلاً في ديار الشام يمسون في سرهم في أوائل النهار العام بقولهم : ما لنا وللعرب ؟ إن الحياد أبقى علينا وأسلم لكياننا . ولم تكن إلا مدة قليلة حتى عرف الخاص والعاصم بأن الحرب مع دول الاستعمار كانت مقررة لحياتنا السياسية والمدنية » كانوا يقولون أن في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا ومحضت الناس فتبين الخائن المأثر من الوطني المخلص ، واحتاجنا من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة إلى انتداب أمثال جمال باشا وأخوانه الولاة لسياسة سوريا اثناء هذه الأزمة لم فيها المضحك المبكي ». ومن الثاني :- « يا صاحب الدولة - إن قodium هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين إلى دار الخلافة الإسلامية الكبرى والأمامية العظمى لأداء فروض العبودية وواجب الإخلاص لعرش الخلافة الإسلامية المقدس واهداء سلام الشعب السوري إلى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واظهار ما يكتبه الشعب من عظيم الشكر لا ولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خالده لهم التاريخ بأحرف من نور ... هو أنسع برهان على السعي وراء تلك الغابة الشرفية ، ونكون عري الرابطة المحمدية والاتحاد الإسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعمة العثمانية تحت ظلال الملال المظفر الذي سيتحقق ان شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع فرقاسيا وفوق وادي النيل »

وما قيل في حضرة مليء السلطنة : -^(١) « بيت عمان ياذا الإيادي البيضاء على هذه الامة اذك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الملال المنصور فروندا وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والترك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدسة يقول - « فكنا امام العادين من دول الغرب في كل وقت محارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونخن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف عالمنا الذي يظلينا بفضلكم يا بنى عثمان وحافظة بيضة الدين والایمان » . وعلى هذا النسق اكتب الادب السياسي المنشور او كله في ذلك العهد . ولم يختلف عنه الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العالمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الرياوي وعبد الكريم عويضة ، وخدين

^(١) رابع البعثة العالمية من ٦٦

الحال ، وبدر الدين النعاني وسواهم وكلها ترمي الى نفس الغرض – واليك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة : –^(١)

يا رجالَ الملكِ إنا أمةٌ لا ترى عن آل عثمان بديلٌ
حيثِها يا وفدي حي جندُها فاهر الاعداء بالسيف الصقيلٌ
نصرَ الدينَ واعلى شأنه فعدا الاسلام في ظلِّ ظليلٍ
ومنها مشيراً الى تراجع اسطول الحلفاء امام قلاع الدردنيل
حي قوماً ادهشو اكل الورى بثبات العزم والصبر الجميلٌ
فهروا الاسطول في البحر فما ابْحَرَ الاسطول ان عاد ذليلٌ
دافعوا عن حوزة الملك بما يحفظ التاريخ جيلاً بعد جيلٍ
وبنوا الشرق الى مصر انبروا «وجال الدين» للفتح كفيلٌ

ويبدو بذلك الى الحلة التي كان يعدها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ الريعاوي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نموذج يمتاز وفيها بصف ما رأه الوفد في الاستانة ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول^(٢)

فجئنا الى دار السعادة والمنى محظٌ رحال العزّ والعزّ يقصدُ
وزرنا عبد الملك يسمو عهاده ورثنا ولي العهد بالفضل يُعهدُ
تحفَّ بنا القواد من كل جانب واقطاب دار الملك تحفني وتحفهُ
ومنها خطبنا لهم جاتاً وقد خطبوا لنا وانشدوا
جالس كانت كالربيع بواسماً ذكرناك فيها والحقيقة تشهدُ

ومنها – رجعنا وما بالقول شيء ليعرب ولا يعرب ينسى الجميل ويحقدُ
علي ابناء دين محمد يحكم هذا الحب فينا ويعقدُ
وله قصيدة اخرى مطلعها
تيفظم حزماً فأيفظم الدهرا واعلمت عزماً فأدهشم العصرا
وفيها يقول^(٣)

وأعظم في الايام آياتها الكبرى
وان كان بعض الناس قد ذاقه مرّاً
على الحصم قد طبقتم البر والبحر
ومنها - سعيتم فقرّتكم بني العرب منكم
فكانوا لكم أزراراً على كل خارج
عدوٍ وما كانوا وحقّكم وزراً
ولا ينقومون الترك سرّاً ولا جهراً
وكنتم بین الملك والعرب سيفه
ونختم هذه الامثلة ببعض ابيات من قصيدة لبدر الدين النعساني في احمد جمال باشا،
قال :^(١)

لئن أكثر المداح فيك القصائد
فما بلغوا في الآلف من ذاك واحداً
ومنها : رمى الله منك الانكليز بصارم
صقيل يقدّم الهندوانيَّ غاماً
اراهم يا راموه منك حصاداً
ستبقى لهم يوم اللقاء مصادداً
بها الصرص النكبات تشكو الجلامدا
وعزّت جموعٌ كنت فيهنْ رائداً
واعظم آثاراً وأكثر حاشداً
واطهر أخلاقاً وأصفى سريرة
وقفت على عليك فضيّ يرعاكي
ونسي وفكري والقوافي الشواردا

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينشر في سوريا والعراق . وهو ولئن لا يجوز اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجاله فإنه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت تشير الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوّس ديني . واذا عرفنا زمانه ومكانه واستطعنا ان نقرأ ما بين السطور تجلى لنا فيه من المشاهد ما قد يساعدنا على فهم كثير من الحقائق

وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً . الا ان المشهدين مختلفان . فنصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله^(٢) - «تبجه حتى العصور

الأخيرة إلى جهتين — تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي. وهي تتجه أو كانت تتجه صوب الاستانة أمقر الأخلاقية الإسلامية والاستانة عاصمة الترك . فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتوجه ببصره — إلى حين الفيت الأخلاقية — نحو مكة والاستانة: يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع»

و مع كل ذلك لم تتحرك مصر ساكنًا حين أعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انه بالنظر إلى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر (١) ، وما ذلك إلا أن السلطة البريطانية أصبحت يومئذ الكل وفي الكل . وصار المصريون يشعرون انهم إنما يعيشون في ظل سيفها المصلحة . فلم يكن من الغريب أن نرى الشعراً يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل — كأتماعيل صبري واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وولي الدين يسكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالحقيقة حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن ان يقول في الانكليز مخاطباً السلطان (٢)

فعش للنبل سلطاناً ابياً له في ملوكه عقد وحلّ
وروال القوم انهم كرام ميامين النقيبة ابن حلوا
فمن ملك على التامير (٣) اضحت ذراه على المعالي تستهل
وليس كفورهم في الغرب قوم من الاخلاق قد نهوا وعلوا
فإن صادقهم صدقوك ودآ وليس لهم اذا فتشت مثل

اما شوقي شاعر الخديو عباس (خصم الانكليز) فقد كانت قصيده في السلطان حسين كامل « لعنة » فتبثة حاول فيها الجمجم بين وفاته لأميره السابق والواجب عليه للسلطان الجديد ونجيب سخط الانكليز . وقد توقف إلى حد يذكر له . اذ قال مشيراً إلى عباس :

ـ ما يعلم ما كفرت صنيعة في ذا المقام ولا بحمدت جهلا

(١) الملال ٢٣ - ٣٢٦ راجع أيضاً فيه بлагات الوكانة البريطانية

(٢) الملال ٢٣ - ٣٢٧ - (٣) بحر لندن

ثم في اعتذاره عن مدح الامير الذي حل محله
الخون اسماويل في ابنائه ولقد ولدت بباب اسماعيلا
ولم يستطع الا ان يقول كلمة في الانكليز فقال :

حلفاؤنا الاحرار الا انهم ارقى الشعوب عواظفان ومويلا
اعلى من الرومان ذكرأفي الورى
واعز سلطاناً وامن غبلاً
لَا خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحةً في البلاد عدولاً
وانروا بكمبرها^(١) وشيخ ملوکها ملِكًا عليها صالحًا مامولاً

على انه لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطراره الى مجاراة السلطة لم يبلغ في تلك المغاراة مبلغ الشعر السوري والعراقي ، بل ظل اكثرا تحفظاً وافق تطرفًا^(٢) . واذا كان في مصر يومئذ من غارات ادبية عنيفة على الاتراك فنشروها في الاكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك جرائدهم ونفائس افلامهم . ولم يكن على ما يظهر معها التملق او التعصب بل الاقتناع (خطأ او صواباً) ان الخلاص من ترکيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الاقطار العربية انوار الجد والسعادة

اما الادب السياسي العمومي (اي ما كان خارج دوائر السلطة) فتشابه في جميع الاقطار اذ هو منبعث عن شعور الناس بوطأة الحرب . ومن الطبيعي ان يكون اثره في مختلف البيئات بالنسبة الى شدة تلك الوطأة او خفتها ، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما نظم منه في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولا سيما بيروت ولبنان حيث بلغت الحنة اشدتها . ومن شواهد تلك القصائد التي قيلت في احوال الحرب وظاهرها كقصيدة الزهاري « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها^(٣)

في كل ارض وصع مدافع فائزات
يقتلن كل فتى قد تقيد منه الحياة
وليس يقين الا اراملا ويتامي

(١) اي بالسلطان حسين كامل (٢) بل كان بعضه جريئاً على السلطة المحتلة . راجع قصيدة هدم المطلب في الحرب العظمى ديوانه ١٩٩٦ (٣) ديوانه (١٩٢٦) ١١٦

هناك بحرٌ خضمَ يجري ليغمر بحراً
هناك بركاتٌ نارٌ تسعى لأنأكل أخرى
هناك جيشٌ همامٌ يومَ جيشاً هاماً

من فارعاتٍ صباحاً يحرر منها المكانُ
وباراتٍ مسأةً يحرر منها الدخانُ
وناسفاتٍ بليلٍ يبعثنَّ موتاً زوابعاً

القتل قتلٌ ذريعٌ والخطب خطبٌ جسامٌ
فوق الرغام دماءٌ يحرر منها الرغامُ
والارض تشرب منها ولا تبلٌ أواباما

و كقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها « مني تضع الحرب او زارها»

و منها: ^(١)

رابعٌ الخفارة امست محطة النسور ومنتبع الا ضبعٌ
وإنَّ ابنَ آدمَ شرَّ الضواري اذا هاجَ هائجَ المطعمَ
ففي الحربِ سلَّ عنهُ نيرانها ومحررَ الدماءِ على اليرمعِ
واشلاءَ قتلى ابادهمَ مبيدهُ من السيفِ والمدفعِ

ولو اردنا ان نخلل القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضافي بنا المقام
ويكثر فيها وصف حزن الناس من بؤس وجوع وخوف وترمل نساء ويتيم أطفال
وما الى ذلك مما يدخل اكثره في باب العوامل الاجتماعية . وتحيل القاريء، الآن الى
القصائد التالية - وهي حرية بالمراجعة : من ويلات الحرب للرصافي ديوانه (١٩٣١)
٢٢٣- قطع شئ لوديع عقل ديوانه ٨٨-٩٢ - بيروت في الحرب لطانيوس عبد (ديوانه
٤١) - الحرب العظمى لكاظم الدجيلي (أفلال ٢٧-٧٤٨) - المجزرة العظمى محمد باقر
الشيباني (المقطف ٥٠-٥٨٦) - الحرب والمؤاساة محمد المراوي (المقطف ٥٣-٩١)
- الحرب على الجارم ديوانه ٢-١١٨

(١) راجعها في جريدة الحقيقة (بيروت) ٧ - ٥٩٨

النهاية العربية القومية

وأثرها العربي

«وطئة» للعرب في تاريخهم القديم ثلاث نهايات بارزة . الاولى دينية مهدها الحجاز وقد بلغت اوجها بظهور الاسلام وانتشاره في قسم كبير من المعمور . والثانية قومية . وليس بالمعنى فصلها عن الاولى ، على انها تبرز بشكل خاص في العهد الاموي ففيه كان للعرب سلطنة عظيمة الشأن تند من حدود الهند الى الاندلس . وكان العرب فيها اهل الادارة والسلطان ، بسيوفهم تحاط الدولة والخزانتهم تحجي الاموال . واما النهاية الثالثة فعلمية لغوية ، وقد بدأت بالنحو منذ ظهور الاسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الحواضر الاخرى . ويراد بها ما قامت به اللغة العربية يومئذ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عرف من ازدهار معارفها وآدابها ومن المعلوم ان العرب فدوا بعد الامويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق واخذوا بعد العصر العباسي الاول بالتراجع امام سائر العناصر . ولم يلبثوا في الشرق عقب اخلال الخلافتين العباسية والفاطمية ، ان دخلوا في حكم الدول الاعجمية وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي ينت حكمها عليهم من سنة ١٥١٦ م الى نهاية الحرب العالمية الاولى ١٩١٨

ولازم قبل القرن التاسع عشر ما يشير الى يقظة قومية للعرب ، فقد كانت قوميتهم في سبات عميق . واول من حاول ايقاظها على ما يظهر لاغراض سياسية محمد علي الكبير (مؤسس البيت المالك المصري) او فل ابنه ابراهيم باشا ، وكان ينوي انشاء دولة عربية مركبها القاهرة^(١) لكن مشروعه لم يتم . ولا يظهر ان البلدان العربية التي نورخ ادبها الحديث (مصر وسوريا والعراق) تأثرت يومئذ تأثيراً جدياً بهذا المشروع

(١) راجع ما ذكرناه في مستهل الفصل الاول (متطرق في ابر الماضي) وس كذلك تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الزافني (طبع ١٩٣٠) ص ٢٣٣ و ٢٦١

او سعت لتحقيقه ، على ان البذرة وضعت في الارض وترك لزمان إنباتها
بقي الحال كذلك الى الثالث الاخير من القرن التاسع عشر ، وكانت مصر قد
استقلت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية ، والنهضة العلمية قد بدأت في سوريا
ولبنان بتنشيط بعض اعلام الحكماء كرشد باشا ومدحت باشا^(١) واضرابها ، فتهما
من كل ذلك بواطن حركة ادبية تعبّر عن احلام العرب وخواجهم القومية . ومن هذا
القبيل جملة من القصائد والخطب الوطنية التي كان لها اثر يذكر في تخمير الافكار واذكاء
الروح القومية وسند ذكر شيئاً منها بعد

ومن ظواهر تلك البيقة القومية الاتجاه نحو انشاء جمعيات تطالب بحقوق العرب
في السلطنة العثمانية والحضور على إنماضهم ، كالمجتمع الذي تأسست سنة ١٨٨١ باسم «جمعية
حفظ حقوق الملة العربية » وقد نشرت نداءً الى العرب من مسلمين ومسيحيين تحت
عنوان «بيانهم الامم العربية » تدعوهم فيه الى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية^(٢)
ويبدأ هذا النداء بمخاطبة المسلمين فيلتفت نظرهم الى ظلم تركياً ويختتم ذلك بقوله —
« فاين انتم واين هم ؟ من منكم اليوم امير ومن منكم اليوم وزير ومن فيكم
اليوم مدمر ؟ بل كل واحد منكم فقير ، وكبيركم مثل صغيركم حقير ، والمال والأمال
بأيدي الترك الخ » ثم يلتفت الى المسيحيين فيقول لهم —

« انحدوا مع المسلمين واستعدوا النوال حرمتكم من المعدين فان الترك يخشون
بأنفسكم فلا يسرونكم ولا ينتهكون حرمتكم خوفاً من الفناصل . فانحدوا بقلب مع
اخوانكم المسلمين فان مرجع مصالحكم الى واحد »

ويظهر ان بعض ذوي المصالح او ذوي العطف الانساني من الاتراك كانوا يظاهرون
العرب في اتجاههم القومي ، فقد ذكرت جريدة المشير ان جماعة من شباب العرب
والاتراك اجتمعوا في باريس لتأسيس جمعية عربية وغاياتها^(٣)

١ — ان يدافعوا عن حقوق العرب جميعاً مهما تباينت مذاهبهم

٢ — حفظ الامة العربية تحت ظلّ الراية العثمانية في وضع قانون اساسي للخلافة

٣ — ان يساوى بين العرب والتونكي كل شيء

٤ — اجراء الاصلاحات الواجبة بالطريقة الواقعية (اي بالفعل)

(١) راشد باشا كان واليا على سوريا سنة ١٨٦٣ - ٦٨ . ومدحت بعده بقليل

(٢) جريدة المشير ٢٩ مايو ١٨٩٥ . (٣) المشير ١٩ ديسمبر ١٨٩٦

٥ — استقلال كل ولاية من الولايات (العربية) باليتها وشخصها ولابتها بوال عربي أو معاون عربي . (وهو كالنظام الامريكي الذي كان يسعى اليه الاصلاحيون قبل الحرب الكبرى كما سترى بعد)

وبلوحة لنا ان هذه الجماعة هي نفس الجماعة التي يذكرها سيميونسكي في جريدة الجورنال الفرنسية اذ يقول^(١) « في العام ١٨٩٥ بدأ حركة الاسلام بالارتفاع عند ما تأسست في باريس عصبة الوطن العربي . وكان هذه العصبة قاعدة ان جوهريتان هما التحرر من الاجانب والاتحاد البلدان العربية تحت سلطة موحدة وازمية »

ولعل عصبة الوطن العربي هي الجماعة الوطنية العربية التي يذكرها الاعظمي في كتابه « القضية العربية »^(٢) . وسواء صحت ذلك ام لم يصح فالواقع ان العرب اخذوا منذ ايام السلطان عبد العزيز يتبعون الى حقوقهم وبطالب احرارهم بها ، وقد تركوا لنا من آثارهم الادبية في العهد السابق لدستور ١٩٠٨ ما لا يترك مجالاً للشك في ذلك بيد ان هذا التنبؤ لم يبلغ بهم يومئذ مبلغ الرغبة الجدية في الانفصال عن تركيا وجل ما كانوا يطلبونه ان ينالوا حقوقهم في الدولة . وعلى ذلك يقول المقطم سنة ١٨٩٤ بعد ان يذكر النسبة العددية بين العرب والاتراك^(٣) « ان العرب مظلومون من حيث الادارة والمناصب وان جلالة السلطان لو علم الحقيقة لانصف العرب ونحن لا نشك بحسن نية السلطان ولكننا نشك في ان هذه الحقائق تصل اليه » . وأوضح من هذا القول تصريح خليل غانم ، مبعوث سوريا في المجلس العثماني الاول (ايام مدخلت) وأحد مؤسسي جمعية تركيا الفتاة في باريس ، اذ قال^(٤) « ولا نطلب انفصل العرب عن الاتراك لأن ذلك يؤول الى الخراب والاندثار . بل نطلب ونتمنى من صاحم الفؤاد انضمام الملتين بل ادغامهما الواحدة بالآخر بحسب تكوين امة واحدة ، ولكن على شرط المساواة في الحقوق والواجبات »

هذه الروح المسالمة تتجلی في اقوال جمهورة العرب العثابيين على ان العصبية العربية التي رأيناها تباشيرها تلوح منذ اصيل القرن الماضي لم توقف دائماً عند حد المسالمة بل كثيراً ما كانت تفور في نفوس طبقة من الاصلاحيين ساخطة على الاتراك مهيبة

(١) عن صوت الاخراج (بيروت) ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٧ (٢) طبع ١٩٣١ من ٦٨

(٣) المقطم عدد ١٧٢٨ (٤) المثير ٤٥ يناير (ك ٢) ١٨٩٥ (٥) راجع سيرته في تاريخ الصحافة لطراري ج ٢

بالعرب الى استرجاع مجدهم التأريخي ويشمل هذه الطبقة اثنان هما ابراهيم البازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) وعبد الرحمن الكواكي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) فلننظر في الدور الذي قام به كلٌ منها -

﴿ البازجي ﴾ ولقد يعجب البعض لزجنا ابراهيم البازجي في هذا المقام وهو المعروف بالتنقيب اللغوي والبعد عن تيار السياسة . على ان الذي يطالع شعره في ابان شبابه يرى فيه عربياً شديد النزعة القومية . ودليلنا على ذلك بعض قصائده التي نظمها (وهو في نحو العشرين او بعدها بقليل) فأخذت في نفوس الناس هزة لا يزال اثرها الى الات . ومنها ثلاث قصائد اولها قصيدة انشدتها سنة ١٨٦٨ في الجمعية السورية ومطلعها^(١) -

سلام ايها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم العام
لقد ذكر الزمان لكم عهوداً مضت قدماماً فلم يضع الذمام

ويتقدم الى وصف مجالس العلم وأربابها ثم يعود الى ذكر العرب فيقول مفاخرآ:-

وما العرب الكرام سوى نصال لها في أجنف العلياء مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل وعن آثارنا أخذ الانام
ونحن اولو المأثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللثام

وبأخذ من هنا بتعداد امجاد العرب الأول في العراق والشام والجاز والعجم والأندلس وختم ذلك بقوله -

ولئنما القانعين بكل هذا وليس لنا بعروته اعتضام

ولئنما سنبجهد للعلاء الى ان يستقيم لنا قوام

والقصيدة الثانية باية وهي تلتهب حاسة ومطلعها^(٢) -

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب فقد طوى السيل حتى غاصت الركب
في النعل بالآمال تخدعكم وانت بين راحات القنا سلب

(١) راجع الآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ٢ - ٣٢ (٢) راجع نصها في

المشier ٢٥ ابريل ١٨٩٦ وفي مجلة الاصلاح (بونس ايرس) ٦ - ٦ وفي القضية العربية للاظمي ١

- ٦ ، ولا يذكر المشير اسم ناظمه . وتنزى في سير ملكة ٧٣ الى أحد مشائخ المسلمين . أما

سائر المصادر ومنها زيدان في ترجم مشاهير الشرق ٢ - ١١٩ فتفق على ان صاحبها البازجي

كم تظلمون ولست تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدوا لكم غضب
ومنها فشمر وأنهضوا اللامر وابندروا من دهركم فرصة فنت بها الحقب
لأنتم الفئة الكثري وكم فئة قليلة ثم إذ خبيت لها الغلب

ثم يشير الى الآراك فيقول : -

سلاحهم في وجوه القوم مكرهم وخير جندم النديس والكذب
لا يستقيم لهم عهد اذا عقدوا ولا يصح لهم وعد اذا ضربوا

وتأخذة الخامسة القومية فيصبح :

بالله يا قومنا هبوا لثأنكم فكم تناذكم الاسفار والخطب
الست من سطوا في الارض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا اينما ذهبوا
فما لكم ويحكم أصبعتم ههلا ووجه عزكم بالغون منتب
لا دولة لكم يشنده ازركم بها ولا ناصر للخطب يُنتدب
أقداركم في عيون الترك فازلة وحقكم بين أيدي الترك معتصب

وكثيراً على هذا النمط من اثاره الحفاظ والعصبية الجنسية

اما الثالثة فهي السببية المشهورة . قال سليم سركيس : « ان الذي تولى نشرها في دمشق جمعية نظمت ايام مدحت باشا . وقد كانت لنشرها رنة في البلاد فارسلت التلغرافات الى الاستانة وازداد عدد البوليس السري واقتصرت الحكومة القبض على كثرين »^(١) . ولما كانت قد نشرت كاختها البائية غالباً من التوقيع فقد اختلف في ناظمتها على ان أكثر المصادر^(٢) تعزوها الى اليازجي وهي قصيدة طويلة قد تزيد على الستين بيتاً وهناك بعضها^(٣)

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعن
ومنها اي النعيم لمن يبيت على بساط الذل جالس
ولمن تراه باشاً ابداً لذيل الترك « باش »
ولمن ازمه بكاف عداه يظلم وهو آيس
ولمن تباع حقوقه ودماؤه يبع الحسائس

(١) سر ملكة ٦٧ (٢) منها زيدان راجع الفلال ١٧ - ٥٧٦

(٣) راجع نصها في سر ملكة ٦٦

ولمن يرى اوطانه خرباً كاطلال دوارس.

وهنا يقف الشاعر على طول البلاد ويعده امجادها الغابرة ثم يقول : -

فالتركُ قومٌ لا يفوزُ لدِيهِمْ إلَّا المُشَاكِنْ

او لمِّنَ الْعَرَبِ الْكَرَامِ وَمِنْهُمْ هُمُ الشَّمَّ الْمَعَاطِسْ

فاستوفدو لقتالمِ فاراً توَّعَ كُلَّ قَابِسْ

ويدعُو العرب إلى الانجاد مندداً بالشقاق والتعصب الديني ومشيريه في نفوس العامة

ثم يقول :

ساد الفساد بِهِمْ فَادَ التَّرَكَ فِيهِ بِلَا مَعَاكِنْ

كم تأملون صلاحهم ولم فاد الطبع مائسْ

ويغركم برق المنى جهلاً ولبل اليأس دامسْ

عمت قبائحهم فأضحت لا تحيق بهَا الفهارسْ

حال بهَا طاب النسم للوغى والموت عابسْ

وحل بهَا سفك الدماء فسفكتها للجور حابسْ

ولم تكن هذه النفحات الشعرية نسيج وحدتها في تلك العهود بل ظهر منها كثير في البلاد العثمانية والمهاجر . وكلها تم على تخمير قومي احدته الاحوال الجديدة في نفوس الشبيبة لذلك العهد

عبد الرحمن الكواكي ١٨٤٩ - ١٩٠٢) كان هذا الأديب الحلي أصلاحياً حرراً . وقد اوصلته نزعته الحرية إلى السجن . ثم إلى هجرة تركيا والطواف في إفريقيا وببلاد العرب وأفريقيا^(١) . وله كتابان معروفاًان هما « طبائع الاستبداد » و« أم القرى » والباول دعوة جواثة إلى الحرية والتخلص من قيود العادات الاجتماعية المضرة . أما الثاني ، وهو الذي يهمنا هنا ، فمن العوامل الفعالة في إيقاظ الشعور القومي بين العرب ، إذ هو يدعو إلى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية^(٢) ويسرد لذلك أسباباً كثيرة نذكر منها ما يلي^(٣) -

(١) راجع سيرته في الجزء الأول من ترجم متأمرين الشرق فريدان - وفي أملاك النبلاء

للطباعة ج ٢ . وبibliothek المخطوط والمتأثر (سنة ١٩٠٣) ١٧٢) أم القرى (

(٢) أم القرى ١٦٠

- (١) عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم
 (٢) عرب الجزيرة اقوى المسلمين عصبية واسدهم افقه لما فيهم من الخصائص البدوية
 (٣) لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعرف ومحضها بالقرآن الكريم من ان تموت وهي اللغة العمومية بين كافة المسلمين
 (٤) والعرب اعرف الامم في أصول الشورى وفي الشؤون العمومية
 وليس من شأننا في هذا المقام ان نشرح نظرياته اثباتاً او تجريحاً وانما نحن نعرضها
 تدليلاً على ما كان مختلف في بعض النقوص يومئذ واماارة الى تلك الحواجز القومية التي
 تركت اثراً في الادب العربي

وقد اجمع العلماء والادباء على وصفه بكارم الاخلاق والشغف بالحرية والاصلاح
 والجرأة على الجهر بما يراه مفيدة لبلاده . وذهب بعضهم الى نقد عنقه ومرارة لمحته
 قال الطباخ^(١) « ولعل غليان دم الشباب في فؤاده وقتئذ ، وتلك النفس المقطرة على
 الإباء المتعثقة منذ الطفو ليلة محسن الاصلاح المتطلعة اليه تطلع الاسد الى فريسته هي
 التي اهابت به ان يطلق جرواد قلبه العنان في هذا الميدان ، وحال جبه الشديد
 لا وطنه وشفته العظيم بانتظام احوال بلاده بينه وبين التطلع الى امامه ، والالتفات
 الى ما كان حوله فكباه راعه ، ولكل جواد كبوة وكان ما كان ، والامور مرهونة
 باوقاتها »

وكيفاً كان الامر فان الكواكي كما قال المقاطف^(٢) « من كبار رجال النَّهْضَةِ
 الحديثة في هذه الديار الا ان المحيط لم يسعده والاجل لم يمهله حتى يتسم مقاصده
 السياسية والدينية على ان النعمة التي ضرب عليها قد استمعت بعض الناس . ولو لم يحيط
 مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد (اي العثمانية) ولم يعرف عقله ولا فضله »
 فالكواكي ، كما يتبين لنا من اقواله واعماله ومن آراء اهل الثقافة فيه ، عامل
 قوي من تلك العوامل التي حرّكت نفوس الناطقين بالعربية وتحيرت قلوبهم بروح
 الغيرة العنصرية

ومن الخطأ ان نحصر هذا العمل التخييري في هذين الاديين فقد كان مثلهم جماعة
 من ذوي الالتر البيتين في النَّهْضَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْقَوْمِيَّةُ - منهم اديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) ولم

يُكَنْ اديب من المناوئين للعثمانية، وليس في ادبه ما يشتمّ منهُ روح الثورة على نظامهم السياسي . على ان فيه تلك الجرائم القومية الخمسة التي تغلب على ادب الاحرار لذلِك العهد . وادا كان لا يهاجم الحكومة العثمانية كاليازجي والكونكي فهو يجاريها في الدعاية القومية العربية والكرامة الوطنية . والذى يبرر في ادبه دأبه على تحريك الروح الشرفية وتعزيزها . فهو ينماض عنها في مصر وسوريا ، وهو في طليعة المناصرين للاحزاب الوطنية الرافعين لواء الحرية . ومن الطبيعي ان يكون في رسالته الشرفية ما يهيب بمواطنه الى احترام انفسهم باحترام لغتهم وتاريخهم . ومن أمثلة ذلك قوله من خطاب مشهور موضوعه دولة العرب^(١)

«شعّلة سرت» من الحجاز فأثارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند وانصلت بأطراف الفرجنة فهللتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضي « ومن نارها تقبس » وبعد ان يذكر فتوح العرب يقول على طريقته الخطابية :-

« فسارت اسود رجالها على طيور خيوطها تعطري الصغارى وتقطع الفدادن ، حتى نطاحت بروءى عزمها شرفات الايوان ، ونشرت من الشرق نسر الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها وضربت في الاندلس خيامها »

ويأخذ من هنا بقابلة العرب الاول بعرب اليوم مهياً بهؤلاء الى الانحاد ، داعياً اياهم الى تلافي حالم قبـل فوات الاوان . ويقترح لهذه الغاية اجتماعاً عربياً يتذاكرـون فيه شؤونـهم ويطالبـون بحقوقـهم . وـكانـه شـعر بـتشـاؤمـ البعض او خـدرـهمـ من مثلـ هذاـ الاجتماعـ فقالـ منـشـطاً وـمـثـيراً لـهـمـ

« أـيـسـبـونـ ذـلـكـ الصـوتـ لـاـ يـكـوـنـ لـهـ مـنـ صـدـىـ ، أـمـ يـحـسـبـونـ أـنـ يـذـهـبـ ذـلـكـ الـاجـتـاعـ سـدـىـ . أـوـ لـاـ يـعـلـمـونـ أـنـ مـثـلـ هـذـاـ الـاجـتـاعـ مـنـزـهـاـ عـنـ الـمـقـاصـدـ الـدـينـيـةـ ، مـنـحـصـراـ فـيـ الـعـصـيـةـ الـجـنـسـيـةـ وـالـوـطـنـيـةـ ، مـؤـلـفـاـ مـنـ اـكـثـرـ التـسـحلـ الـعـرـبـيـةـ ، يـزـلـزـلـ الـدـنـيـاـ اـضـطـرـابـاـ وـيـسـتـيـلـ الـدـوـلـ جـذـبـاـ وـارـهـابـاـ ، فـتـعـودـ لـعـربـ الضـالـةـ الـتـيـ يـنـشـدـونـ وـالـحـقـوقـ الـتـيـ يـطـلـبـونـ »

وليس هذا الكلام اول ما اداه من الرسالة العربية وآخره بل في تضاعيف اقواله كثـيرـ مـاـ يـوـقـظـ النـفـوسـ وـيـشـيرـ النـخـوةـ الـقـومـيـةـ

ومن هذه الطبقة الشيخ يوسف النبهاني ، ونجيب العازوري اللبناني ، وقد اصدر هذا الاخير سنة ١٩٠٥ كتاباً سماه بقظة الامة العربية استحدث فيه العرب على استرداد حقوقهم المهدومة^(١) والشاعر المشهور الشيخ نجيب الحداد وهو القائل من قصيدة^(٢) -

آن الاوان لان اخاطر بالدم من لم يخاطر بالدم لم يسلم
أجزيرة العرب التي احيتها كم من اكفت قد رمتكم بأسمهم
لعبت اكفت الترك فيك فعادوا
في كل قطر فيك نهرآ من دم
قتلوا رجالك واستذلوا من بقي
فيقيت صرعى للبدين والقلم
وغدا العراق مع الحجاز غنية
وببلاد نجدة سيدة المنقسم
فلينقذ الله العلي جنوده وليرحظ العرب التي لم تأت

وقد ادرك هذه الطبقة طبقة متأخرة كانت لها يد كبيرة في ايقاظ الروح القومية
وسير دذكرهم في غير هذا المقام

بمثل هؤلاء الرواد القوميين من كتبة وشعراء اخذت النفسية العربية تستيقظ من
سباتها العميق . فلم يكدر فجر القرن العشرين ينبثق حتى كانت العاطفة القومية قد
اخذت تحرك القلوب والاقلام . وكانت لها في الادب اتجاهات ظاهرة اظهرها تلك
المفاخرة بالابجاد السالفة . وتلك الغيرة الملتهبة على اللغة الوطنية والنشكي من اهملها .
كقصيدة حافظ ابراهيم « رجعت لنفسي فانهيت حصافي » . ومنها ما جاء على لسان
اللغة شاكية بما بها -

انا البحر في احشائه الدر كامن
فهل ساءكوا الغواص عن صدفاني
ارى لرجال الغرب عزآ ومنعة
وكم عزآ اقوام بعزآ لغات
سقى الله في بطن الجزيرة اعظمها
يعز عليها ان تلين فناني
حفظنـ ودادي في البلى وحفظتهـ
لمنـ بقلبـ دائمـ الحسرات
حياةـ بتلكـ الاعظمـ النثرات
وافخرتـ اهلـ الغربـ والشرقـ مطريقـ
ارى كلـ يومـ بالجرائدـ مزلقـاـ

(١) القضية العربية للاهظمي ٤ - ٦٨
(٢) اوردتها الاعظمي في كتابه ١ - ٣٦ ولم
نجدتها في ديوانه ولعلها من مجلة ما كان ضائعا من آثاره يوم نشر الديوان . ولله ما قاله في استهانه
الشرق بتجدها في الفلال ٣٠ - ٢٢٠

أَيجِرني قومي عفا الله عنهم^١ إِلَى لُغَةٍ لَمْ تَتَصلِ بِرُوَاةٍ
 سَرَتْ لُوَّةَ الْأَعْجَامِ فِيهَا كَاسْرَى لِغَابِ الْأَفَاعِيِّ فِي مَسِيلِ فَرَاتِ
 وَالْقَصِيدَةِ كَلَامًا عَلَى هَذَا الْمُنْوَالِ مِنْ تَعْظِيمِ الْعَرَبِيَّةِ وَذَمِّ الْمُعَرَّضِينَ عَنْهَا الرَّاغِبِينَ فِي
 الْلُّغَاتِ الْأَفْرِنجِيَّةِ^٢

وَمِثْلًا قَصِيدَةً لِمَصْطَفِي صَادِقِ الرَّافِعِيِّ مَوْضِعُهَا الْلُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَالشَّرْقُ وَفِيهَا يَقُولُ^٣

أَمْ يَكْبِدُهَا مِنْ نَسْلَا الْعَقَبَ^{*} وَلَا نَقْبَصَةَ إِلَّا مَا جَنَى النَّسْبَ^{*}
 كَانَتْ لَهُمْ سَبِيلًا فِي كُلِّ مَكْرَمَةٍ وَهُمْ لَنْكَبْتُهَا مِنْ دَهْرِهَا سَبِيلٌ^{*}

وَمِنْهَا فِي تَقْلِبِ الْأَيَّامِ عَلَى هَذِهِ الْلُّغَةِ :

كَطْلَعَةُ الشَّمْسِ لَمْ تَعْلَقْ بِهَا الرَّيْبُ^{*} أَنَّى عَلَيْهَا طَوَالُ الدَّهْرِ نَاصِعَةَ
 كَالْبَدْرِ قَدْ طَسِتَ مِنْ نُورِهِ السَّحَابُ^{*} ثُمَّ اسْتَفَاضَتْ دِيَاجٌ فِي جَوَانِبِهَا
 صَبَحٌ فَكَانَ وَلَكُنْ فَجُورُهَا كَذِيفٌ^{*} ثُمَّ اسْتَضَاءَتْ فَقَالُوا الْفَجْرُ يَعْقِبُهُ^{*}
 كَانَهَا لُغَةُ فِي الْجَوَّ تَلْتَهَبُ^{*} ثُمَّ اخْتَفَتْ وَعَلَيْنَا الشَّمْسُ شَاهِدَةَ^{*}
 كَانَ الزَّمَانُ لَنَا وَالْمَلَسُ جَامِعَهُ^{*} كَانَ الزَّمَانُ لَنَا وَالْمَلَسُ جَامِعَهُ^{*}

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى طَلَابِ الْأَدَبِ الْأَجْنبِيِّ فَيَقُولُ مُؤْنِبًا

إِنْتَرَكَ الْغَرْبُ يَلْهُونَا بِزَخْرَفَهُ وَمَشْرِقُ الشَّمْسِ يَبْكِينَا وَيَتَحَبَّ^{*}
 وَعِنْدَنَا نَهَرٌ عَذْبٌ لَشَارِبِهِ فَكَيْفَ يَنْتَرِكُهُ فِي الْبَحْرِ يَنْسِرِبُ^{*}
 وَنَنْفَضُ الْكَفَّ لَا مَجْدًا وَلَا حَسْبٌ^{*} فَهَلْ نَضِيَعُ مَا أَبْقَى الزَّمَانُ لَنَا
 وَالشَّرْقُ مَنَّا وَانْ كَثَابَهُ خَرَبٌ^{*} إِنَا أَذْنَ سَبَّةَ فِي الشَّرْقِ فَاضِحةٌ

وَيَخْتَمُ الْقَصِيدَةُ بِنَسْوَةٍ فَخْرٍ فَيَقُولُ

إِذَا الْلُّغَاتُ ازْدَهَتْ يَوْمًا فَقَدْ ضَمَنَتْ لِلْعَرْبِ أَيَّ فَخَارَ بَيْنَهَا الْكَتْبُ^{*}
 وَفِي الْمَاعِنَ مَا تَضَيَّ بِرُونَقِهِ يَدُ الصَّدَاعِيِّ إِنْ لَا يَصْدَأُ الْذَّهَبُ^{*}

وَامْتَالُ هَاتِينِ الْقَصِيدَتَيْنِ كَثِيرَةٌ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ^٣ وَمَصْدُرُهُمَا كَذَكْرُنَا غَيْرُهُ

(١) دِيَوَانُهُ (١٩٣٧) ج ١ ص ٢٥٣ (٢) دِيَوَانُهُ ٤ - ٣

(٣) راجِعُهُمَا قَصِيدَةً مُحَمَّدًا إِلَيْهِ الْحَسَنِيِّ فِي الْمَوْرِدِ الصَّافِيِّ ٧ - ٦٨

للغوية نشأت على أثر اليقظة القومية في النصف الاخير من القرن الماضي ولا تزال الى الان . وتقترن بالغيرة على اللغة ما نظم في ابطال العرب الاقدمين ووفائهم احباء لسالف الجهد وانهضوا مائة اهمم . كقول الرصافي من قصيدة مقابلة بين العرب اليوم والعرب قديماً

لهفي على العرب امست من جمودهم حتى المجادات تشکو وهي في ضيحر
اين المجاجع من ينتموت الى ذؤابة الشرف الوخاح من مضر
قوم هم الشمس كانوا والورى قمر ولا كرامة لولا الشمس والقمر
راحوا وقد أعقوا من بعدهم عقباً ناموا عن الامر تفوياً الى القدر

وقد اتصلت هذه الروح بالجمعيات الادبية في المعاهد العلمية وخارجها فالتبريت بها نفوس الناشئة وأخذوا في بده القرن الحالي يتغذون بالاناشيد الحماسية . وهناك مثلاً منها نظم ١٩٠٦ في بيروت لأحدى الجمعيات العربية : -

لغة العرب اذكرينا واذكري ما فات
كيف ننساك وفيانا نفحـة الحياة

يا بني الشام ومصر وبني العراق
هل نسيتم ذكر عصر طبق الآفاق

كنتُ فيما تفضي بهجة الازمات
ف لماذا اليوم نرضي حالة الموات

ولشروع هذه الغيرة اللغوية والتاريخية واتقادها في الادب يومئذ اسباب شتى منها
- (١) اطراد الانظام السياسي بصر وظهورها بظهور دولة عربية متقدمة (٢) اطراد التقدم العلمي والصحافي في الاقطاع السوري والعراقيه (٣) ان الاتراك برغم تشديدهم النكير على طلاب الاصلاح كانوا لا يزالون يعتبرون العربية لغة الدين والثقافة الشرقية القديمة . ويعدون انفسهم من حماتها ومناصريها فلم يظهر منهم في ذلك العهد ما يرعب المتحمسين لها او يثبط عزائمهم

على ان من الانصار التاريخي ان نعيد هنا القول ان هذا العمل التخييري الذي سرى في الاوساط الادبية قبل ١٩٠٨ لم يبلغ درجة النضج ولم يصل الى نفوس السواد من الامة . فكانت العواطف العمومية لا تزال غير منتظمة . وكان الادب العربي بين هذه الروح القومية الآخذة في الاستيقاظ ، وما ألفه من الجامدة العثمانية المرتبطة بالخلافة ، حيران لا يدرى كيف يسير . فهو من جهة قومي ومن جهة عثماني- تارة يتغنى باتحاد العرب ، وطوراً يتغنى باتحاد العرش العثماني . وما زال في هذا الموقف الغريب حتى فوجئ بالدستور فذهبت حيرته ومرت عليه مدة كانت العثمانية الحرة فيها غايتها المنشودة^(١)

(١) وقد بسطنا ذلك في كلامنا على «الشلة الدستورية».

الحركات العربية

المملمة وأثرها العربي

ذكرنا انه في الثلث الاخير من القرن الماضي ظهر في سوريا والعراق صيحات ادبية تنبئ بأبناء العربية في السلطنة العثمانية ان يبيوا من رقادهم ويسعوا لاعلاء شأنهم . وقد كان لتلك الصيحات اثر يذكر في تبنيه الشعور ونفخ غبار الحمول الذي تراكم عليه قرون عديدة . على ان الامم العربية لم تكن قد وصلت في حياتها الاجتماعية والسياسية الى درجة التعاون المنظم . فلم تتجاوز تلك الصيحات حد اثاره الشعور ، بل لم يكن لها اثر بين الا في حلقات خاصة من اهل الثقافة . وظل الامر كذلك حتى أعلن دستور ١٩٠٨ فغمر البلاد العربية بوجة من الاخلاص والحماسة للوطنية العثمانية . لكن تلك الموجة لم تثبت كابسطنا في غير هذا المقام ان تراجعت وضعفت اثرها في النفوس .

وقد دللت العرب التجارب على ان القانون النظري شيء وتنفيذه شيء آخر ولعلهم ذكروا يوماً مثلي خط كاخانة الذي اصدره السلطان عبدالمجيد سنة ١٨٣٩ م الفرمانات والاهياء الصادرة بعد ذلك كفرمان ١٨٥٦ ، وفرمان ١٨٧٤ ، والمادة التاسعة من معاهدة باريس ، ودستور مدحت سنة ١٨٧٦ . وفي كلها كانت تركيا تعترف قانونياً بالتساوي بين جميع الاجناس والاديان في السلطنة . على ان ذلك التساوي لم يتم فعلياً

فاما ذهبت النشوة الدستورية الجديدة فتح العرب عيونهم فاذا هم والآراك وجهما لوجه ، واذا بينهم اختلاف مزيف يثير الشكوك ببنيات الانحاديين - وهم حماة الدستور ومنفذو احكامه . فتملّكتهم الشاوم ورأوا ان العهد الجديد لا يختلف عما سبقه ، وانه لا بد لهم من العمل . وكانوا في مطلع القرن العشرين وقد خطوا خطوات واسعة في سبيل الرقي ، وتهيأ لهم من اسباب النهضة ما لم يتتهيأ من قبل ، فأخذ السياسيون منهم ينظمون الجماعات والدعويات توصلوا الى نيل حقوقهم وصدوا للتيار التركي من الطغيان عليهم

وغير نكير ان موقف الاخاهدين من الدستور لم يكن سهلا . فهم الذين أعلنوه ،
وهم الذين كان عليهم ان يحموه ويطبقوه . فلم يكن غريباً ان يحصروا معظم السلطة
في ايديهم وان يكون جلّ تعويذتهم على العنصر التركي
وبذلك فتحوا باباً لنذير غير الاتراك . وسرعان ما احدث هذا النذير تعكيراً في
صفوف الدستوريين من ملكيين وعسكريين ، فبدرت بين العناصر المختلفة ، كما رأينا ،
بواحد سوء الظن . ولم يكن بين الشيبة المتمسكة من يتلافى الامر بالتي هي احسن ،
فكان ما كان من تلك المشادة العنصرية التي فرقت قلوب العرب عن الترك وحوّلت
انظارهم الى العصبية القومية

وطبعاً لم يكن عقلاً الطرفين راضين عن هذه الحالة التي أقلَّ ما يقال فيها إنها توهن فوى الدستوريين وتحرج من كزهم . فقام مفكِّر وهم يدعون إلى التساهل وإزالة سوء التفاهم . ومنهم الدكتور رضا توفيق^(١) . فقد صرَّح سنة ١٩١٠ لمحرِّر جريدة (بروجره دي سلانديك) بقوله -^(٢) « أنا على اتفاق تام مع الجمعية على أن البلاد في حاجة إلى حكومة قوية ، ولكنني أخالفها في استخدام القوة . وإذا كان وجودي في المجلس قد قضى عليَّ بان أحمل على طلعت بك المثل الأكبر للجمعية في الوزارة وصديقي ورفيفي منذ الساعة الأولى في جمعية الانحاد والترقي فذلك لا عقادي بان الواجب عليَّ أن أفعل ما فعلت . ولو سكت كغيري لكان ذلك خيانة لا يغفرها الوطن لي . إن الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها اذا لم نحترم الحرية السياسية والحقوق الأساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، وإذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة ينقضي احكام الدستور »

ففي كلام هذا الترکي الحرم ما يشير الى سياسة الانحداريين التي حللت العرب يومئذ على التبرم وسوء الظن

وكما كان بين مفكري الاتراك متساهلون يدعون الى الوئام كذلك كان بين مفكري العرب فقد ذكرت جريدة الاهرام ان جمهوراً من العناين في مصر اجتمعوا سنة ١٩١٠ لوداع سليمان البستاني نائب بيروت . فجعري في ذلك الاجتماع من الكلام ما يشفّ عمما كان بين العنصرين التركي والعربي من توتر في العلاقات . وها نحن ننقل بعضه بتصرف عن مجلة النبراس البيروتية -^(٣) قال رفيق بك العظم « ان العرب

(١) هو عالم تركي كبير وكان من صنف الانحاديين

(٢) ثورة العرب (المقطم ١٩٦١) ص ٥١ (٣) ميج ٢ ص ٣٣٣

مهمومة حقوقهم ولغتهم ممتهنة مضطهدة» . وهو يعزّز هذا لا إلى الأمة التركية فهي صديقة للعرب ولكن إلى بعض ذوي المناصب في الاستانة . ثم يقول متخيلاً : « فالواجب أن يفهموا أننا لا نصبر على هذا الفيم لانه يهمنا أن تخرب الدولة . إن الترك بلا العرب ترول دولتهم ، والعرب بلا الترك يوشكون ويهضمون ، فجيءة الدولة تهمنا ونهنّهم على حد سواء» .

ومن تكلموا في ذلك الاجتماع الدكتور يعقوب صرّوف فقال : « إن معتقدى كان كمعتقد أخي رفيق بك حتى قابلت اليوم العلامة البستاني ففهمت منه الحقائق ، وأنا واثق أنه لم ينقل إلى غير الحق . فإذا كان العرب قد حرموا الوظائف فلأنهم لم يسيروا في سلك التوظيف . وإن كان قد بدر من بعض كتاب الاتراك ما ألم العرب بذلك ليس رأي القابضين على أزمة الأمور « بل إن رأيهم عكس ذلك تماماً » ... إلى أن يقول .. « فالواجب أن نعاونهم بالنصيحة ونحو سوء التفاه ونساعدهم على ادماج جميع العناصر والطوابع حتى تصبح الجامعة العثمانية » .

واخذ السيد رشيد رضا يثبت أن هناك سوء تفاه بين العرب والترك لا يجوز انكاره ، على انه كان يحاول ان يحصره في فئة معينة . وبما قاله « لا نكران ان بعض ذوي الاغراض في الاستانة هم سبب هذا الشر »

أما البستاني فكان ينزع منزع السياسي العثماني الصميم . وقد شرع يبين أن هذه الماشدة مبنية على الاوهام ، وأن الدولة مفتوحة للعرب كما هي للترك . وفي كلامه - « أقول لكم عن نقا وعن يقين ان قوله ان بين رجال الحكومة من الاتراك قوماً يكرهون العرب او يضطهدونهم وهم باطل اختلقه بعض اصحاب الاغراض والمقاصد . فالاتراك عموماً ورجال الحكومة منهم خصوصاً يحبون العرب ويجلونهم ويعتمدون عليهم في تأييد الدولة . ولا يضطهدون اللغة العربية بل هم على عكس ذلك يؤيدونها »

فيؤخذ بما ورد في هذا الاجتماع الذي كان يضم نخبة من مفكري العرب ان العرب كانوا ينهمون الاتراك بهضم حقوقهم والاستبداد بالأمر دونهم واضطهاد لغتهم . وقد تناول جرجي زيدان ذلك في مجلة الملال فنشر مقالاً موضوعه العرب والترك حاول فيه الاعتذار عن الاتحاديين وحمل العرب على التوذة ومحسن الظن . وبما جاء فيه^(١) - « لا نذكر استخدام جمعية الترقى نفوذها في الانتخابات حتى جعلت الاكثرية من

حزبها ، وإنما تلقيت في اسناد الوظائف الكبرى إلى العرب . ولتكنا لا نحمل ذلك على رغبتها في الاستئثار بالسيادة دون العرب أو غيرهم ، ولكن فعلت ذلك على ما نظن رغبة في سلامه الدولة ، وصيانته للدستور الذي نالته بعد شق الانفس من ان تعبت به اليدى اذا نولاه غير اهله » ولشدة رغبة زيدان في المسألة وعطفه على القائين بأمر الدستور اخذ يلوم بعض مواطنيه على وقوفهم موقف العداء من اخواهم الاتراك فيقول - « لما اعلن الدستور وجاهر الاتراك انهم يتنازلون عن جنسيتهم وامتيازاتهم رغبة في الوفاق ما كان من العرب الا السعي في تأييد الجامعة العربية . فأفروا جمعية التآخي العربي بالاستانة وأنشأوا الصحف للدفاع عن العرب والتنديد بالاتراك والتفاخر ببعد العرب ودول العرب وعلوم العرب »

وفي كلام زيدان شيء من الحقيقة لا الحقيقة كلها ، فان الذي يراجع تاريخ هذه الحركة يرى كما بینا مراراً ان العرب لم يكونوا عند اعلان الدستور اقلَّ غيرة من الاتراك على الجامعة وان تبعه الشقاق الذي نجم بعدئذ واقعة على الطرفين ولا سيما على الاتراك . فزيدان نفسه يصرح باستثنائهم بالمناصب ولكنه يأخذ بمحن الظن وروح التفاؤل ولا ينتظر من كل واحد ان تكون له تلك الروح فيغضي عما كان يراه من استبداد جنسي

وقد عقد رشيد رضا في مجلة المدار مقالاً خافياً^(١) تناول فيه ما كان من سوء تفاهم بين العنصرين ففصل اسبابه وشرح كلياته وجزئياته ثم قال متحفظاً « لا اقول ان كل ما روی من ذلك صحيح المفهوم والسند . ولا اقول ان ما صرحت بهما كان سوء التفهيم وتعمد هضم حقوق العرب . ولكنني لا استطيع ان انكر قول من يقول انها في بمجموعها تقييد التواتر المعنوي الدال على انه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة الخادم بالترك والحادي الترك بهم »

وسواء كان الاتراك الملومين او كان العرب فالذى يهمنا هنا ان ذلك النفور العنصري يومئذ حقيقة لا مراء فيها وانه قد شغل الافكار والاقلام زمناً غير بسيط ، وقد أشار رشيد رضا اذ قال في المقال السابق الذكر « هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي (١٩٠٩) . وكانت قد نجحت قرون الخلاف ولكن لم يشعر بها الجمود فلما كثرت وكبرت تناقض الناس في سوريا ومصر وخافت في المسألة الجرائد العربية

(١) العرب والترك مجلة المدار مجل ١٢ ص ٩١٣ - ٩٣٢

حتى في أميركا ، وتبارت فيها قرائط الشعراء ، ونجاوا بـ فيها الأصوات حتى عمت البلاد والجهات . فاهتزت بذلك النعرة العربية اهتزازاً شديداً

ومن دلائل هذا الاهتزاز انه في الجلسة التي عقدتها اللجنة المركزية لجمعية الانحاد والترقي سنة ١٩١٠ قام عضو عربي منها هو عمر منصور باشا مبعوث طرابلس الغرب والقى خطاباً باللغة العربية ، وفيه يحمل على الاتراك ويعزو اليهم سبب الخلاف الناشب بينهم وبين العرب فيقول متالماً^(١) - « لماذا تتعذرون على حقوق الارمن والروم والبلغار العثمانيين . انعرفون لماذا ؟ لأنّ عند الارمن فنابل ، وللروم اليونان وللبلغار بلغاريا . اما نحن فلا يشدنا احدهم ولكن ثقوا انّ لنا الله ورسوله . اذا قال لكم مبعوث عربي ان ابناء العرب متندون منكم فلا تنعوا بهذا القول ولا تصدقوه . اقول لكم هذا على مسمع منكم جميعاً »

ولم يكن اندفاع هذا النائب الجريء في عاصمة الاتراك ومركز قوتهم الا لما كان يراه او يسمعه من اقوال غلامتهم حطاً من كرامة العربية وابنائها . وبكفي ان نذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب « قوم جديد » لكاتب تركي اسمه عبيد الله . فقد ذهب في الغلو كل مذهب حتى طلب من الاتراك ان يتزعوا اسماء كبار العرب من الصحابة والتابعين عن قباب المساجد ويضعوا محلها اسماء عظام الترك^(٢)

ومن اقوال غلامتهم قول احدهم^(٣) - « ما هي العثمانية ؟ وماذا لا نقول التركية . إن الحقيقة تغلب الخيال ، ومن الحال العقلي ان تظل هذه الشعوب المتباينة مرتبطة بعضها ببعض وراء ستار وهمي . وتحت اسم بال خلق . يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نعمد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرع والقوانين وكل شيء فنصبغيه بالصبغة التركية المضمة »

وقد طلب احمد جودت محترم جريدة إقدام ان تتحقق اللغة التركية من الكلمات العربية . وعلى وتره ووتر اضرابه من الغلة كان يضرب جماحة من أولى الامر ومشيري شعور الجمهور وقد تغلبت اصواتهم على اصوات المعتدلين ، وهذا ما دفع العرب الى مقابلتهم بالمثل والكيل لهم بنفس المكيال .

والظاهر ان العرب أحسوا بهذا التذكر منذ أوائل العهد الدستوري فعدوا الى

(١) جريدة البرق (بيروت) سنة ٣ عدد ١٢٢ (٢) القضية العربية (الاعظمي) ١ - ١٠١

(٣) القضية العربية ١ - ٩٥

توحد دفاعهم بتأليف الجماعات السياسية وهناك اهتمام^(١) - في المنتدى العربي سنة ١٩٠٩ - أنس في الاستانة على أن يكون مثابة للشأن العربي في تلك العاصمة

جمعية الفتاة (الاستانة) - وهي للعرب بمثابة الاتحاد والترقي للترك الجماعة القحطانية ١٩٠٩ (مصر) - جمعية مصرية غايتها بث المبادئ الصحيحة بين أبناء الأمة العربية وتوحد صفوفها الجامعة العربية ١٩١٠ (مصر) غايتها السعي لاتحاد حلفي بين أمراء الجزيرة العربية ثم التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإنشاء صلة بين الجماعات العربية في سوريا والعراق وغيرهما

حزب الامر كزية ١٩١٢ (مصر) غايتها تبيان محننات الادارة الامركزرية في السلطنة العثمانية

الجمعية الاصلاحية ١٩١٢ (بيروت) وهي اشبه بفرع من حزب الامر كزية وينحصر عملها في تنفيذ الاصلاح الامر كزري في ولاية بيروت جمعية العهد ١٩١٣ (الاستانة) وهي تضم نخبة من ضباط العرب في الجيش وغايتها السعي لاستقلال الداخلي لبلاد العرب ، على أن تظل "متحددة" مع حكومة الاستانة اتحاد مجرم مع النسا (قبل الحرب)

على أن اول جمعية عربية نشأت في ذلك العهد هي جمعية الاخاء العربي . تأسست في الاستانة سنة ١٩٠٨ . ومن غايتها جمع كلة الملل العثمانية المختلفة والسعى لاعلاء شأن الأمة العربية وصيانت حقوق أبناء العرب وتأييد الحرية والعدل والمساواة بين عناصر الأمة العثمانية وإزالة الفسقان وسوء التفاهم من بينهم ، الخ الخ وكان التجانس مفهوداً بين أعضائها فلم تعش طويلاً .

* ولا ننسى في هذا المقام المؤتمر العربي العام الذي عُقد في باريس (١٩١٣) وضم وفوداً من أكثر الأقطار والمهاجر العربية . وكانت غايتها مصارحة الدولة العثمانية بتطبيق نظام الامر كزية في بلاد العرب مع المحافظة على الرابطة العثمانية

(١) تأسيساً من كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ ص ٢٦٩ - فصلية فلسطين

فالجو العربي الادبي كان في ذلك العهد مثبعاً بالاماني والحركات القومية وملائماً كل الملايين لانتشار الدعايات خد حكومة الاستانة . وقد كانت تلك الدعايات تنبئ عن مصادر مختلطي الغرض هما - (١) الجماعات العربية (٢) الایادي الاستعمارية . فالاولى لم تكن غايتها على ما يستدل من نظمها وتصريحات رجالها الا خدمة القضية العربية باعتبارها مسألة من مسائل السلطة العثمانية الداخلية . وذلك ما يعنيه رشيد رضا بقوله عن النهضة العربية وتوجهها الى الاصلاح الديني والاجتماعي والمدني (١) - « وهي جديرة بذلك بدليل اتفاقها في سوريا والعراق والجزرية على بناء هذا الاصلاح على اساس الامر كزية الادارية اذ بذلك تحفظ حقوق الدولة العثمانية ويتمكن الارتباط بها ، وبه يعطى كل قطر حقه بحسب استعداده ومذاهب اهله » بل ذلك ما كان يعنيه اولو الامر في كل جمعية سياسية

اما الثانية (الایادي الاستعمارية) فلها غرض آخر - كانت ترمي الى تفكير عرى الدولة العثمانية وفصل الاقطاع العربي لاغراض استعمارية . ولا نشك انها سعت في تنشيط الجماعات وحمايتها اذ رأت فيها او في بعضها ما قد يصلها الى هدفها المنشود ولا نستطيع ان نثبت هنا المدى الذي بلغته علاقات اوربا بالجماعات العربية ، بل لا ندري هل حصل قبل الحرب الكبرى تفاهم بين الاستعمار ودعاة القومية . فانت هؤلاء كانوا متسلقين بصلاتهم العثمانية يتمنون الوقوع في أحابيل الاستعمار . على اتنا ندري ان اوروبا كانت تبدأ بآحريمة المنس الى طلب الاصلاح ، وان النفسية العربية كانت في العهد الدستوري (ما بين ١٩٠٩ - ١٩١٤) ظاهرة الاضطراب بدليل ما نراه من نفتاتها الشعرية المعبرة عن خواجها والمطالبة بتحقيق أمانها . ومن أمثلة ذلك قصيدة للشيخ سليمان التاجي الفاروقى (فلسطين) تزيد على السبعين بيتاً يخاطب فيها السلطان ويلتمس منه النظر في حقوق العرب . وهكذا بعضاً منها - :

العرب لا شقيت في عهدك العرب
هم الجبال فما حلتهم حملوا
لكن اذا سمعتم ضيم النفوس أبوا
ومنها مشيرا الى خيبة آمال العرب
كنا نعلل بالدستور انفسنا
بفارق الصبر ذاك اليوم نرقب

وأشد من أقواله وأعنف نفثات عبد الحميد الرافعي (طرابلس) وقد كان قبل الدستور من مرادي أبي المدى الصبادى شيخ السلطان عبد الحميد، فلما حدث الانقلاب وحدثت على أثره تلك المشادة العنصرية قار تأثره على الاخاهديين ، فنظم عدة قصائد تاريخية مظہرآ فيها فسادهم ومهماً بالعرب الى النهوض والتقدم ومنها قصيدة مطلعها

ما تصلح الدنيا ولا ناسها ما لم يلِ الأقوام أجناسها
ومنها : دارك "امير العرب جريمة" للعرب قد ادر كها ياسها
تجاوز الترك على حقها والترك قوم ضاع إحساسها
ومنها : هبوا بني العرب إلام الكرى طلبم' الاصلاح من عصبة
فكم تقييمون على ذلةِ السُّم' نسلَ القروم الآلي فجرّدوا العزم الذي طلما
تروّر بالاً فساد اقواسها وروحة الصبر ذوى آسها
تنتعل اهامات افراسها شقّ صدور أطوال وسواسها

(١) ماتشناه للفاروق في أغلاه هو من بعض ما نكرم بارساله اليها المرحوم ابراهيم طوقان

الاديب الفلسطيني المعروف (٢) راجحها في ذكرى يوم بيته ص ٨٨١

وبحري في ذلك ثم يقول مشيراً إلى الدولة العثمانية وعراطف المسلمين قبلًا نحوها:-
 كتنا نرى طاعتها عصر ما كانت تلي الأحكام أقداساً
 أما اليوم فقد تغيرت الحال عنده وما هي نقف من العرب موقف العداء ومن
 الدين ولغة القرآن موقف الرياء -

نحسب ان العرب اعداؤها وهم مدى الايام حرّاسها
 عون على السلم وان حاربتْ فهم مواضيعها واتراها
 ترعم حب الدين لكن كا يروج السلعة دلائهما
 لو تألف القرآن ما حاربت لسانه حتى التوى فاسها

وهكذا ينعي بالملدع الالم على اولي السلطة من الانحاديين بفتحتهم بالكفر
 والتخت والسفالة والظلم ، ويطلب من العرب الانحداد والتضامن دفعاً لعادية هؤلاء
 القوم المارقين الذين لشدة ظالمهم دفعوا البلاد الى هوة الخراب

من عظم ما جارت بالخائنا أخني على الامة إفلاتها
 ما همها في دور حكامها الا بأت غلاً اسكنها
 فلتتحدد فعلاً عسى همة هناج بالتوحيد اقباسها
 وتنعش الانفس من امة تلهيت بالذل أنفاسها

وقف على هذه القصيدة كثيراً من اقواله

وقد أشرنا سابقاً إلى ما أثار الحفاظ من اقوال جزيرتي طنين واقدام وما حاوله
 بعض كتاب الاتراك الاغرار من الواقعية بالعرب والخط من لغتهم . وكيف حرك
 ذلك الشعر العربي فزخرت لجهة وتلاطم امواجه حتى كنت تراه في العراق كما تراه في
 سوريا والمهاجر ثاراً بالنحوة القومية مزيداً بالغيرة الجنسية . ومن هذا الشعر القومي
 التأثر قصيدة ليوسف حيدر البعلبكي يذكر فيها امجاد العرب ثم يقول مشيراً إلى
 جزيرية اقدام التركية^(١)

فقل جهول راح يلتم عرضهم ولم يدرك ان الويل من جهفهم طر^ا
 خلافكم كانت بقایا فخارهم ونلت هدى الایان من فضلهم طر^ا
 فلا حرب ذي قار صلتها سيفكم ولا صنتم عن فارس عرضكم قبر^ا
 فدع عنك يا هذا مباراة عشر اذا ذكرت فالكون بذلك بهم بشرا

(١) راجع القصيدة في النضبة العربية للاعظمي ١ - ١٠٦

ومن هنا يأخذ بوصف العرب وشرف نفوسهم ونحوتهم الجاهلية ويختتم ذلك بقوله : -
 مناقب في صدر التوارييخ أثبّت مني نشرت فاحت بذكريم نشرا
 لقد أقسموا أن لا يقرّوا على أذى وقد خاب يوماً من على الذل قد قرّا
 ويصل هذا الوصف بذكر الآراك وسوء سياستهم فيقول : -
 يريدون منا ان قوت نفوسنا ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
 يريدون منا أن تطيش حلومنا وان تخفض الاصوات في مجلس الشورى
 ثم يلتفت الى قومه مستفزّاً حاستهم : -

البكم بني الاعراب أرفع قضيّي لأبلغ فيها من لدن قومنا عدرا
 لعلي أرى من عزمكم ما يسرني ومن جدهم ما تعظمون به فدرا
 عليكم سلام الله ما دام عرضكم مصوناً لديكم لا يُباع ولا يُشرى

* * *

ويختاره في هذه العصبية والدفاع عن الامة العربية عبد الحميد الرافعي فيقول في
 قصيدة نظمت ردّاً على تنديد الاتحاديين باللغة العربية^(١) ومطلعها : -

شَفَّ بذكر مفاخر العربات سمعي وأنعش خاطري وجئاني
 فحديث آباء الفتى يُنشي به عزماً لنفع الروح في الجنانِ
 ولرب آثار لهم تذكارها يهب الضمائر قوة الإيمانِ
 تتفاخر الأجيال في أخبارهم والشمس لا تحتاج للبرهانِ
 أهل الشجاعة والبراعة والوفا والصدق والإيثار والاحسانِ
 جعلوا الملائكة تحت ظل سيفهم متطللين ذواشب المرانِ
 وعلى هذا النطّ يستمر في مدح العرب وذكر مفاخرهم ، ثم يتناول لغتهم ويبين
 فضلها ورفيع شأنها كقوله : -

لغة بفضل جمالها وجلاها شهدت شواهد حكم الفرقانِ
 لغة اذا ادركت سحر بيامها ادركت معنى السحر في الاجفانِ
 وبعد ان يصفها في عدة ابيات يلتفت الى مناوئتها فيقول : -
 قل للآلى جهلوها مكانتها وقد كادوا لها في السر والاعلانِ

(١) ذكرى بوويل الرافعي ص ١٨٠

عاديتمو ما تجهلون ولم يتع قدر الورود كراهة الجعلان
والله يابي ان تهات فبشروا من رام ذاتها بكل هوان
اما ابناءها الذين انصرفا عنها الى اللغات الاجنبية فيعاتبهم بقوله : -

كل اللغات لديك باللغة المدى
ظلموك أهلك بالجفاء فأصبحوا
والكل يمشي مشية السرطان
لم يحفظوا لك ذمة وتعلّقوا
يهوى السوى ورموك بالهجران
لكنهم غروا بغيرك حقّة
من دهرهم والدهر ذو ألوان
حتى اذا انكشف الغطاء وأيقظت
مقل الرجال حوادث الازمان
نهضوا وكل يستعيد بربه بما انتشى ويسكب بنت احان

ومثل ما نقدم قصيدة لامين ناصر الدين (لبنان) نظمها سنة ١٩١٠ وفيها يقول^(١) : -

أنسيت قدر العرب يا إقدام وهم على هام النجوم مقام
أجهل ما فالوه من شرف به يسمى الزمات وتغفر الأيام
لولام لم تخبر فوق مهارق يوماً بذكر مفاحير أفلام

وبعد ان يعدد مناقبهم ومفاحيرهم التاريخية يقول : -

ان أسرف الحساد تنديداً بنا فلطالما ذم الكرام لثام
خن الآلى بنت النبوة بيننا ذاك البناء فازهر الاسلام
خن الآلى بلسانهم قد أنزلت آى الكتاب وذلك الاغام
ثم يلتفت الى الجريدة التركية مؤنباً ومعانباً : -

أرسلت يا إقدام سهم وقيعة لكن أعيده اليك وهو سهام
أكذا يقوم بخدمة الاوطان ذو فلم ويطلب الرفي همام
أيظن أنا نرتقي الا إذا ضم العناصر ألفة وونام

ويظهر هذا التفاخر الجنسي في قصيدة « الواح الحقائق » محمد حبيب العبيدي
الموصلي سنة ١٩١٣ وفيها يقول^(٢) : -

(١) ديوان صدى الخاطر (١٩١٣) ٩٣

(٢) راجعها في الادب العربي في العراق (لبطي) ٤ - ٥٢ وقد مر ذكرها في فصل سابق

يا بني الفداء إن للضاد حقاً
ناظحت دوت حقه الآباء
ان رضينا غير الكراهة ورداً
غضّ منا بشاربيه الماء
ليت شعري ما ينقم القوم منا
أم على ابصار هناك غشاء
يشهد الله انَّ أول بيتٍ
العلى فينا شاده البناء
خيره الله نحن في الخلق بما
ولدت من أنسالها حواء
نحن شيءٌ وغيرنا بعض شيءٍ
أو نائم أو حاسدٌ متأنٍ
أفا يذكر الحقيقة غرّ
نحن في الحي مهبط الوحي قدماً
والينَا المصير والانتهاءُ

ولو أردنا ان نذكر كل ما قيل في هذا الباب لخافت به الصفحات الكثيرة . فقد كانت الاقطار العربية جبعاً تلهج به ، بل قد ردّ صداح الناطقون بالضاد في كل صقع من اصقاع المعمور . فمن الهند يبعث عبد الحق الاعظمي البغدادي سنة ١٩١٣ رسالة الى المنار يقول فيها^(١) « ان لديه علاجاً لاصلاح حال المسلمين واصلاح البشر اجمعين . وهو وصفة مؤلفة من جزئين او لها تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل دون سواها ». واما الجزء الثاني فهو تعزيز العنصر العربي « الذي اعزَ الله به الاسلام ورفع مقامه فوق كل مقام » . قال — « فاذا غالب الاجانب العرب على امرهم وانشروا براثتهم في احساء بلادهم فلا عاصم للامة بعد ذلك من امر الله ولا ملجاً ولا منجاً لها من نواب الدهر وغواهله ». الى ان يقول ... « نعم ان العنصر العربي جار عليه الظالمون ونهك قواه العادون ومنطق وحدته الماركون . لكنه مع كل ذلك لا يزال أصلح العناصر الاسلامية للقيام بامر الاسلام واعادة مجده الانام »

وهو يدعو المسلمين الى تهيئة اسباب الوثوب للعرب لينهضوا ويتحدون ويقودوا المسلمين اجمعين كما قادهم أسلافهم الاولون . فان البذل لمساعدة العرب على احياء مجدهم هو عين البذل لاعادة مجده الاسلام الذي ما تأسس بناؤه من قبل الا بابدي العرب ونفوس العرب وأرواح العرب وقلوب العرب »

ومن المهاجر الاميركية المسيحية تسمع ما لا يقل عن ذلك حماسة في الدفاع عن

العرب وأمجادهم . يقول رشيد أبوب (الولايات المتحدة) من قصيدة يعارض فيها القصيدة الناقصة التركية (١)

فحن بنو الاعراب كنا ولم نزل بـا خصـنا المولى ن فوق الاجانب
وبعد ان يذكر فضل النبي والصحابة وقوـاد الفتوح الاولى يقول مفاحراً
الـسـنـاـ الـأـلـيـ سـادـواـ العـبـادـ وـدـوـخـواـ الـبـلـادـ وـأـبـدـواـ فيـ الـحـرـوبـ عـجـائـبـاـ
وـفـضـرـعـ اـدـرـاـكـهـمـ كـلـ لـاحـقـ غـدـاءـ اـمـتـطـوـاـ ظـهـرـ الـعـلـىـ وـالـلـذـاـكـبـاـ
فـكـمـ دـوـلـةـ سـدـنـاـ وـشـدـنـاـ بـهـمـةـ اـحـدـ مـنـ الـبـيـضـ الرـفـاقـ مـضـاـوـبـاـ
وـتـعـاـظـمـ حـبـتـهـ الـقـوـمـيـةـ حـتـىـ تـبـلـغـ بـهـ إـلـىـ قـوـلـهـ -
ـكـذـاكـ بـنـيـنـاـ لـلـعـلـمـ مـعـاهـدـاـ وـشـدـنـاـ لـاـهـلـ الـأـرـضـ فـيـهاـ مـكـاتـبـاـ
ـفـمـاـ رـوـتـ الـأـيـامـ مـنـ عـهـدـ آـدـمـ إـلـىـ الـيـوـمـ عـنـ شـعـبـ يـفـوقـ الـأـعـارـبـاـ
ـفـيـاـ وـطـنـيـ لـاـ زـلـتـ اـوـلـ بـقـعـةـ مـنـ الـأـرـضـ أـبـدـتـ لـلـبـرـابـاـ عـجـائـبـاـ
ـطـوـبـتـ مـنـ الـآـثـارـ مـاـ لـوـ نـشـرـتـهـ لـفـاقـتـ بـهـ الـدـنـيـاـ حـجـجـيـ وـمـوـاهـبـاـ
ـوـإـذـ اـنـقـلـنـاـ إـلـىـ أـمـيرـكـاـ الـجـنـوـبـيـةـ نـرـىـ النـخـوـةـ الـعـصـبـيـةـ فـيـ مـهـاجـرـيـاـ أـبـرـزـ وـأـشـدـ اـنـقـادـاـ.
ـوـلـاـ بـعـدـ عـنـ الـحـقـيـقـةـ إـذـ قـلـنـاـ إـنـ التـحـمـسـ الـجـنـسـيـ هـوـ صـفـةـ أـكـثـرـ أـدـبـاـ.
ـوـلـوـ لـمـ يـقـيـدـ الـقـامـ لـأـتـبـنـاـ أـمـثـلـةـ عـدـيـدـةـ مـنـ نـفـاثـتـهـ،ـ عـلـىـ أـنـنـاـ جـبـرـىـ،ـ بـنـاذـجـ لـبعـضـهـمـ -ـ فـنـ ذـلـكـ قـوـلـهـ
ـ«ـأـبـيـ الـفـضـلـ الـوـلـيدـ»ـ (٢)

ـوـلـمـ رـأـيـتـ النـاسـ يـبـنـونـ بـجـدـهـ بـكـيـتـ عـلـىـ آـنـارـنـاـ الـعـرـبـيـةـ
ـغـاـ زـهـرـهـ فـيـ روـضـهـ مـتـجـدـداـ وـقـدـ يـبـسـتـ أـزـهـارـنـاـ بـعـدـ نـسـرـةـ
ـلـئـنـ كـانـ فـيـ الـحـرـيـةـ الـخـلـوـةـ الـرـدـيـ فـيـ حـبـذـاـ مـوـقـيـ لـتـحـرـيـرـ أـمـيـ
ـبـنـيـ أـمـ هـلـ مـنـ نـهـضـةـ عـرـبـيـةـ لـصـحـانـتـاـ يـبـرـزـ دـكـنـ الـبـرـيـةـ

ـوـقـوـلـهـ مـنـ قـصـيـدـةـ مـذـكـرـاـ الـعـرـبـ بـاضـيـ أـمـجـادـهـ (٣)

ـسـلـامـ عـلـىـ الـعـرـبـ الـخـالـدـينـ سـلـامـ الـعـلـىـ وـسـلـامـ الـكـرـمـ
ـوـاـنـيـ لـأـفـرـأـ تـارـيـخـهـ وـقـدـ كـتـبـهـ بـجـبـرـ وـدـمـ
ـفـيـنـ الـسـطـورـ خـيـاءـ الـمـدـيـ وـبـيـنـ الـجـفـونـ دـمـوعـ النـدـمـ

(١) ديوانه الايبويات ١٩٦٣ (٢) ديوانه اغاريد في هواصف (الطبعة الرابعة) ١٥

(٣) ديوانه الانفاس الملتقطة (المطبعة الثانية) ١٠٢ ولهذا الشاعر دواوين أخرى وكلها تذهب بالغيرة والمعصبية

بني أم هل من هيام بتلك الشيم
وهل من رجوع الى عزنا فين عظام العظام عظم
لقد فقد العرب اخلاقهم فسادت زماناً جموع العجم
فقل يا أخي العربي اذا مثبتَ معي قدمًا لقدم
أحب بلادي واصبو الى رمال القفار وتلنج القمم

والشاعر القروي قصائد رائعة في هذا الباب ولا سيما في «اعاصيره» وسنعود اليها بعد . وكذلك سنذكر من آثار زملائه الجنوبيين ما يرسم لنا رسمًا جليًا روح الأدب القومي في تلك الاصقاع

ومن الانصاف ان نقول ان الشعر العربي القومي لم يكن كله في ذلك العهد دفاعا عن محارم العرب ورداً لسياسي أدائهم في الدولة. بل منه ما نشأ عن طبيعة الحال فكانت غايته اصلاحية لا سياسية - الاعتبار بالماضي والحاضر ، وتوجيه النظر الى أسباب الرقي الصحيح كقصيدة انشدت سنة ١٩١٠ في احدى حفلات ومطلعها^(١) -
كفتوا البكاء على الطلول المحمد ليس القضاء على البلاد بعنتدي
وهي ترمي الى إيقاظ العرب للجري في سبيل التقدم الاجتماعي والقومي فتحضهم
أولاً على توحيد الكلمة تحت راية اللغة : -

- أبني العراق ومصر إنا امة قعدت بها الأيام أسوأ مقد
إن فرق الآيان بين جوعنا فلساننا العربي خير موحد
قربت به الافتخار وهي بعيدة وتوحدت من بعده في اليد
ومن هنا تجري القصيدة في وصف هذا التقارب الادبي ثم تتطرق الى النظر في
الدين وانه اختبار شخصي لا علاقة له باجامعة القومية المنشودة

ـ دعني وشأني والذي أنا عابد وكما بشاءات قلبك فاعبد
إني أخوك وان يكن إيمانا في البعد ما بين الثرى والفرقد
ومنها مخاطبة للطائفة الكبرى في البلاد
قد كنتم اهل البلاد وانتا كنا كذلك في الزمان الأبعد

(١) راجحها في مجلة الكلبة (بيروت) مج ١ ص ١٥٦

كتم وكنا والبلاد بلادكم وببلادنا فعلام لم نتوحد
وإلام يقتلنا التعصب عن عمى ويتبه علينا الجهل تيه السيد
وإذا كان لا بد لرقي الشرق العربي من اتحاد لغوي لا ديني فانما يتوصل الى ذلك
بترقية الشعور القومي وتربية النشء على محبة بلادهم وتقدير رابطهم الوطنية
ربوا البنين على احترام بلادهم فهم المرجع للحوادث في الغد
قولوا لهم إن البلاد جميلة شهد لها الاعداء أم لم تشهد
ختام نصر في عيون نفوسنا والام نسعى كالسوام الشرد
اذا فعلنا فيه والا فباطل دستورنا وباطلة مساعدنا نحو العلي
ان تفعلا فلقد يتم صلاحنا او لا فما دستورنا بالسعادة
المجد للفعال في هذا الوري والارض ملك الفارس المستارد
ومثلها قصيدة للرصافي نظمها في الاستانة سنة ١٩١٠ وموضوعها « الى الامة
العربية » . سداها وتحتها اسف على بحد العرب الغابر وحصن لهم على نفس المخول
والجري في سن الحضارة والتقدم . والشاعر فيها وان يكن كما قال « الى اليأس
احياناً أكاد أميل » ، لا يتكلك ان يختتمها متجمساً^(١) : -

السم من القوم الأولى كان عليهم له كل جهل في الانام قتيل
له همة ليس الظباء تقلها وان كان منها في الظباء فلول
الا نوبة علمية عربية فتنعش ارواح لنا وعقلون
ويشجع رعديد ويعتز صاغر وينشط للسعى الخيث كصول

ولو دققنا النظر في روح الشعر العربي في العهد الدستوري لوجدنا انه مع شدة
نحسه للعصبية العربية، ومجاورةه بأنجاح العرب الاقدمين كان لا يزال عطوفاً على الجامعية
العثمانية ، نفوراً من صلف المستعمرات الاوروبية واطماعهم . بذلك على ذلك انه كان
في اول الامر ينصر اخطة الامر كزية التي كان ينشدها الاصلاحيون اعتقاداً منه انها
ترمي الى تعزيز العرب ضمن السلطنة العثمانية . فلما اشيع بواسطة الدعايات التركية ان
للحركة الاصلاحية ولاسيما المؤتمر العربي في باريس علاقة بالاستعمار، وانها لذلك صدح

للجامعة العثمانية^(١) ، وأينا الشعر يقف موقف المرتاب . بل رأينا بعض المتخمين يتراجون على الاعقاب - كم معروف الرصافي فإنه نظم بضع قصائد في ذلك . ومنها قصيدة موضوعها « ما هكذا » يحمل فيها على الاصلاحين فيقول^(٢) : -

لما امتطوا غارب الافراط من كوبا
أصبحت أوسعهم لوماً وتربياً
راموا الصلاح وقد جاءوا بالثمة
خرقاء ترك شمل الشعب مشعوباً
لو كان في غير باريز تأليهم ما كنت أحبهم قواماً منا كيما

فاجتمعهم في باريس كان عنده مذكرة الى الاستعمار او توطئة له . وهو لذلك ينطير منه قوله : -

هل يأمن القوم ان يحتل ساحتهم جيش يدك من الشام الاهاضيا
يا آيها القوم لا يغوركم نفر ضجوا بباريز افساداً وتشغيلها
فسوف يقرع كل سنه ندماً ويسيل الدمع في اخددين مسكونا

ولم يسكن الاصلاحيون عن حملات الرصافي فردو عليه ردةً عنيفاً وأجاهيم بالمثل .
بل بلغ به الحال ان نظم فيهم قصيدة « ليلة نابغة » فملأها بما يجب ان يتذكره الشعر
عنه من هجو وتشنج^(٣)

* * *

وقد اتهم الرصافي يومئذ بعشائعة الاتراك تزلفاً ، او انه قد اخذ بالدعایات التركية
فكان في حكمه متسرعاً . والذى يلوح لنا ان هذا الشاعر العربي لم يكن الوحيد في
حضره من الحركة الاصلاحية وغيرته على الجامعة العثمانية . فقد ظهر في اخاء مختلفة
من البلاد العربية ما يشير الى حذر المخلصين وخشيتم من امتداد ايدي الاستعمار
وتصدير جامعة الوطنية العثمانية

ومن ذلك هذه القصيدة التي أنشدت في بيروت ١٩١٣ وموضوعها « حدث خطير »
وهاك بعض اياتها^(٤)

(١) راجع وصف هذه الدعایات في المزار ١٦ ص ٦٣٦ و ٦٣٥ (٢) ديوانه ٣٨١

(٣) ديوانه ٣٨٥ (٤) المورد الصافي مجل ٦ ص ٣٦

حلك السياسة حولنا منكائف تقدى العيون به فليس بصير في المشرق الاذى لظى متظاير وسعير نار بالوبال نذير علقت بأطراف الشام شرارة منه فجاشت أنفس وصدور وبعد وصف الحالة السياسية عموماً وحال البلاد السورية خصوصاً يقول الشاعر للاصالحين

أحبتم الاصلاح امراً هيناً يكفيكم منه حماً وقشور فصر احكم عبث اذن وضجيجهم ووعود اوربا لكم تغريب ما مثل عاصمة العواصم ملجاً كلاً وخير الابحر البوسفور

وكانه يعتذر عن هذه الحركة ويحاول تفسير أسبابها فيقول : -

عرش الخلافة ما البلاد بثورة منها علا فوق الطروس صرير ما زال يجمع اهلها تحت المظللة بظلّك التوحيد والتكبير

واما السبب الحقيقي في طلب الاصلاح ان الدستور لم يطبق كما يجب وان الحكم لا يحكمون طبقاً للارادة السنوية . فكانت النتيجة تشويش الاحكام وفقد الامن واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية : -

إن يشكوا ألمًا فليس لنقيمة في النفس حرّ كها هوّي وغرور او يرفعوا صوتًا فلـ حكامهم هل يحكمون كما قضى الدستور

ومثل ذلك قصيدة لشيلي الملاط انشدها سنة ١٩١٣ بصرى في حفلة تكريم خليل مطران . وفيها يذكر حرب البلقان وما طرأ على الدولة العثمانية من طوارىء . ثم يشير الى ما كان قد أشيع عن شماتة بعض العناصر العثمانية باضطراب الدولة وضعفها فيقول دفعاً لتلك الشوائب وتبلياناً لما قفهم من العرش العثماني : -

أنخطا الألى نسبوا البعض عناصر منها شعور شماتة وتحامي فلنحن نعلم انت عرش محمد خير لنا من سائر الاحكام بل نحن نفهم انه بُرّ بنا من كل مخنكم من الانام

والشاهد في هذه الآيات وما تقدمها ان الشعر كان لا يزال يرى في العرش العثماني موئلاً للشريين وان الاصلاح لا يعني الانفصال عنه والاتجاه الى امم الغرب . على ان ذلك لم يقف دون انتشار الدعوة القومية العربية والمطالبة بحقوقها في السلطنة . وقد أعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وتلك هي العواطف السائدة في البلدان العربية . وقد علمنا في فصل سابق كيف رُتّبت تركيا في أوارها وكيف عمّ الاقطاع السوري والعراقية الارهاب العسكري فصمت فيها كل لسان حر وخابت كل نزعه قومية

ثورة العرب

ساعدهم تأسين ملك عربي



حدث في أثناء الحرب الكبرى حادثان كبيران كان لهما اثر عميق في نفسية العرب وبالتالي في شعرهم ، هما اعدام الشهداء ، والثورة الحجازية . ولستنا في مقام البحث عن الاسباب التي أدت الى كلها وانا نحن نؤرخ الواقع وأثره في ادبنا العربي الحديث ومن المعلوم ان الدولة العثمانية لم تكن قبل الحرب عباءً عن الحركات القومية العربية فأخذت تبث عيونها في كل ناحية لتلم بكل شيء من امرها . ولم تكن في اول الامر تظهر القسوة والشدة كما يستدل من مفاوضاتها لزعماء الحركة الاصلاحية الذين اجتمعوا في باريس برئاسة عبد الحميد الزهراوي^(١) . على انها كظمت ما في نفسها خوفاً من تدخل الاجانب وجعلت تتجنن الفرصة الساخنة

فاما اشتعلت نيران الحرب العامة والغيت الامتيازات الاجنبية اسرعت الدولة الى تفتيش القنصليات المعادية فوقع في يديها بعض الوثائق السرية وبها تكمنت ان تكشف كثيراً من اسرار الجماعات العربية^(٢) وحينئذ شرت عن ساعد الجد فقبضت على جماعة من الزعماء ، وتلقي بعضهم من الفرار الى اوربا ومصر وأحييت الاوراق الى الديوان الحربي فحكم على نخبة من اعيان الوطنين بالموت شنقاً . وقدنفذ الحكم في ٦ ايار (مايو) سنة ١٩١٥ في دمشق وبيروت . وحكم بالاعدام غيابياً على نحو ستين من الوجاهاء ، فضلاً عن عقوبة بالنفي او بالسجن^(٣)

(١) راجع صورة الاتفاق بين الطرفين في النار ١٦ - ٣٣٩ (٢) راجع تفصيل ذلك في كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ - ٦٦ (٣) راجع ابناء الشهداء والمحكوم عليهم غيابياً في كتاب ايضاحات الذي اصدره جمال باشا وكتاب الثورة العربية الجزء الاول

ومن الصعب الآن ان يصف كاتب ما خالج قلوب السكان يومئذ من الفزع والنقطة .
وها نحن نعيد ذكرى تلك الأيام المؤلمة فيعود إلى نفوسنا ما كنا نشعر به من الضغط
والرعبه - شعور مخيف كان يخيم على البلاد حتى لم يكن أحد يجرؤ على التكلم او
البحث في الشؤون السياسية او اظهار الاسف على شهداء العربية
على ان ذلك الضغط التركي الريء لم يخل من فائدة اجتماعية فقد كان من اسباب
التقارب بين الطوائف ، وذلك لارتباطهم بشعور عام انهم عنصر مظلوم . وأثر ذلك
بين في الشعر العربي لذلك العهد

والي ذلك الضغط وذلك الشعور الالم بالظلم يرجع السبب في توسيع شقة الخلاف
بين العنصرين التركي والعربي ، وبالتالي الى تسميل مهمة الخلفاء في سوريا والعراق ، ثم
الترحيب بهم يوم تمكنوا من الفوز على تركيا وفصل الاقطاع العربية عنها . وما
يعكس لنا هذه الحال قصيدة لرضا الشيباني نظمها على اثر طرد الاتراك من العراق
وهي تحمل لنا أسفه بل اسف العثمانيين في العراق لسوء السياسة التركية التي أدت
إلى التفرقة بين عنصري الدولة الكبيرتين . وفيها يقول^(١) :

يا من يعز علينا ان نؤتكم في حيث لا يتفق التأنيب والعدل
جفونينا وقلم نحن ساستكم مني مطبئها الاخفاق والفشل
تابى الحوادث الا ان غلركم ولا ودين النائي ما بنا ملل
اما صفحنا عن الماضي لأعينكم أما أدبت لكم أيامنا الاول
ومنها مثيراً الى حكومة الاتحاديين وسوء إدارتهم :-

قيضتم لحافظ الملك طائفة لغيرها الملك والاجناد والدول
فوم من العرب وخز النحل حظئهم وحظي قوم سوانا الاري والعل
عند المقام ننسونا ويفدحنا من المغامر نقل ليس يتحمل
اين الرهين بأموالنا ذهبت ومن بقيه باخواننا انا قتلاوا
اما شهيد معلم فوق شاهقة او موته بحبال الاسر معتقل
فالشاعر هنا بعيد ذكريات الحرب وما قبلها ويعزو الى الاتحاديين ما أصاب البلاد
من شقاء وما نجم من خلاف أدى الى إيهان قواها ووقعها في يد الاعداء

* * *

(١) راجع كتاب «العراق في دورى الاحتلال والانتداب» للحسيني ص ٥٥ وديوان الشيباني ٢٧

ومن البديهي ان الشعر العربي في الاقطار العثمانية لم يستطع اثناء الحرب ان يبكي الشهداء كما كان يود . فلما وضعت الحرب اوزارها وخرجت سوريا والعراق والخجاز من المنطقة العثمانية عاد الشعراء الى ذكريات شهادتهم وصاروا يعددون مآثرهم . وقد رفعهم الشعر الى مصاف الابطال فافتقدوا في تمجيدهم وتقديرهم أهدافهم ، كما فعل الزهاوي في قصيدة « النائحة » وهي تقارب المائة والستين بيتاً . ولا ينطوي اذا سمعناها « معلقة الشهداء » . ففيها يصف المشانق وقبور القتلى وأهلهم ، ويذكر أسماء الشهداء واحداً واحداً باكياً شابهم طالباً الثار لهم . ثم يذكر ما أصاب الناس من نفي وتشتت . ويعقب بذكر التورة ودخول العرب دمشق ثم يختتما بذم جمال باشا ، والنقاول بعهد زاهر ينسى العرب ماضي آلامهم : « واليتك بعض أبياتها^(١) : -

* * *

على كلّ عود صاحبٌ وخليلٌ وفي كلّ بيتٍ رنةٌ وعريلٌ
علاها وما غير الحيبة سلمٌ « شبابٌ تسامي للعلى و كهولٌ »
لقد ركبوا كور المطابا يجتازهم الى الموت من وادي الحياة رحيلٌ
رجالٌ عليهم من سنا الفضل رونقٌ وللمجد فيهم غرةٌ وبحجلٌ
مشوا في سبيل الجهد يحدوهم الردى ولل الحق بين الصالحين سبيلٌ

* * *

قبورٌ بيروت وأخرى مجلقٌ تجمرَ عليها للرياح ذيولٌ
سرتٌ روحهم تطوي السماء لريها وما غير خوه الفرقدين دليلٌ
وبعد ان يذكر الشهداء وبعد أسماءهم وصفاتهم يقول : -

بني يعرب لا تأمنوا الترك بعدها بني يعرب ان الذئاب تصونُ
ولن تسكن الايام عن عصبة جنوا ولكن بما كانوا هم سنكيلٌ
وقد سلبو احرية الناس مذعنوا وتلك مراد للحياة وسُولٌ
وصبوا دماء من شعوب بورية فاخضل وهدات بها وتلولٌ
ومنها مخاطباً جمال باشا : -

جمالٌ لأنّت القبح س TOK ضده وتبوك اذ ارفلت فيه ذليلٌ
تُربك لمجد العرب فيها أنتيه زوالاً ومجده العرب ليس يزولٌ
رويدك لا تغتر بالدهر ان صفا ولا تأمن الايام فهي تدولٌ

(١) راجعها في ديراته او في الادب المعاصر (بطي) ١٨ - ٢٤

وراءك لا تقرب رواسي يعرب فقرب رواسيها عليك وبيل'

وخير الدين الزركلي قصيدة نظمت (كما جاء في ديوانه) « على اثر اعدام الترك فريقاً من شبان العرب بسوريا وقيام الثورة بالحجاج » ومنها في الشهداء^(١) : -

نعي نادب العرب شباتها فجداد بالنعي أحزاناها
 بكى كل ذي عزة تربه فجاج نزارا وعدناها
 فمن المدامع ان لا تفيض وترسل كالسبيل هناتها
 فجائع هن حديث القلوب وهيبات تستطيع سوانها
 ومنها : فابكي على غرر المسلمين آية المذلة قرآتها
 وابكي على آل عيسى المسيح شم العرائين صلباتها
 نعت لغة العرب من حكموا لسان قريش وتبنيها
 وناحت على من بنوا عزها واعلوا بما اثروا ثانها
 وهناك قصائد لغير هذين الشاعرين فلتراجع في مظانها^(٢)

وكما نسمع بكاء الابطال في الوطن نسمعه في المهاجر . فان المهاجرين لم يكونوا يوماً اقل حماسة من اخوانهم المقيمين . والذى يقرأ دواوين ابي الفضل الوليد ، والشاعر القروي ، وفرحات ، والجزر ، وصوابا وسواهم يرى من اتقاد العروبة ما قد لا يراه في البلاد العربية نفسها . وبالذك انفوججاً من شعر المهاجر في الشهداء وهو من قصيدة موضوعها « ليعي العرب »^(٣)

بلاد الشام غادرك الكرام فعيش الحر فيك اذن حرام
 لقد كثرت من العرب الضحايا ولم يهتز في الغمد الحرام
 ومنها مشيرا الى السفاكين حاضرا العرب على الثورة -
 وختاماً الخافة من علاج لهم ذم وليس لهم ذمام
 يروت محنة الاوطان جرما به تهوي من الاحرار هام

(١) ديوانه (١٩٢٥) ٦٥ (٢) راجع منها « جزار سوريا » لاعين ناصر الدين في ديوانه

(الخامس ٥٧) ديوان الاقناس المتأدية (الوليد) ٧٤

لقد قتلوا العواطف والمزايا ففي احشائنا منها سهام
أنبى ساكنتين بلا حراك ولثورات حولينا اضطراماً
ثم يخاطب الشهداء ويصف شجاعتهم لدى الموت

أيا صحي الكرام لا فدائم لثام بعد ما فل الكرام
مشيت باسلين الى المسايا وكان لكم على النطع انسام
ليحي العرب قد صدم وتم فصيحتكم خطركم دوام
فنحن لدى بسالتكم جباري وانت فوق ذاتنا عظام
على أعاد مرقية رفعت منارات بها يهدى الانام
وكنتم قدوة للشعب مُثلّى فهل يُرجى له يوماً قيام
ويتقدّم من هنا الى مخاطبة ارواحهم ثم يختتم قوله بالحكمة التالية -

ورب ضحية أحيت شعوبا فكانت لها انعتاق واقتحام
على البلوى اذت صبر جيل لنا آمالنا ولنك السلام

وللوليد على هذا النسق عدة قصائد عربية الروح كصدى الاجيال ، والصرخة
الكبرى والدولة العربية وسوها . ومثل ذلك للشاعر القروي . ومن اقواله في
الشهداء قصيدة مطلعها^(١)

خير المطامع تسلم على الشهداء اذ كى الصلاة على ارواحهم ابدا
فلتنحن اهان اجلالاً وتكرمةً لكل حر عن الاوطان مات فدى
با نجم الوطن الزهر التي سطعت في جو لبنان للشعب الفليل هدى
قد علقتكم يد الجاني ملقطة فقدت بكم الاعواد والمسدا
بل علقوكم بصدر الافق اوسمة منها الثريا تلظى صدرها حسدا
أكرم بحمل غدا للحرب رابطة وعقدة وحدت للعرب معنEDA

والقصيدة كلها - كما كثر شعر القروي - غيره وطنية متقدة ، واذ كاء لنار الحياة
القومية في صدور الشيبة العربية . وقد اخذ الوطنيون في سوريا ولبنان يوم ٦ ايار (مايو)
عيذاً تذكارياً عاماً . ففي بيروت كما في دمشق يقيمون كل عام مهرجاناً حافلاً يلقون
فيه الخطب والقصائد ذاكرین اولئك الوطنيين الذين ضحي بهم على مذبح السياسة

(١) راجع ديوانه الاعاصير ص ٥٥

والقومية ولو جمع كل ما قبل فيهم منذ انتهاء الحرب الكبرى الى الآن ملأ مجلداً ضخماً . فلنقف هنا عند حد الاشارة اليها

اما الثورة الحجازية (او العربية) فقد اعلنت في مكة في ٢ حزيران سنة ١٩١٦ . والذى يطالع ما نشر من الكتب والوسائل عنها (عربي وغير عربي) يصل الى النتائج التالية -

- ١ - ان الشعور العربي القومي الذى شهدناه يتآرجح عقب اعلان الدستور حتى توصل الى المطالبة بالامير كزير خبا في اول الحرب . ولكنه لم يلبث ان تحول الى كراهية للترك ورغبة في التخلص منهم لضغط الاتحاديين في اثناء الحرب
- ٢ - ان العلاقة بين الاستانة ومكة كانت على شيء من التوتر وقد زادها توترة اتصال شريف مكة بالجمعيات العربية

- ٣ - ان الحلفاء وأخصهم بريطانيا تكروا من اجتذاب الشريف حسين بن علي اليهم بوعود خلابة منها انهم يساعدونه على استقلال العرب وتأسيس مملكة عربية
- ٤ - وبناء على هذه الوعود اعلن الحسين الثورة على الاتحاديين فاشترک العرب فعلاً في الحرب الكبرى

وقد كان لهذه الثورة في البلدان العربية (ما عدا مصر) نتائج معنوية خطيرة اهمها انها اذكى في نفوس الناس العصبية الجنسية ، ووضعت في ايديهم سلاحاً فعالاً للمطالبة باعادة بعدهم التلذ

فاصبح الملك حسين في الادب العربي (في سوريا والعراق) بطل العرب والمطالب الاكبر بحقوقهم . وانا نلقت النظر هنا الى منشور الثورة^(١) الذي اذاعه باسطراً فيه الاسباب التي حفزته الى مقاولة الاتحاديين ومنها اضطهادهم لغة العربية، وقتلهم لكثيرين من نوابع النهضة القومية وما قاموا به في البلاد العربية من نفي أمراء وافراد ومصادرات اموال ومتاجر ، وغير ذلك من الاعمال المنكرة

وقد اشتراك في هذه الثورة عدد غير قليل من السوريين وال العراقيين ، وبينهم نخبة من ضباط الجيش التركي سابقاً . ولا بدع فقد اعلن الشريف « انها عربية تشمل كل عربي

(١) راجع المنشور في الثورة العربية (امين سعيد) ١٩٢٩ وفي كتاب الوثائق والمعاهدات

كائناً من كان على شرط ان يكون صادقاً لوطنه مخلصاً لقومه^(١) ولا شك ان الاتراك بذلوا جهدهم لاخاد الثورة . وقد استطاعوا في اثناء الحرب ان يكموا افواه الناس في سوريا وال العراق عن نشر الاخبارها . بل ان يمحوهم على التشريع بها . على انها كانت في الحجاز قوّة فعالة ، وكان للادب نصيب كبير فيها . ومن رافقوا الثورة ونفعوا بها فؤاد الخطيب فقد اوحى اليه بكتير من الشعر الحماسي . كقوله من قصيدة حيى بها استقلال العرب ونوبة الحسين ومطلعها^(٢)

حي الشريف وهي البيت والحرما
وانهض فمثلك يرعى العهد والذمة
يا صاحب الهمة الشماء انت ها
ان كان غيرك يرضي الابن والستة
ومنها مخاطباً الاخاهيين -

يا آل جنكيز ان تنقل مظالمكم على الشعوب فقد كانت لهم نعما فالظلم يقطن منهم كل ذي سنة ما كان ينهض لو لا انه ظلها ومنها مشيراً الى اشتعال الثورة في الحجاز -

فمن يكن عن أبة الضيم في صميم
فقد تكلم صوت النار مرتفعاً
من الحجاز فشقّ اليه والأكاك
يا ابن النبي وانت اليوم ناصره
قد عاد متصلماً ما كان منفصماً
والنفّ حولك أبطال غطارقة
فاصدم بهم حدثان الدهر معترضاً
ثُم يلتقيت الى العرب مستفزًا حبيتهم ومذكراً ايام بالجند الغائر

إيه بني العرب الاحرار ان لكم فجرأ أطل على الاكونان مبتسمـا
من ذلك البيت ، من تلك البطاح ، على تلك الطريق مشت أجدادكم قدما
من كل أروع وتأب اذا انتسب^{*} بيس الصوادم كان الصارم الخذـما
لست ببنיהם ولست من سلالتهم ان لم يكن سعيكم من سعيهم ابدا
الي الشام ، الى ارض العراق ، الى أقصى الجزيرة سيراً واجلوا العلـما
ومثل الخطيب خير الدين الزركلي . ومن نفحاته في هذا الباب قوله سنة ١٩١٨
من قصيدة عن انها العرب والترك يصف فيها فظائع الاتراك^(٣) -

(١) كتاب ثورة العرب (المقطر ١٩١٦) ٢٣١ (٢) كتاب ثورة العرب (المقطر ١٩١٦) ٢٦٦

(٣) ديوانه ٨٣

عنا أحفاد جنكيز فساقوا سلائل يعرّب سوق العبيد
فكم قتلوا من الأخبار صيداً وكـم ساموا المهانة من عميداً
وكـم حملوا على الأعواد ظلماً وكـم سقوا المنية من شميداً
ثم يشير إلى الثورة فيقول : -
إلى أم القرى عدت المذاكي وفي أم القرى خفتُ البنود
بروق في الحجاز ومضنَّ وهنا فكان بجلقِ قصف الرعد
ويقول من قصيدة « الشهداء » وقد مر ذكرها : -

أبي السيف إلا انتقاماً لها وخاف على الضيم خسراناً
آثار بني هاشم في الحجاز وأنطق في الترب حسناناً
كتائب هبت تلبي الدعاء وتطوي القفار وكتباً لها
برمحٍ يرتّ عضبٍ يتنّي في الترك وسناناً
هو النّار أدركه الثناؤن أشجى فرولاً وسلطانها
وقصائد هذين الشاعرين نموذج لما نظم في الثورة والقاتلين بها . ومن الذين اشادوا
بالثورة العربية عبد الحسن الكاظمي وديوانه ينضح بروح العروبة وذكرى امجادها
التلبية^(١)

وما زراه في الوطن زراه في المهجـر فقد حرـكت الثورة هناك الشعر العربي فتبـاري
زعـمانـه في وصـها وتعـديـد حـسـنـاتـها ، وـتـجـيـدـ من اوـقـدوـها . كـقول رـشـيدـ ايـوب^(٢) -

من افاصـي الروـمـ نـهـيـكـ السلامـ معـ نـسـمـ السـحـرـ
يا شـرـيفـاـ كـلـمـاـ نـاحـ الـحـامـ فوقـ غـصنـ الشـجـرـ

صاحب السيف الصقـيلـ المستـهـابـ فيـ دـبـاجـيـ الحـنـ
انتـ منـ قـوـمـ هـمـ تعـنـوـ الرـقـابـ منـ قـدـيمـ الزـمـنـ

خـضـتهاـ حـرـيـاـ عـلـىـ الـبـاغـيـ تـدـورـ بـكـيـةـ اـسـدـ
وـتـرـكـ الـتـرـكـ اـصـحـابـ الـفـجـورـ عـبـرـةـ لـلـابـدـ

(١) راجـعـ دـيـوـانـهـ جـ ١ـ صـ ٦٩ـ وـ ١٩٠ـ ١٩٧ـ (٢) الاـيـوبـياتـ ٦٩ـ ٨٥ـ ٣٩ـ

فأدر يا إها الساق الكؤوس جاء وقت الطرب
واسقنا من خرة نخلو النفوس من ظلام الدركَبِ
واضع للليل ان لاح الصباح صاح فوق القُبْضِ
فلتعش للعز في تلك البطاح دولة العَرَبِ

وهذا الشاعر من مهاجري السوريين في الولايات المتحدة وهم عموماً أقل تأثيراً
بالحركة العربية من مهاجري أميركا الجنوبيّة كاً يشهد بذلك شعره المنشور في الدواوين
والصحف وقد ألمتنا وسنلّم أيضًا بشيء من أقوال هؤلاء «الجنوبيين» الذين كان لهم
يد تذكر في إضرام الروح العربية وحفظ الشعلة القومية بين أبناء العرب في تلك
الاصقاع

ولما انسحبت الجيوش التركية من الاصقاع العربية ودخل العرب الشام بقيادة
فيصل في ٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٨ أخذت الشعر نسوة الظفر حتى كنت تراه
في دمشق وبيروت والقدس وسائر الحواضر تتدفق الحماسة منه تدفق السيل كقول
متحمس من قصيدة — (١)

أجل يزغت في الشرق شمس الحقائق بونج العبدى والمزعجات الطوارق
غداة انتصري العصب المنهى فيصل بكل كمي رابط الجأش صادق
لعمرك ما العرب الكرام يهولها صليل المواضي او دوي البنادق
ولا راعها ما جرّعت من مرائر وقد نصبت قدمًا جبال المشانق

وقول الزهاوي من قصيده النائحة (وقد مر ذكرها) —

وجاءت خيول العرب تعدد وراءها بقربة للانكليلز خيول
هناك أهل الشام صاحوا وكبروا وكبروا اعلام بها وسهول
وكان لأخذ الثار قد ثار ضيغم له في مغار الغابتين شبول
اغرّ كريم الاصل من فرع هاشم فطاب له فرع وطاب اصول
ويقول أمين ناصر الدين في «الاهمام» من قصيدة موضوعها يوم الصلح : —
فيالك يوماً فيه وئق لورى عرى الصلح رهط صادق العزم حازم

فنبت حقوق واستنبلت بمالك وأنصف مظلوم وجوزي ظالم
نهضت بهم من ودهة اليأس جملة فعيشهم غض الجوانب فاعم
طلعت عليهم والوجه عوابس ولم تغش الا والغور بواس

وقول اسعد خليل داغر من قصيدة «تاريخ الحرب الكبرى» في فتح سوريا :-

بشراك سوريا العزيزة فافرحي وتهلي بخلاص شبك واطربني
فأله سؤلك قد اجاب فالنبي ما شئت في حمد الله واطبني
وعلى الآلى نجوك آيات الثنا صوغي وعن قدر الصناعة أغبني
اني لمنقذك العظيم لشاكرا وبينصره هذا لا يكابر معجب

وفي ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ احتفل العرب احتفالاً باهراً برفع
العلم العربي في المكان الذي شنق فيه شهداؤهم، فكان لرفعه هزة ادبية عظيمة وهي
تبجل في عشرات القصائد والخطب التي جاشت بها خواطر الادباء من جميع المذاهب.
والبلاك منها هذه القطعة الخامسة وهي من خمس للشيخ مصطفى الغلايني^(١)

رأيَّةُ الْعَرْبِ رأيَّةُ الْمَدِينَةِ رأيَّةُ الْجَهَدِ رأيَّةُ الْحَرَبِ
أَنْتَ هُوَى أَمَانَةُ الْوَطْنِيَّةِ وَمَنَارُ يَهْدِي السَّبِيلَ السُّوَيْدِ
دَمْتِ فِيَّا مَدِيَ الزَّمَانِ عَلَيْهِ

بَكِّيَّ خَمْيَ الْحَمْيِ الْمَفْدَى وَنَجْنَبِيَّ ثَرَاتِيَّ تَحْبِيَ الْقُلُوبَ وَتَعْنِيَ
وَنَرْجِيَّ الْحَيَاةِ فِي رَوْضَ اَمْنِيَّ وَارْفِيَّ ظَلَهُ خَصِيبَ اَغْنِيَّ
فِي حُمْيَ دُوَلَةِ الْعُلُوِّ الْعَرَبِيَّةِ

ومن هذه الخامسيات قول شاعر مسيحي من موشح^(٢)

إِيَّاهَا الْإِبْطَالَ حِيَا الْعَلَمَا وَاحْلَوْهُ
وَانْصِبُوهُ فَوْقَ اسْوَارِ الْحَمِيَّ وَاحْرَسُوهُ
كَنْ لِقَوْمِيِّ رَمْزَ مَجْدِيَّ وَعَلَاهُ فِي الْأَمَمِ
وَتَوَجَّهُ فَلَكَ الشَّعْبُ فَدَاهُ بِالْعَلَمِ

(١) رابع قصيدة «نشيد الحرية» في ديوانه (٢) حلم دموش . ديوانه - ٣٠٧

ويعكس شعور المهاجرين قول أبي الفضل الوليد من قصيدة موضوعها نشيد العلم^(١)

العرب حوالك جند أيا العلم منهم تألفت الاوطار والهمم
من خضرة وبياض نعمة وهدى وحمرة وسوداد نعمة ودم
الوانك استكملت اجاد مملكة البلك نزف وفي اجفاننا عبر
من الحجاز الى ارض الشام الى ارض العراق لك الآفاق تتسم اذا طلعت تطلعنا الى شرف وعزه فاطلت حولنا الامم
وقف على هذه الامثلة القليلة ما لمو اثبتناه لما وسعته عشرات الصفحات

كان الحزب العربي يأمل تأليف سلطنة عربية تضم الشام والعراق والجاز وسائر الجزيرة العربية تحت العلم المأسي . فتكون هذه الاقطاع امارات مستقلة في ادارتها الداخلية ولكتها مرتبطة بعرش واحد يجلس عليه الحسين وأولاده من بعده . وكان هذا الحزب بوالي دولة بريطانيا العظمى ويعتبرها سندآ للدولة العربية وخليقها لها على طوارئ الزمان

فلا انقضى العام الاول على تأسيس حكومتهم في دمشق ظهر لهم ان ثقفهم بوعود الحلفاء لم تكن قائمة على اسس و كين ، وان الاعيب السياسة الاستعمارية لا يؤمن شرها ، فأخذ التشاوم يتسرّب الى نفوسهم . وبعد أن كانوا بالامس يطرون طریقاً لذكر الثورة والعلم العربي والسيادة القومية ، وقفوا يتهمسون بما سيؤول اليه أمرهم . وطبعي في مثل تلك الحال أن ينس زهرة شعرهم القومي شيء من الذبول - مسحة من الشعور بالظلم . وعلى ذلك قول الوزركلي سنة ١٩١٩ من قصيدة مطلعها : -^(٢)

فيَّ الونِي وديارِ الشَّامْ تُفَقَّسْ أَبْنَ الْعَهْدِ الَّتِي لَمْ تُرْعِ وَالْذَّمِ

وهي أكثر من أربعين بيتاً ، وقد يصل فيها شعوره الى درجة الثورة على الظلم فيقول متوعداً -

إِلَهَ بَسَاءِ ظَلَّكَ وَطَنِي وَأَنْبَتَ عَشَبَهُ بِالْغَيْثِ يَسْجُمُ لَئِنْ تَوَلَّوْ رَعِينَا حَسْنَ وَدَهْ وَصِينَ مَنَا وَمِنْهُمْ فِي الْعَرْوَقِ دَمْ

(١) الانفاس المتنبيه ١٤٠ ديوانه ١٥٥

وأشد من ذلك قول الغلابي في دمشق سنة ١٩٢٠ - ^(١)

هبيوا فامتكم أمست على خطير جارت عليها الاعدادي جور مُستقم
حتى تسيل دموع الشام مفعمة دمًا يسيل الردى في سبل العَرَم
وذمة العُرب والآيام شاهدة لنضر من الوعى في السهل والظُّلم
حتى يخلتوا بلاد العُرب أجمعها من ساحل الروم حتى ساحل العجم

ولم يكن شعراء المهجـر أقلـ من شعراء الوطن شعوراً بـكـانـدـ الاستـعـارـ وـخـوفـاـ
من ضـيـاعـ الآـمـالـ . فـيـ الحـفـلةـ الـكـبـرىـ الـتـىـ اـجـبـاـهـاـ الحـزـبـ الـوطـنـىـ السـوـرـىـ فـيـ
بـونـسـ اـيـرـسـ سـنـةـ ١٩٢٠ـ اـحـتـفـالـاـ بـتـسـمـ فـيـصـلـ عـرـشـ سـوـرـيـاـ الـقـىـ الدـكـتـورـ جـورـجـ
صـوـاـيـاـ قـصـيـدـةـ حـمـاسـيـةـ قـالـ فـيـهـاـ مـخـاطـبـاـ الـأـمـةـ الـعـرـبـيـةـ ^(٢)ـ

يا أمي جاهري بالحق لا تجمي ونازعـيـ الـخـلقـ بـقـيـاـ مجـدـكـ الـهـرـمـ
وـمـنـهاـ مـشـيرـاـ إـلـىـ فـيـصـلـ وـالـعـلـمـ الـعـرـبـيـ -

قد قـامـ فـيـنـاـ صـلـاحـ الدـينـ وـيـحـمـمـ فـلـيـقـعـمـ الشـامـ مـنـ قـدـ قـالـ لـمـ يـقـمـ
فـيـصـلـ الـعـرـبـ مـسـتـلـ بـسـاحـتـهاـ فـيـ حـدـهـ الـحـدـ بـيـنـ الذـلـ وـالـشـمـ
ياـ ايـاـ الشـعـبـ دـافـعـ عـنـ كـيـانـكـ لـلاـ نـجـيـنـ وـذـدـ بـالـقـنـاـ عـنـ مجـدـ ذـاـ الـعـلـمـ

وـقـدـ حـلـتـ الـحـاسـةـ شـاعـرـاـ كـبـيرـاـ مـنـ شـعـرـاءـ المـهـجـرـ انـ يـطـلـبـ مـنـ وـطـنـهـ لـبـنـاتـ
الـانـضـامـ إـلـىـ الـدـوـلـةـ الـعـرـبـيـةـ فيـ سـوـرـيـاـ وـالـبـلـكـ بـعـضـ قـوـلـهـ فيـ ذـلـكـ ^(٣)

فـانـ لـمـ تـرـضـ بـالـعـرـبـ اـتـصـالـاـ فـلاـ تـجـعـلـ جـزـاءـ اـخـيـرـ شـرـاـ
وـلـاـ تـطـلـبـ لـاـوـرـبـاـ اـنـتـصـارـاـ عـلـىـ الشـعـبـ الـذـيـ وـلـاـكـ نـصـراـ

ويـقـولـ مـخـاطـبـاـ فـيـصـلـ -

أـفـيـصـلـ وـالـمـطـامـعـ مـحـدـقـاتـ بـنـاـ وـحـوـادـثـ الـأـيـامـ تـرـىـ
فـلـاـ تـرـكـ لـذـيـ طـمـعـ عـلـيـنـاـ يـدـأـ تـخـفـيـ وـرـاءـ الـخـلـوـ مـرـاـ

(١) ديوانه ٦٦ (٢) ديوانه هـش الشاعر ص ١٠٥

(٣) الياس فراتـ - راجـعـ مجلـةـ الـاصـلاحـ (بـونـسـ اـبـرسـ) معـ ٤ـ عـدـدـ ٨ـ

ثم يتطرق الى ذكر الاحزاب واختلافها والى آمال الوطنين الاحرار فيقول متوجداً بـ :

وان نفشل ويفشى الشام ضيئُ جعلنا الشام للافرنج قبراً
ولهذا الشاعر الوطني كثير مثل ذلك

ومن يراجع الشعر العربي السياسي في السنتين التاليتين للحرب (١٩١٩ و١٩٢٠) يجده واحداً في جميع الاوساط السورية والعراقية - نعمة على سياسة اوربا في الشرق^(١) ودعوة الى الجihad في سبيل الاستقلال والحافظة على كرامة العَلَمِ العربي . ولعل اهم ما اثار النفوس في ذلك الوقت واقعة ميسلون وما كان من بسط الانتداب على البلاد السورية - ثم الثورة العراقية والها بها العصبية القومية على ضفاف الرافدين (وستذكر في باب خاص)

اما مصر فكانت مشغولة باحوالها الخاصة - كان شعرها السياسي منصرفاً الى محاربة الاحتلال ، وتوجيه نظر الامة الى الاستقلال . وبرغم ما كنا نراه يومئذ بعض ادباء المصريين من العطف على القطرين الشقيقين (سوريا والعراق) لا يسعنا الا ان نقول ان الرأي الادبي العام في وادي النيل لم يكن عربياً الفزعه - بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول انه كان ناقماً ثورة الحسين على الخلافة العثمانية ، تلك الثورة التي انتهت بانتصار الحلفاء وتعزيز الاحتلال (عهدئذ) في مصر . ولذا وقف الشعر المصري ازاء القضية العربية وقف المعرض ناضجاً يده من كل ما له علاقة سياسية او قومية بسائر البلدان العربية .

ويؤيد قولهنا هذا ما صرّح به مصريّ صيم^(٢) اذ قال في حفلة تكريم الوفد العراقي سنة ١٩٣٦ مشيراً الى هذا الموقف والى تحول الشعور المصري^(٣) -

«منذ عشرين سنة أو نحوها كان أكثر المصريين اذا ذكر البلدان العربية ذكرها في شيءٍ من الموجدة بشبه الاخلاص». وبعد أن يذكر أن نظرة الى الاقطار العربية لم

(١) يمثل ذلك قصيدة «المشرقية» لناصر الدين - ديوانه الاحلام ١٨٤٢

(٢) محمد توفيق دباب منشى - جريدة الجihad (٣) راجع خطابه في صوت الاحرار عدد ٧٦٣

يُكَنْ يختلف عن نظرهم إلى أي قطْر شرقى - كالبابان أو الصين مثلاً - يقول - « تلك المرحلة الأولى كانت مرحلة الوساوس والشكوك »^(١). فلما توالَت الخطوب دراً كاماً على الآخِرات المتلقعنات استيقظت روح الإِيَّان من سباتها العميق فأخذت الألسنة والأفلام العربية كلما ذكرت العروبة وآلام الشقيقات ذكرتها مصحوبة بشعور من الآخاء لم يكن قبل موافرًا ،

وقد كان الشعراء في سوريا والعراق حتى في « مرحلة الشكوك والوساوس » التي يشير إليها الاستاذ ديب اعطف على القضية المصرية . على أن تحول الشعور المصري الأخير نحو الشقيقات العربية قد زاده حاسة واهتماماً وسيزري بعد كيف يظهر ولهم الوطنية المصرية وقدرهم لجهادها .

وأنت حاضري يا أبا لا تجحي وترى من المثل ما يحكي
 نـا لـمـعـدـتـ بـرـمـيـلـاـهـيـتـ فـيـلـاـسـقـةـ لـهـاـ لـهـاـصـ قـلـمـكـتـ لـلـهـ بـهـ لـهـ
 نـعـمـيـاـ سـنـنـ مـاـ لـهـ لـهـ قـبـلـ .ـ سـاـلـقـلـاـ لـعـاـقـلـاـ يـلـقـ بـهـيـقـ .ـ سـاـلـقـلـاـ قـلـمـكـتـ
 نـاـ لـعـدـلـاـ (ـ نـاـ لـعـدـلـاـ)ـ تـعـقـتـلـاـ تـعـقـلـاـ لـهـ سـلـقـعـاـ نـهـ بـهـ بـهـ مـلـهـاـ
 نـاـ سـعـدـلـاـ .ـ سـعـدـلـاـ يـلـقـ بـهـ بـهـ .ـ بـهـ
 نـاـ قـبـلـاـ تـلـكـ .ـ قـبـلـاـ قـبـلـاـ قـبـلـاـ لـهـ بـهـ بـهـ لـهـ لـهـ لـهـ لـهـ لـهـ لـهـ
 نـهـ بـهـ
 قـلـمـكـتـ لـلـهـ بـهـ
 بـهـ

رـعـاـ سـعـدـلـاـ جـبـلـكـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ
 وـيـتـوـلـ عـاـشـلـاـ لـرـهـلـاـ لـعـتـاـلـاـ لـخـلـاـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ
 لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ
 لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ

(١) يوميَّد ما ذكره الاستاذ ديب مما كان عليه التصور المصري سائقاً نصريحاً للدكتور طه حسِّين . راجع « المكتشوف » بيروت عدد ١٧٥ ، لطباعة تحرير مجلس الأوقاف والدين بمصر ، ١٩٤٣

المشادة

بين الانتداب والاستفول

وضعت الحرب الكبرى أوزارها وللوطنين في البلدان العربية ، ولا سيما مصر وسوريا والعراق ، آمال قومية واسعة . على أن عصبة الأمم لم تثبت أن قررت أن هذه البلدان لا تزال في حاجة إلى وصاية أو ارشاد بعض الدول الكبرى . وهكذا وضع نظام الانتداب أو الحماية (ستة ما شئت) . فاعترى الشرق العربي شعور عام باحتجاج واستفزـ ذلك العناصر الوطنية فهبت تسع نيل أمانها . وهذه المساعي هي أساس العوامل التي كان لها أعظم اثر سياسي في شعر الحقبة الأخيرة . وهي تظهر في اربع ظواهر رئيسية :-

- ١ - كفاح القومية المصرية
- ٢ - الثورة العراقية
- ٣ - الثورة السورية
- ٤ - المشكلة الفلسطينية

وللنقل نظرة عجل على كل منها

﴿ كفاح القومية المصرية ﴾ وهو قديم يرجع عهده إلى بدء الاحتلال البريطاني ، على أن أول من نظمه وأول من وحد الاتجاهات الوطنية بمصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني . وقد صدق أمين الرافعى إذ قال^(١) - « تبدلت بمصطفى كامل كل الأباطيل التي كان خصوم مصر يذيعونها عن الروح الوطنية في البلاد ، وكان احتفال الأمة بجنائزه أروع مظاهر اثبات به مصر أنها أمة حية لا تستطيع أن تعيش إلا أمة مستقلة »

(١) ابطال الوطنية (رضا) ١٩٢٣ من ١٥

وقد اهاب مصطفى كامل الشعر العربي في مصر وفي غير مصر وجرأ الشعرا على
ساجحة المحتلين ومطالبتهم بالجلاء ، كما دفعهم الى التغنى بالحرية والكرامة القومية
فلا بد من نرى في الشعر العربي عند موته اتقاداً تتجه فيه العواطف القومية
كقول حافظ ابراهيم من يائمه المشهورة في ذلك الزعيم - :

هنيئاً لهم فليامنوا كلّ صائم فقد أسكنت الصوت الذي كان عالياً
ومات الذي أحيا الشعور وساقهُ الى الجد فاستجحا النقوس البواليا
شهد العلي لازال صوتكم يبتنا يرنّ كما قد كان بالامس عالياً
يناشدوا بالله ان لا تفرّقوا وكونوا رجالاً لا تسرّوا الاعداء
وأشد من ذلك قصيده في حفلة تأييده وقطعها^(١) -

نثروا عليك نوادي الازهار واتيتُ انثر بينهم اشعاري
زين الشباب وزين طلاب العلي هل انت بالهجي الحزينة داري
غادرتنا والحاديات برصدي والعيش عيش مذلة وإسار
ما كان احوجنا اليك اذا عدا واصاح الصالحون بدار
ومنها: فـ وامح ما خطت مين كرومر جهلاً بدين الواحد القهار
جزع افلال عليك يوم تركته ما بين حر اسى وحر اوار
متلفتاً متخيراً متخيراً رجلاً ينضل عنه يوم فخار

وقصيده الذكري وقطعها^(٢) -

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ما تقضي به الدэм
ومنها: هنا الكمي الذي شادت عزائمه لطالب الحق ركتاً ليس ينهم
لبيك نحن الآلى حرّكت انفسهم لما سكنت ولا غالك العدم
ـ قيل اسكنوا فسكننا ثم انطقتنا عسف الجفاوة وأعلى صوتنا الألم
ـ لبيك إنا على ما كنت تعهدنا حتى نسود وحنى تشهد الامم
ـ فيعلم النيل انا خير من وردوها ويستطيل اختيالاً ذلك المرم
ـ يا ايها النشـ سيروا في طريقته وثابرداري الاعداء ام نعموا
ـ فكلكم مصطفى لو سار سيرته وكلكم كامل لو جازه السام

ولشوي في رثاء مصطفى كامل قصيدة مشهورة مطلعها —
 الشرقان عليك يتجبان في مأتم فاصلها والدافي
 وهي من عيون الشعر. ويدور أكثرها على مآثر الفقيد وشخصيته ومنزلته في قلوب
 الناس . ومثلها قصيدة خليل المطران تجدتها في ذيل ديوانه مطلعها « أعلى مسألك
 الله وشرفا ». وهي أكثر من تسعين بيتاً عامراً وتتصور الفقيد زعيماً وطنياً ضحي
 بحياته في سبيل بلاده كقوله
 مصر التي كافحت لـه عذاتها متقدراً لـرُمائها مستهدفاً
 مصر التي سقطت الجيوش مناقباً ومنىً لتكتيفها التغير المحففاً
 عرفت أهلها حقيقة قدرهم وكفاحهم من قدرهم أن يعرفاً
 ومن المرائي التي تذكر قصيدة احمد نسيم - ما بال دموعك لا هام ولا جار^(١) -
 وبمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل نرى لشوي قصيدة تنضح
 بالوطنية كقوله يخاطب الفقيد^(٢)
 لك الخطيب التي غصَّ الاعادي بسورتها وساغت للنداوى
 فكانت في مرارتها زئيرأ وكانت في حلاوتها بعاماً
 بك الوطنية اعتدلت وكانت حدثاً من خرافه او مناماً
 بنيت فضية الاوطان فيها وصيَّرت الجلاء لها دعاماً
 وفي هذه القصيدة يستعرض احوال البلاد السياسية ثم يستطرد الى ما تحتاج اليه من
 وسائل الاصلاح

ومن اراد ان يعرف شيئاً من الحركة الادبية التي احدثها موت مصطفى كامل
 فليرجع الى الصحف العربية سنة ١٩٠٨ ، والى ما نشر من الشعر في ذلك العهد
 وكذلك الى ما قيل فيه يوم ازاحة السنار عن مقبه (١٤ مايو سنة ١٩٤٠)^(٣)

(١) راجعها في ديوانه (١٩٠٨) ص ٢٣ (٢) الثوقيات ١ - ٢٧٢

(٣) راجع «الاهرام» ١٦ مايو ١٩٤٠ وخصوصاً قصيدة خليل مطران التي مطلعها - امنوا بعونك
 صولة الرثاء

وينتقل لواء الجهد الوطني الى يد سعد زغلول . وفي سعد تجسست خواج الامة المصرية وامايتها بعد الحرب العالمية الاولى . وقد اصبح مثالاً في الجهد القومي لكل الامم العربية المجاورة . فها هو يثير مصر مطالباً بالاستقلال ، وها هو يُنفي مع رفقاء الى جزيرة سি�شل . ولما افرج عنهم وعادوا الى الوطن استقبلهم الشعر العربي استقبال الابطال وقد اشتراك في اكثرا الادباء في وادي النيل وفي مقدمتهم شوقي وحافظ والمطران والعقاد والمازني ومحمد عبد المطلب وأبراهيم . وبموت سعد بلغت الحافة الشعرية أعلى درجاتها . فنظم في مصر ، كأنظم في سوريا ولبنان والعراق والهاجر ما لا يستطيع حصره الا في مجلد خاص ، من مراثٍ تصنف مناقب العالية وكفاحه الوطني المجيد^(١) . وقد اقيمت له حلقات تذكارية متعددة نذكر منها خارج مصر تلك التي اقامها العراقيون في بغداد ١٩٢٧ وادباء المهاجر البرازيلي في سان بولو سنة ١٩٢٨ وقد اشتراك فيها ابرز الادباء في تلك الاقطاع

ولم تقت الحركة الوطنية المصرية بموت سعد بل ظلّ خلفاؤه يناضلون . وقد استطاعوا ببنائهم ان ينالوا حق الاعتراف باستقلال مصر وعقدوا مع بريطانيا معاهدة صداقة فتم لهم تنظيم شورتهم . ولم يليشوا ان دخلوا عصبة الامم وقد تحصل هذا التزاع الطويل الذي رفع لواءه مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما من رجال مصر حوادث شئ كأن لها اثيرها الخاص في الشعر كعادتها دنشواي ورفع الحاوية ، واعلان الملكية ، وثورة ١٩١٩ ، ومسألة الامتيازات الاجنبية وغيرها . على ان هذه الحوادث عند التحقيق ليست الا حلقات من سلسلة المشادة بين الانتداب والاستقلال

﴿ الثورة العراقية ﴾ من المعلوم انه لما احتلت بريطانيا العراق نشرت العراقيين (كما نشر لسوام من ابناء العربية) منشوراً تبين فيه اسباب احتلالها وأنها انا نقصد تحرير العرب لا فتح بلادهم . واليكم نص هذا المنشور^(٢) :-

« إن الغاية التي ترمي إليها بريطانيا العظمى وفرنسا من مواصلتها في الشرق تلك الحرب التي أثارتها مطامع الامم ان هي تحرير الشعوب الرازحة منذ زمن تحت نير

(١) راجع من ذلك فصيدة بشاره الخوري « قلوا دمت مصري دهيم » . وراجع ديوان الاعلام ٤٦٦

(٢) راجعه في « المراق في دوره الاحتلال والاستداب » للحق من ٨٥

الاستبداد التركي تحريراً قاماً وتشييد حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغائب الاهالي الوطنيين الصادرة عن رضاهم وحسن اختيارهم . وتوصلاً لهذه الغاية قد انقت بريطانيا العظمى وفرنسا على تشجيع ومساعدة حكومات وطنية في سوريا والعراق اللتين قد تم تحريرهما فعلاً على يد الحلفاء وفي البلدان الاخرى التي يسعى الحلفاء لتحريرها والاعتراف بهذه الحكومات عند ما يتم تنظيمها فعلاً . وان بريطانيا وفرنسا لا يخطر في خلديها فقط ارغام هذه البلدان على قبول نظمات معينة من اي نوع . وجل اهتمامها هو ان تضمنا هذه البلدان بمساعدتها الفعالة سير الحكومات والادارات التي يتخدونها عن محض ارادتهم سيراً متظماً الخ الخ »

فكان من الطبيعي ان يتوقع العراقيون والسوريون وسواهم عهداً استقلالياً تاماً . لكن الامور في العراق جرت منذ الاحتلال على غير ما يرام فقد رأى العراقيون سوريا تتمتع حيناً (أيام فيصل) بالاستقلال وبالمملک وهم لا يزالون تحت نير الانتداب ثم حدثت حوادث زادتهم امتعاضاً من حكامهم البريطانيين . فأخذ الوطنيون منهم يتفاوضون ويبحثون سراً في موقفهم واتفاق الوجها، ورجال الدين على طلب الاستقلال وتعيين أمير من ابناء الحسين . وفي سنة ١٩٢٠ دارت بينهم وبين البريطانيين مراسلات ادت الى مؤتمر عام قدم فيه المندوبون العراقيون ثلاثة مطالب رئيسية هي : -

١ - الاسراع في تأليف مؤتمر يمثل الامة العراقية ليعين مصيرها وشكل ادارتها ونوع علاقتها بالخارج

٢ - منح حرية المطبوعات ليتمكن الشعب من الاقصاح عن رغبته وافكاره

٣ - رفع الحواجز البريدية بين اجزاء القطر اولاً وبينه وبين القطر المجاورة والممالك الاخرى ثانياً ليتمكن الناس هنا من التفاهم بعضهم مع البعض ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم

والظاهر ان التفاهم بين السلطة والوطنيين كان متعدراً فعيدهم السلطة الى سياسة الارهاق، وقامت على بعض الزعماء فنفت بعضها واعتقلت آخرين . لكن هذه السياسة لم تأت الا بعكس المطلوب . فقد اخرجت الوطنيين ولاسيما سكان وادي الفرات

حتى افني امامهم الكبير محمد تقى الشيرازي بجواز امتصاق الحسام في وجه السلطة
دفاعاً عن الحقوق القومية^(١)

وهكذا نفت فكرة اعلان الثورة . وقد القى محمد الباقر الشبيبي يومئذ خطبة حماسية
وانشد قصيدة منها^(٢)

بني يعرب لا تأمينوا للعدى مكرا خذوا احذركم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة ويبغون ان حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم ليهم وتذكروا افاليلهم في الهند والكذب في مصر
ومن مات دون الحق والحق واضح اذا لم ينزل فخرآ فقد ربح العذرا

وفي هذه الثورة يقول مهدي الجواهري من قصيدة^(٣)
alam التواني في الحياة وقد قضى على المتواني الموت هذا التنازع
وبعد ان يذكر ان في العراق نهضة يقابلها هنوزات في سائر البلدان العربية يقول عن
التأثير

و يوم نضت فيه المخول غطارف بصان الحمى فيهم وتحمى المطالع
تشوقهم للعز نهضة تأثر حنين ظاء اسلتها المشارع
لقد عظموا قدرآ وبطشاً واما على قدر اهلها تكون الواقع
وما ضرهم بوسائل السيف وعندهم عزائم من قبل السيف فواطع
اذا استكرهوا اطعم الممات فأبطأوا أتيح لهم ذكر الخلود فسارعوا

ثم يصف الثورة في الكوفة ووادي الفرات واستفزاز الانكليز لهم ، وبعد مثاقب
مورى شراراتها الاولى الشيخ الشيرازي . ومن قوله فيه :-

اثور به للموت نفس أية وتأبى سوى عاداتهن الطبائع
يطارده وقع السيف اذا مشى كما طارح المشتاق في الايام ساجع
والقصيدة اكثـر من ٧٥ بيتاً وكلها على هذا النمط الحماسي . وله قصيدة اخرى

(١) العراق للحسيني - ص ١٠٣ (٢) العراق - ص ١٠٤ (٣) ديوانه (١٩٣٥) ص ٦٩

في الثورة مطلعها^(١) ان كان طال الامد فبعد ذا اليوم غدر وخيري الهنداوي في الثورة قصيدة طوبية نارية الروح مطلعها^(٢) - ايا الشرق هل فقدت الشروقا - ومنها مخاطبا وطنه

انت اذنت ام بنوك ام الظلام شاءوا ان يغصبوك الحقوق
يتتو امرهم بليل وجاءوك جيئا يتلو فريق فريقا
حاولوا لا اباهم - ان يكون الشرق كالعبد مستخاما رفينا
فنهضنا كالأسد في اوجه القوم لنجحت بغيهم والفسقا
ومنها : ويک لا ارتضي الحياة بذل ف فرق إهاها تزيفنا
وادر لي في الرافدين حيث الحرب صرفا وكسر الإبريقا
ان موتا يكون في ساحة العز لموت اجدر به ان يروقا
الى ان يقول -

ليت شعري هل مبصر انا يوما علم ابن الحسين فيما خفوقا
ذلك أمنتي فلا عيش الا ان اراها تهتز غصنا وربينا

ومن موقدى الشعور الوطني يوم ذي الشبيخ مهدي البصیر شاعر الخلة وهو من
الذين اعتلوا ونفوا . ومن شعره الثوري المحرّك قوله في قصيده «ليک ایا الوطن» .
ومطلعها^(٣) -

ان خاق يا وطني علي فضاكا فلتنسع في للامام خطاكا
ومنها: بك هت او بالموت دونك في الوعى
روحى فداك متى اكون فداكا؟
نق اني ساذب دونك باذلا
روحى لارخصها فما اغلاكا
اقصى رجائي ان افال رضاكا
فلتضمن ذلك الحياة ظباكا
كذبتك اقطاب السياسة عهدها
ما كان اقصرهم وما احجاها
لوبنفك حرررررررررر لانهم ربحوا قضيتم بظل لواسكا

(١) راجها في ديوانه ٢٣٦ (٢) الادب المصري (بطني) ١-١٦٦ (٣) الادب العربي ٣-٩٦

ومثل هذه العواطف تتجلى في شعر عبد الحسين الأزري، ومحمد أبي الحasan، وعلي الشرقي، ومحمد الماشي، وسواهم. أما الزهاوي والرصافي فلم نر لهما شيئاً من ذلك في ما نشر من شعرهما

اشتعلت الثورة فوق من ضحاياها مئات من الطرفين. ولم تر بريطانيا بدأً من مصالحة الثوار فاصدرت منشوراً بالغfo العام. ثم «شكّلت» للعراق حكومة وطنية مؤقتة إلى أن يتم انعقاد مؤتمر عربى عام يعين مصير البلاد وشكل حكومتها. وكان فيصل في اثناء ذلك قد انهار عرشه في دمشق، فقرر باتفاق الطرفين انتخابه ملكاً على العراق وصرف النظر عن عقد المؤتمر العام. على أن الشعب استفتى في امر انتخابه فتال ٩٩ بالمئة من الاصوات. وهكذا نودي به ملكاً واحتفل بتتويجه في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢١

وكان لهذا الحادث التاريخي اثر يذكر في الادب العربي فقد القى فيه من الخطب والقصائد ما لا يتسع المقام لذكره. وبالذك اندلعت انباءً من قصيدة انشدها الزهاوي في حضرة الملك فيصل على اثر قدومه عاصمة الرشيد^(١) وفيها يقول:

انا محبتوك فاسلم اهيا الملك
عرش العراق ضمان للعراق وفي
تأييده الشعب والاحزاب تشتراك
الناس من فرح إذ جئت ترأسهم من بعد ما قد بكونوا امن بأسمهم ضحكوا
قد ارتضاك له فاهنا بدولته الله والناس والتوفيق والملك
هذا السلام يعم الرافدين غداً
فلا دم بعد هذا اليوم ينسفك
جري ليلحق ناس بابن فاطمة
حتى اذا تعبوا في جريم بركوا
من هاشم من قريش من ذوانها
حيث الوشائج والارحام تشتبك
ومنها: الله يا فيصل ما انت موئنه
للعرب من شرف في شكره اشتراكوا
في نهضة رجال كنت ترأسهم
حيث اتحرر اوطان بها انسكوا
عش للرقى فات الشعب اجمعه مذ هب يفتح عينيه به سدى

ولا ينكر انه بتنصيب فيصل استقرت الحال نوعاً في العراق على ان الامانة القومية لم تصل وثبة واحدة الى غايتها . فكان موقف العرش حرجاً بين السلطة المنتدبة والقومية العراقية المتولدة لكنه فيصلاً كان ربانياً ماهراً فسيط المركب بين اللجوء برقق وحكمة ، واستطاع قبيل موته ان يوسع على معاهدة الاستقلال وان يدخل العراق في عصبة الامم

ولم يخل الشعر العراقي في اثناء ذلك من روح التبرم فبرغم النهضة السياسية في العراق وبرغم ما كان يعنيه في العهد الفيصل في اوار الامل والاستئثار ظلّ فريق من كبار ادبائه يغلب عليهم التشاوم فينفونه شعراً قاتم اللون ناقماً سوء الحال . وزعم هذا الفريق الرصافي كما ترى في قصيده للريحاني سنة ١٩٢٢ اذ يقول^(١) -

أمينْ جئتُ إلىَّ العراق لكيْ ترى ما فيهِ منْ غُررِ العليِّ وبحجولِ
عفوأً فذاكَ النجمُ أصْبَحَ آفلاً والقُومُ محترِبُوتْ بعدَ افولِهِ
ومنها : واداً وفَتْ بدارسِ منْ مجدهِ فكوفقة الباكونِ بينَ طلوهِ
وانْخَبْ كمانْخَبِ الحزَّينِ مكفِكَفَاً
ومنها : حالَ لو افْتَكَرَ الحكيمَ بكتبهِ طولَ الزَّمانِ لعيَّ منْ تعليمهِ
منْ ذَا يبدَّلهِ فاتَ قوارعيَ بثَتَ لعمرِ اللهِ منْ تبديلهِ
إلىَّ انْ يقول . -

من ابن يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكاته غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند جيشه والمثال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله
ونظير هذه الروح في قصيده في حفلة الحزب الوطني البغدادي للمستاذ كراین
الاميركي (سنة ١٩٢٩) اذ يقول^(٢)

واداً تَسْأَلُ عَنِّيْ هو في بغداد كائِنْ
فهو حكم مشرقي الفرع غربي الملائِنْ
وطني الاسم لكن انكليزي الشناشِنْ
قد ملكتنا كل شيء نحن في الظاهر لكن ...

نحن في الباطن لا غلوك تحريكًا لساكن
ومثل ذلك قصيدة « الخرية في سياسة المستعمرین » (ديوانه ٤٢٦) وغادة
الانتداب (٤٢٧) وكيف نحن في العراق (٤٣٥) وحكومة الانتداب (٤٣٧)
هذا الشعر المثير للناظم كان شائعاً في الاوستاط القومية المتشددة ويقابلها شعر
وطني مستبشر كان ينظر الى الامور بعين الرجاء مؤمناً بالنهاية الجديدة وائقاً بقادها.
ومن امثاله ما قيل في العَلَمِ الْعَرَبِيِّ وَالنَّهَضَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَآمَالِ الشَّبَابِ وَالْمَلَكِ الْعَرَبِيِّ
وَالسِّيَادَةِ الْقَوْمِيَّةِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ ، كقول الجواهري من قصيدة في سفر الملك فصل الى
جنيف (١٩٣١) تميداً لدخول العراق عصبة الامم^(١). يفتحها بوصف منافب فيصل
وحسن سياسته وجميل خدمته للعراق ثم يقول

لا ادعُك انْ قَدْ اتَمْ نُوْهَ مِنْ كَانَ اَمْسِ بِشَكْلِ طَفْلٍ حَابِّ
فَلَتَلَكَ لَيْسَ بِالْبَعِيدِ مِنْهَا عَنْ كُلِّ شَعْبٍ طَامِعٍ وَثَابِ
لَكَنْ اَقُولُ أُرْبَتَهُ مِسْتَقْبَلًا لَا بِالْعَدِيمِ سَنَاً وَلَا اَخْتَلَابِ
كَالشَّهِدِ اُولَئِكَ مَا زَالَ بَيْنَ هَاهُ طَعْمَ الصَّابِ
فَالْيَوْمَ هَا هُوَذَا بِظَلَكَ يَحْتَمِي مِثْلَ اَحْتَاهُ الْعَيْنِ بِالْاهْدَابِ
ومثل هذا القول بل واكثر منه استبشاراً واباناً بالمستقبل يتجلى لك في كثير
من الشعر الذي نظم في عهد فيصل وعد خلفه الملك غازي الأول

﴿ الثورة السورية ﴾ ذكرنا ان دمشق كانت بعد الحرب الكبرى اول عاصمة
خارج الحجاز نودي فيها بالاستقلال العربي . وهكذا اول برقة وردت الى بيروت بعد
دخول العرب دمشق (وقد نشرت في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ بتوقيع الامير سعيد
الجزائري) - « بناءً على تسليات الترك فقد تأسست الحكومة الماشية على دعائم
الشرف طمنوا العموم واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية »

وعلمون ان سوريا بعد الحرب عهد بادارتها المستقلة الى الامير فيصل . ثم حدثت
حوادث وجرت مفاوختات سياسية لا مجال لذكرها الاكـن . وفي خلال ذلك تم حكومة
دمشق تنظيم المؤتمر السوري بمثابة تجمع الاقطان السورية ومنها فلسطين فأعلن في ٧ آذار
(مارس) سنة ١٩٢٠ المناداة بالامير فيصل ملكاً دستورياً على البلاد السورية^(٢)

(١) ديوانه (١٩٣٥) ١٠٦

(٢) راجع الثورة العربية (سعيد) ٤ - ٣٥

على ان ذلك الاستقلال لم يطل عهده ففي ٢٥ تموز (يوليو) من السنة نفسها دخل الجيش الافرنسي دمشق فاضطرر ف يصل الى ترك عرشه وأصبحت سوريا داخلة في منطقة الانتداب . وبذلك أخمدت تلك النازفة الملكية التي كان السوريون قد بدأوا يغبطون بها . وبعد ان كان الشعر العربي في حمـام شعر القومية السائدة والوطنية الجذلة والراية العربية اخفاقه اصبح ذكريات مؤلمة كقول الشاعر من قصيدة في وداع فيصل مطلعها^(١) : -

اضاعوه وكان في هماما
(اضاعوه واي في اضاعوا)
فودع في الدجى تابجا وعرشان
هو التاريخ عاد فعد اليه
سلاما يا أبا الغازى سلاما
أطعت عصابة خلت فكانت
ولولا ذاك كنت الملك فىنا
فسادات فى رحاب القصر فوضى

وَكَوْنِ الْغَلَايِّينِ مِنْ قَصِيدَةِ نُظُمَّهَا فِي دَمْشَقَ (٢٠ كَ ١٩٢٠) وَمَطْلُوبُهَا — وَفَتَتْ
عَلَى الْأَطْلَالِ أَطْلَالِ قِحْطَانَ (٢).

لئن كنتم من قبل في يد غاصب ضعيف القوى من خرة الجهل نشوان^(٤)
 فانكم اذا اليوم نهب مقتسم بأيد شداد شرها منكم دارت
 رقدم وسبق القوم يرهف حدته وما غمده الا طلى آل عدنان
 وله كثير مثل ذلك

و كذلك خير الدين الزركلي كقوله من قصيدة سنة ١٩٢٢ وهو في عمان^(٤)

أبكي ديارا خلت للجمال
ابه مثال

۱۰) حلم دمومس (دیوانه)

(۲) راجحہ فی دینہ انہ

۷۱) دیوانه ص ۲

(٣) تأثير الاتراك

أبكي تراث العز والعز غال
صعب المنال
أبكي جلال الملك كيف استحال
إلى خيال

وله قصيدة سماها *القاجعة*^(١) نظمها على أثر واقعة ميساون ودخول الجيش الفرنسي
إلى الشام ومطلعها -

الله للهدنان كيف يكيد بوردي بغيض وفاسد يميد
ومنها ما في دمشق لناهض من عزة وبها سرادق غاصب بمدود
بلاد تباؤ الشقاء فكلما قدم استقام له به تجديد
وبعد أن يصف الجيش والخذال السوريين لتناقر زعامتهم يقول : -
خدعوك يا أم الحضارة فارقتْ نجني عليك فيالق وجند
من ذا يكفكف أدمعاً مهراقة كالغيث هطل حسرة وتجدد
تسق بها في الغوطتين مباسم ذهب النواح بعائشة وخدود

وفي الذكرى الأولى لاستقلال سوريا ينشد الكاظمي في مصر قصيدة مطلعها :
«أفي مثل هذا اليوم طاف المبشر» تشف عن شعور الناس في ذلك الحين^(٢)
ولو راجعنا ما نظمه كبار شعراء سوريا بعد سقوط العرش الفيصلية كمن مر
ذكراً ، وكخليل مردم ، وفارس الخوري ، وشقيق جبوري ، ومحمد البزم ، وفؤاد
الخطيب ، ومحمد الشريقي وبدر الدين حامد واخراهم ، وما نظمه زملاؤهم في سائر
الأقطار العربية والهجاج ، لوجدنا عليه مسحة من الألم تشف عن أسفهم على ما ضاع
من أمانٍ وتبدّد من أحلام

في خلال ذلك كانت العراق (كما مرّ معنا) تنتقد بالثورة ومصر تجاهد تحت لواء
سعد . وقد رأى السوريون نتائج الثورة العراقية والجهاد المصري ، فكان ذلك دافعاً
لهم إلى تنظيم الكلمة ومناولة الانتداب
ولم تلبث هذه المناولة أن انجلت عن ثورة ١٩٢٥

ولسنا نبحث الآن عن الاسباب البعيدة او المباشرة لهذه الثورة فذلك عمل مؤرخيها ، على أننا نقرر هنا أنها كانت خطوة كبيرة في سبيل المهد المنشود . فقد انتهت بتنظيم الكتلة الوطنية ، ثم باعلان الجمهورية (سنة ١٩٣٢) وبالاتفاق مبدئياً على معااهدة شبيهة بمعاهدة العراق

وقد نظم في الثورة السورية والحركة الوطنية شعر كثیر اشتهرت فيه جميع الاقطار العربية . فمن مصر مثلًا شوقي وحافظ ، ومن العراق الرصافي والجوهري ، ومن المهاجر السورية اللبنانية الشاعر القروي والياس فرحت والدكتور جورج صوابا والياس قنصل وابو الفضل الوليد ومسعود سماحة

ومن لبنان وفلسطين مصطفى الغلابي وعلي الحوماني وابراهيم طوفان وفني الجبل وسواهم . فإذا أخذت هذه الامماء الى امهاء شعراً سورياً الذين مر ذكرهم الى امهاء كثرين في اخاء البلاد العربية من لم يذكرها استطعت ان تقدر ما كان لهذه الثورة من الاثر في الشعر العربي . واننا نشير هنا اشارات خاصة الى دواوين الغلابي ، والشاعر القروي ، والياس قنصل وبدر الدين حامد لما يتوجّح فيها من نيران تلك الثورة وما تحمله الى الاقطار العربية من حرارتها المتقدة

﴿ الجامعة العربية والروح الاقليمية ﴾ رأينا من الفصول السابقة ان الدعوة للعروبة لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بظهور التذكير بالماضي والاهابة ببناء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلي . فلما دخل العرب العهد الدستوري وأصبحوا يرون بجلاء ما لهم وما عليهم اخذتهم الفيرة القومية فبدأوا يلهجون بها ، وشعروا ان العنصر السادس في السلطة يقاومها فازدادوا تعلقاً بها ، ولم يلبثوا ان نظموا الجماعات والهيئات السياسية ، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالاً ادارياً

وفي الحرب الكبرى اعلنت الثورة المجازية باسم العرب والمملك العربي ولما وضعت الحرب اوزارها انتشرت الدعوة للجامعة العربية تحت لواء الهاشميين انتشار النار في المшиم ، وكانت ترمي الى احياء بجد العرب بتنظيم دولة كالدولة الاموية في الشام تضم الاقطار السورية والعراقية والمجازية ثم تدرج الى سواها

حلمٌ جيل استعديهُ السواد الأعظم من سكان تلك الاقطان ، وقد كان مصدر اهتمام لـكثير من الشعر القومي والخطب الحماسية . ولن ننسى يوم نشر العَلم العربي في بيروت وقد استولى فيه على الناس شعور غريب لا عهد لهم به من قبل — شعور الكرامة القومية الحرة . كان الاحتفال في دار الحكومة ، وهاك بعض ما قاله الخطيب « الرسمي » مخاطباً الشعب العربي^(١) —

« ان هذه الراية التي تنشر اليوم هي شعار استقلالكم وستكون خافقة فوق رأسكم ما يخفق فؤادكم ، فان بقاءها نحو اليوم في يديكم . فان احييت لها البقاء فاستمت في حبها واعمل على اعلانها بين الامم . ان البلاد العربية اليوم هي بثابة كتلة وطنية واحدة خاضعة لحكم شريف مكة واميرها وملك البلاد العربية جلالة مولانا المفدى حسين الاول . واننا لا ننسى ابداً لخلفائنا وشخص منهم دولة انكلترا العظمى المساعدة العظيمة التي قاموا بها نحونا لحصولنا على هذه النعمة الكبرى »

وقد اقيمت المهرجانات لرفعه في الشام وسائر المدن السورية . ولم يشكك احد يومئذ في ان الملك العربي اصبح امراً واقعاً وان انتصار الخلفاء على الاتراك كان الحجر الاساسي في توطينه

ودارت الايام فإذا بالانتداب يفرض على البلدان العربية . وإذا بالحكومات العربية الاقليمية تبرز عوضاً عن الدولة العربية المتحدة ، وإذا في الادب العربي فكرتان تتصارعان فكرة الوحدة وفكرة الاقليم

اما الاولى فكانت ولا تزال رسالة الشعر العربي منذ عهد الدستور (١٩٠٨) . وقد رأينا كيف بوزت بعد الثورة ، وعيّنا حاول دعاء التقسيم اماتها . فهي عند السواد الاعظم من عرب الشرق الادنى رسالة المجد القديم .

فلنلتفق قليلاً لنرى هذه الرسالة وكيف التفت العرب بعد يقطفهم الحدبة الى امجادهم الغابرة .

لله رب العالمين بحثاً وصل إلى كل أمة ، هذا شعار دعوه إلى الله
لشقاً نعم ، لها على ما ينتهي فيها تقدماً ، وهذا شعار أبداً نعم
في كل أمة ، فالله لها على ما ينتهي فيها تقدماً ، وهذا شعار أبداً نعم

(١) راجع جريدة صوت الاحرار ٢١ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٧

الفترة الأدب إلى ماضي العرب

من يراجع الأدب العربي في عهوده السالفة لا يرى فيه من شأن يذكر لوقفات التاريخية التي تلبيس الماضي برواد الجلال وتدون مآثر الأسلاف بأفلام الفخار . خذ مثلاً ما جمعه القرشي في كتابه « جهرة أشعار العرب » فهو يضمّ أشهر الشعر العربي القديم من معلقات ومجهرات ومذهبات ومنتقيات وملحات ومشوبات ومراثٍ ومع ذلك لا تجد بينها ما يدلّ على اهتمام العرب بهذا النوع من الأدب . ويصدق هذا الحكم على حماسة أبي قاتم وبسات الجموعات الشعرية القديمة والمولدة . ولا نستطيع أن نعدّ التفاخر بالاجداد في مثل شعر ابن كلثوم أو الفرزدق وأخراجهما من باب الوقفات التاريخية بالمعنى الذي نفهمه الآن فما ذلك إلا مباهة شخصية أو قبلية ليس فيها ما يدلّ على سعور عام يجدو الشاعر إلى التغنى بإجاد الغايرين ووصف إبطالهم وما تفهم . وقد يجوز أن نستثنى من هذا الحكم العام بعض المنظومات القليلة كسينية البحري التي يصف فيها أبوان كسرى وينوه « بعجبائب قوم لا يشأ البيان فيهم بلبس ». أو بعض المرائي القومية كقصيدة ابن عبدون في بن الأفطس التي مطلعها - « الدهر يفتح بعد العين بالآخر » وقصيدة أبي البقاء الرندي التي يندب فيها الملك الإسلامي بالأندلس ومطلعها - « لكل شيء إذا ما تمّ نقضان ». أما التواريخ المنظومة أمثال ارجوزة أبي طالب عبد الجبار التي تسرد في ٤٥٢ بيتاً تاريخ الحلفاء من راشدين وأمويين وعباسيين واندلسيين^(١) فليست إلا سرداً عادياً للحوادث ولا يراد به استعراض الإجاد القومية السالفة أو التعبير عن روح الأمة وامانها الكامنة .

وقد كان من المتوقع أن ينشأ في العهود المختلفة التي تلت عصر الفتوح ما يدلّ على تأثير الأدب بأعمال الفاتحين وما في الإبطال ولكننا قلما نعثر من ذلك على شيء جدير بالذكر حتى ان الحركة الشعوبية التي ظهرت في أوائل العصر العباسي وكان الباعث إليها تلك المشادة العنصرية بين الفرس والعرب لم تترك لنا من أقوال المدافعين عن العرب إلا بعض شعر ونثر لا يستحق أن يبعد من باب الوقفات التاريخية . وكذلك قل في تعصب المتنبي للعرب وذمه للعجم . فهو مع كونه عربياً صحيحاً لم يخرج عن نطاقه

(١) راجعها في الذخيرة لابن سام (١٩٦٢) قسم ١ مج ٢ ص ٢٠٥

| الشخصي المحدود الى نطاق القومية الواسع ولم يصرف شعره عن امراء او كبراء يسعى عليهم حل المديح او خصوم وحشاد يسلقهم بالسنة الممجاهة الى تعظيم امته بتعظيم تاریخها والتنویه باجادتها . وذلك عین ما نلحظه في كل عصورنا الادبية حتى نهضتنا الحاضرة . وهذه الظاهرة التاریخية اسباب منها - ان العرب سابقاً لم يتموا الا للعصبية القبلية ولم تكن القومية عندهم ولا سيما بعد العصر الاموي متمیزة عام التمیز عن الدين . وقد اصاب احد الباحثين اذ قال « ان هذا الفن (الشعر البطولي القومي) يحتاج الى ممارسة وتفرّغ وطول معاناة ومثل ذلك لم يكن متھیاً لادباء العربية الذين كانوا اميل الى تقليد من سباقهم^(١) ». اما في هذا العصر فقد تغيرت الحال فان « التطورات السياسية والاجتماعية قد جعلتهم يشعرون بكيانهم ففتحوا اعينهم ورأوا سوء حالمهم ازاء الامم الاخرى . وهكذا اخذوا منذ اوائل هذا القرن ينفضون عنهم غبار الموان . وساعدتهم الحرب العالمية الاولى فاصبح لهم دول مستقلة اسماً او فعلاء فكان من الطبيعي ان يتلقتو الى ماضיהם القديم - الى عهد الفتوح والملك وما تلاه من الازدهار العلمي - تعظيماً لقوميتهم وارهاقاً لهم ومحفزاً لابنائهم على السير في سبيل اسلامهم . وفي ذلك يقول علي مصطفى مشرفه^(٢) .

« فكما ان الاوروبيين عندما افاقتوا من قرونهم الوسطى عدوا الى احياء ماضיהם ببعثوا الثقافة الاغريقية وجعلوا منها اساساً لنھضتهم كذلك نحن في الشرق قد هدانا وهي السليقة اى منابع عظمتنا فرجعنا الى ماضينا ليكون قاعدة لصرح تقدمنا » .

ويقول فؤاد صروف^(٣)

« ان الاساس في النھضة الصحيحة هو الاحسان بالكرامة . والاحسان بالكرامة يستيقظ ويستعز بالانساب الى آباء واجداد نفحهم وماض نباهي به واجداد نغطيها » .

وهذا الالتفات لا ينحصر في قطر واحد بل هو عام وله ظواهر شتى اهمها ما يلي :

﴿ ١ - ذکری النوابغ والابطال ﴾ وقد وضع في هذا الباب نثراً عدداً كبيراً من الكتب والوسائل وكلها ترمي الى تخليد عظام الامة العربية بعرض تاریخهم

(١) راجع فصلاً لفخری ابوالسعود في اسباب خلو الشعر العربي القدیم من البطولة - ارساله

(٢) المتفق ١٠٠ - ٢٠٣ (٣) المتفق ١٠٠ - ٢٢٨

ووقائعهم وآثارهم سواء كانوا من رجال السياسة وال الحرب والإدارة أم من رجال العلم والأدب والدين^(١). وهو باب واسع جداً وقد طرقه القدماء وخلفوا لنا كثيراً من الترجم و الدراسات على انهم لم يعنوا عنابة المحدثين بالتمييز التاريجي والنقد العلمي والتحليل النفسي ولم يدفعوا مثلهم الى تمجيد التاريخ العربي والأخذ به وسيلة لتجميس الجيل الحاضر ورفع انتظاره الى المثل القومية العليا . وقد يتجلّى ذلك على انه في الشعر الحديث والبك بعض الامثلة وهي «قل» من كثـرـ

«عمريّة حافظ ابراهيم» وهي قصيدة في نحو ١٩٠ بيتاً يعرض فيها الشاعر مناقب الفاروق وما تأثره . ومطلعها :

« حسب القوافي وحسب حين أقيها اني الى ساحة الفاروق أهدىها »

ومنها في وصف الدولة الاسلامية بعد مقتل عمر -

فاصبحت دولة الاسلام حاثة تشكو الوجيعة لما مات حاميها
مضى وخلفها كالطود راسحة وزان بالعدل والتقوى روايتها
تنبو المعاول عنها وهي قامة والقادمون كثير في نواحيها
واهاً على دولة بالامس قد ملأت جوانب الشرق رغداً من اياديه
وبعد ان يعدد اعمال الفاروق ومكارمه يختتم القصيدة بقوله -

هذا مناقبه في عهد دولته للشاهدين وللأعتاب احكامها
لعل في امة الاسلام نابتة تخلو لحاضرها مرآة ما ضيّعها
حتى ترى بعض ما شدت اوائلها من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها ان ترى ما كان من عمري حتى يتبه منها عن غافلها
وعلى غرار العمرية بعض منظومات في ابطال الاسلام الأول كعموية محمد
عبد المطلب^(٢) وبكرية عبد الحليم المصري^(٣) وخالدية عمر ابو ربيعة^(٤) واشباهها .

(١) راجع من ذلك كتاب اشهر شاعر الاسلام لروحي الحالي . ودوايات زيدان وكتاب حاضر الاندلس وغابرها محمد كرد ملي وكتاب تراث العرب العلمي لندربي طوقان وسلسلة مقالات آثار العرب المثلية للدولـتـ في المـلـالـ مـجـ ٣٠ .

(٢) ديرانه . والمنتطف ٦٦-٦٥ (٣) المـنـتـفـ ٤-٥٣ (٤) ديوانه (شعر) ٢٣١

ومن هذا الشعر البطولي المُشيد بِما جادَ الماضي ما قيل في عبد الرحمن الداخل وهو الامير الاموي الذي نجا من سيف العباسين ثم تكَّن من دخول الاندلس وانشاء دولة اموية هناك . وقد نظم فيه احمد شوقي موطئاً عنوانه صقر قريش فذكر قصة نجاته ورجله الى افريقيا ثم ما كان من امره في الاندلس وكذلك فعل خير الدين الزركلي^(١) وسواء .

ويمَّن جعل في مصاف الابطال زنوبيا ملكة تدمر التي اشتهرت بِأسها حتى أصبحت موضوعاً للشعر والنثر^(٢) . وقد أولع ادبنا مؤخراً بالذكريات الألفية البعض نوايا الرجال كالمنبي والمرسي وما قيل في هذين الشاعرين نثراً وشعرأ لا يقل عن عدّة مجلدات^(٣) . ومن هذا القبيل شخص بعض الجلات اعداداً خاصة لذكرى بعض المشاهير وسوى ذلك بما نكتفي بالإشارة اليه

﴿ ٢ - المأثور من وقائع العرب واخبارهم ﴾ ولا نقصد بذلك ما دونه المؤرخون من حوادث تاريخية بل ما يعكسه الادب من روح تلك الحوادث وما يقصه علينا من مستملح النوادر . وقد نقل لنا الرواة عنهم كثيراً من الاخبار التي تبرز فيها مكارم الاخلاق من شجاعة ووفاء وعدل وحكم وكرم ونزاهة كالذي يتناقلونه عن حاتم طيء وكمب بن مامه والسموأل ومنع والاحنف وما يعزونه الى بعض الحلفاء والوزراء والعظاء من اخبار وطرائف تجدها متفرقة في كتب الادب كالاغاني والعقد والفرج بعد الشدة وتراث الاوراق ومصارع العشاق والمستطرف وسيرة عنترة وقصص الف ليلة وليلة وسواء . هذا فضلاً عن الواقع التاريخية التي تشير الى ما بلغوه من عز وسؤدد . فلا غرابة ان يجد فيها الادب الحديث مصدر وحي لكثير من الاحاديث الممتعة التي تعيّد لنا العهود الأولى مصورة بازهى الالوان وتعكس لنا حامد الاسلاف في ذلك الزمان . وقد اتسع مثل هذه الاحاديث ادبنا المنشور وخاصة ببا الترسل والخطابة واصبح معروفاً شائعاً حتى لا حاجة للتدليل عليه . وعليه فسنكتفي ببعض الامثلة الشعرية - ومنها

﴿ قصة خولة بنت الاوزور وابيها خرار ﴾ وهي فصيدة لشبلی ملاط في ٩٥

(١) راجع ديوانه (٢) راجع مجلة الكلية ٩ - ٦٤ و مجلة المورد ٨ و ديوان الملاط - زنوبيا

(٣) راجع في المعري المرجان الالغي الذي نشره المجمع العلمي العربي بدمشق .

يَتَنَّا تُصْفِ بِطُولَةِ الْفَارِسِ الْعَرَبِيِّ ضَرَارُ بْنِ الْأَزْوَرِ وَأَخْتَهُ فِي حَادَةٍ جَرَتْ لَهَا عَنْدَ
فَتحِ دَمْشَقَ عَلَى يَدِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ . وَمَطْلُومُهَا^(١) -

أَدْمَوْعَ خَوْلَةَ امْ عَقِيقَ الْوَادِيِّ اِيَامَ نَادِيِّ الْجَهَادِ مَنَادِيِّ
وَتَرَى خَوْلَةَ أَخَاهَا وَهُوَ يَتَأَهَّبُ لِلْعَرْبِ قَبْكَيِّ فَرَحًا ثُمَّ يَأْخُذُانَ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْجَهَادِ
فَيَقُولُ ضَرَارٌ مَتَحْمِسًا

يَا خَوْلَةَ أَنَّ أَبِي وَجْدَيِّ اسْتُشَهِدا قَبْلِي عَلَى مَرْأَيِ النَّبِيِّ الْأَمَادِيِّ
وَأَنَا عَلَى آثَارِ مِنْ دَرْجَوْنَا وَمِنْ سَعْدَوْنَا مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأَجَادِدِ
وَيَجْرِي فِي حَدِيثِهِ وَاصْفَا بِطُولَةِ الْمُجَاهِدِينَ . فَتَجْبِيهِ خَوْلَةَ مَتَهَلَّةَ -

بُورَكَتْ يَا ابْنَ أَبِي وَقْدَسِ وَالَّدِّ يَحْيَيْهِ مِثْلُ ضَرَارِ فِي الْأَوْلَادِ
ثُمَّ تَشْتَعِلْ نَيْرَانَ الْقَتَالِ فَيُسْتَبِيلْ ضَرَارُ فِي الْمَجْوَمِ عَلَى حَصْنِ الْأَعْدَاءِ وَلَكِنَّ
الْأَقْدَارَ تَشَاءُ أَنْ يَجْرِحَ جَرَحًا بِلِيْغًا فَيُتَمَكِّنُ الْأَعْدَاءُ مِنْهُ وَيَأْسِرُونَهُ . وَلَا يَلْعَبُ خَوْلَةَ
خَبْرَ اسْرَهُ انْقَدَتْ نَارُ الْحَمْيَةِ فِي صَدْرَهَا وَحَلَّتْ وَهِيَ مُنْتَكِرَةٌ بِرَزِّيِّ فَارِسِ الْفَرَسَانِ
حَمْلَةً شَدِيدَةً عَلَى الْأَعْدَاءِ . وَلَمَّا رَأَى الْعَرَبُ هَذِهِ الْحَمْاسَةَ مِنْهَا انْقَدَتْ حَمَاسَتِهِمْ فَاغَارُوا
عَلَيْهَا وَهَكَذَا رَجَحُوا الْمَعْرَكَةَ وَانْقَذُوا أَخَاهَا مِنَ الْاَسْرِ . يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي خَاتَمِهِ -

وَمَشَى الْغَزَّةُ الْفَاتِحُونَ وَدَوَّخُوا مَا دَوَّخُوا مِنْ أَمَّةٍ وَبِلَادِ
قَلَ لِلَّأَلَى عَزَّتْ بَهْمَ اُو طَانِهِمْ وَتَسَوَّدُوا مِنْ طَارِفٍ وَتَلَادِ
كَوْنُوا ضَرَارًا فِي الْجَهَادِ وَخَوْلَةَ اِنَّ الْجَدُودَ تَعِيشُ فِي الْاَحْفَادِ

﴿ وَاقْعَةُ الْيَرْمُوكَ ﴾ وَعَلَى ذِكْرِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَمَا يُؤْثِرُ مِنْ وَقَائِعَهِ نَذِكْرُ هَذَا
الْمَعْرَكَةِ الْفَاَصِلَةِ الَّتِي حَدَّثَتْ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْرُّومِ عَلَى هَذَا النَّهَرِ الصَّغِيرِ الَّذِي يَصْبِبُ فِي
الْأَرْدَنَ قَرَبَ طَبِّرِيَا . وَهِيَ مَوْضِعٌ لَكَثِيرٍ مِنَ الْفَخْرِ الْقَوْمِيِّ اَوَ التَّارِيْخِيِّ وَمَا قَبْلَ
فِيهَا « وَقْفَةٌ عَلَى الْيَرْمُوكَ » اوَّلَهَا^(٢) -

عَلَى الْيَرْمُوكَ قَفْ وَاقْرَا السَّلَامَا وَكَلِمَهِ اِذَا فَهِمَ الْكَلامَا

(١) دِيْوَانُ الْمَلَاطِ ٢٨٣

(٢) لِلْمُوْلَفِ يَجْدُهَا فِي الْمُوْرَدِ الصَّافِيِّ ٩ - ٢٠١ وَالْمُلَالِ ٢٦٥ - ٢٩ وَالْمُخْتَارَاتِ السَّاَثِرَةِ ١٢٩

وبعد ان يصف الناظم ذلك الوادي بخاطب عرب اليوم مذكرة ايام بعدهم
القديم فيقول :

لَكُمْ غَشِيَ الْجَزِيرَةُ وَالشَّامَا
إِلَى الْيَرْمُوكَ أَنْ تَبْغُوا الْمَعَالِي
وَفَوْقَ خَفَافَهُ فَاجْتَهُوا احْتِرَاماً
غَدَاءَ اسْتَلَّ خَالِدُهُ الْحَسَامَا
هُنَّ الْاسْلَامُ خَاءَ لَهُ حَسَامٌ
وَهُبَّ أَبُو عَيْدَةَ مِثْلَ لَيْثٍ
بَجْرَ وَرَاءَهُ الْمَوْتُ الرَّؤَامَا
فَاصْلَى الرُّومَ حَرْبًا إِيَّ حَرْبٍ
وَفَلَّ بَعْزَمَهُ الْجَيشُ الْلَّهَامَا
وَسَارَ عَلَى رَوَابِي الشَّامِ يَخْطُو تَخْرَ لَهُ الرَّبِّيُّ هَامَا فَهَامَا

وينتقل من وصف المعركة وما احرزه الفاتحون الى حال العرب اليوم وما
اصابهم من تأخر وهو ان . ويختتم القصيدة بالرجاء ان نجاتهم سيسرق من جديد فيعود
اليهم ما خسروه من عزٍّ وما تمنعوا به قبلاً من سلطان .

﴿ مصرع الامين ﴾ ومن الحوادث التاريخية تلك الحرب التي نشب بين ابني
الرشيد الامين والمؤمن والتي انتهت بقتل الاول وطغيان التفوذ الفارسي في الدولة
العباسية . والى ذلك تشير قصيدة للدكتور رشيد الحناوي مطلعها^(١) - « من القباب
الباسقان ذراها » وفيها يتحدث عن الخلافة العربية وعن محمد العرب منذ ظهور
الاسلام الى سقوط عرش الامين ومن قوله -

تَعْبُ الْقَرْوَنْ تَنَاوَلَهُ سَاعَةً خَلَّتْ مَسَالِكُهَا وَطَاشَ هَدَاهَا
هَذِي جَنَاحَةُ هَاشِمٍ فِي مَلَكَهَا غَفَرَ الْأَلَهُ لَهَاشِمٍ عَقَبَاهَا
وَهُوَ يُرِي أَنْ مَصْرَعَ الْأَمِينِ كَانَ فَوْزاً لِلْفَرْسِ وَوَبَالاً عَلَى الْعَرَبِ -
مَا إِنْ رَأَتْ عَيْنِي كَبُوكَ مَصْرَعاً حَقَّ الْعَرَبَةِ وَاسْتَبَاحَ حَمَاهَا
وَازَّاحَ عَنْ عَرْشِ النَّبِيِّ مُتَوَجِّاً مِنْ أَهْلِهِ وَاحْلَهُ كَسْرَاهَا
وَيَدْعُو فِي خَتَامِهَا إِلَى عَصَبَيَّةِ قَوْمِيَّةِ إِذَ الْمَلَكُ لَا يَقُومُ بِدُونِهَا . وَلَا جَدُوِيَّ مِنْ
الاعْتِنَادِ عَلَى الدُّولِ الْقَوْيِةِ -

مَا الْأَقْوَيَا وَانْ أَرُوكَ لِيَانَةً إِلَّا ذِئْبٌ تَسْتَلِينَ شَيَاهَا
فَإِذَا اصَابَتْ مِنْكَ مَوْضِعَ رَقَّةٍ دَلَّتْ إِلَيْكَ بَشَرَّهَا وَإِذَا هَا

(١) راجعها في جريدة الهرق (بيروت) ع ٣٩٦

» سقوط غرناطه « مأساة قومية مشهورة . وقد تركت انراً عميقاً في الأدب العربي من ذلك قول شوقي في قصيدة الاندلسية التي مطلعها « اختلاف النهار والليل ببني » حيث يصف عزّها الغابر وكيف جار عليها الزمان فسقطت في يد الاعداء واصبح قصرها الشهير المعروف، بالهراء اطلاقاً خاوية لا تزال الى الآن شاهدة بما كان لاصحابها بني نصر من مجده وعظمة . وفي القصيدة ينحي بالائمه على ملوكها أبي عبدالله لسياسته التي ادت الى ضياع مجده ومجده آبائه -

مشت الحادثات في غرف الماء مشيَ النعيَ في دار عرس
هتكَ عزَّةِ الحجاب وفضَّت سدةُ الباب من سمير وانس
ومفانيحها مقايدَ ملكٍ باعها الوارث المضيع ببعضِ
رُبَّ بانِ هادمٍ وَجَمْعِ لِمَشْتِ وَمُحَسِّنِ لِمَخْسِنِ

وفي الماء وغير الماء من الواقع المؤثرة والحوادث الهامة اقوال كثيرة^(١)
ومثلها ما نقلوه من نوادرهم الدالة على مكارم اخلاقهم ونجزيه منها بقصيدة لالياس
فياض موضوعها « الوفاء »^(٢) . وهي تدور على ما جرى للأمير الأموي ابرهيم بن سليمان
بن عبد الملك يوم فرق من سيف السفاح العباسى واحتوى عند رجل كان الأمير قد
قتل والده وهو لا يعرف الرجل ولا الرجل يعرفه . يبدأها بقوله : -

ربةَ الشعر عن رجال الوفاءِ حدثينا وابني جبيل الثناءِ
حدثينا عن قومنا العرب اهل المجد قدماءَ والممتهنة القساءِ
عن رعايةِ جاءوا عراةً من الفقر فهازوا ملكاً على الدنياِ
رفعتهم خلامهم فتساموا ثم هانوا من بعد ذاك العلاءِ
وبناءُ الأخلاق أعلى وأقوى من بناءِ المعاقل الشماءِ
ويتقدم من هنا الى ذكر ما كان بين الامويين والعباسيين والى فرار الامير
ابراهيم واتحاته جانب المدينة حيث يدفعه الخوف الى منزل يراه امامه فيقول له رب
المنزل من انت فيجيب اني عائد مستجير من اعداء يطاردوني فيرحب به دون ان

(١) راجع منها قصيدة « على اطلاق الماء » في الملال ٣٠ - ٦٢٣ وقصيدة لشقيق الملعوف في المتنطف ١٣٧-٨٠ . والابداة الاسلامية لاحد محترم في الرساله ٢٠٤٨ . وثورة بدر محمود ابياعيل في الرساله ٢ - ٢٠٥٠ . ويوم حطين لعبد المحسن الفاطمي في ديوانه

(٢) ديوانه . والمورد الصافي ٩ - ١٠٨

يسأله عن اسمه ويفرد له حجرة يقيم فيها على الريح والسعـة . وقضى بـضـعة أيام والضـيف على هـذه الحال عـلـى أـنـه يـلحـظـ أنـ مـضـيـفـه يـخـرـجـ كلـ صـبـاحـ منـ المـنـزـلـ خـرـوجـ مـسـتـعـدـ لـنـزاـلـ ثـمـ يـعـودـ عـنـدـ المـسـاءـ وـعـلـىـ وجـهـ اـمـارـةـ الـكـاـبـةـ . فـيـسـأـلـهـ يـوـمـاـ عـنـ ذـلـكـ فـيـقـولـ أـنـ لـيـ ثـارـاـ عـنـدـ شـخـصـ اـسـمـهـ الـامـيرـ اـبـوـهـيمـ بـنـ سـلـيـانـ فـانـاـ اـخـرـجـ كـلـ يـوـمـ باـحـثـاـ عـنـهـ وـالـىـ الـاـنـ لـمـ اـظـفـرـ بـيـغـيـتـيـ مـنـ قـاتـلـ وـالـدـيـ . اـمـاـ الـامـيرـ -

فـلـوـ أـنـ الـجـبـالـ دـكـتـ عـلـيـهـ لـمـ تـرـعـهـ كـهـذـهـ الـأـنـبـاءـ
عـجـباـ سـاقـهـ الـفـضـاءـ إـلـىـ بـيـتـ الـدـيـ الـخـصـومـ وـالـاعـدـاءـ

فـيـلـبـثـ هـنـيـهـ مـنـ زـمـنـ وـاجـهـاـ مـنـ هـوـلـ ماـ يـسـعـ ثـمـ يـذـكـرـ ماـ لـقـيـهـ مـنـ
كـرـمـ مـضـيـفـهـ فـيـضـيـطـ نـفـسـهـ وـيـقـولـ لـلـرـجـلـ - اـنـاـ اـدـلـكـ عـلـىـ خـصـمـكـ فـانـيـ اـعـرـفـ
مـكـانـهـ . فـيـدـهـشـ الرـجـلـ وـيـقـولـ مـنـفـعـلـاـ مـنـ هـوـ ? فـيـجـبـهـ اـنـاـ هـوـ اـقـاتـلـ
وـالـدـكـ فـانـاـرـ مـنـيـ وـاسـقـكـ بـعـدـ دـمـائـيـ . وـيـظـنـ صـاحـبـ الـنـزـلـ لـاـوـلـ وـهـلـةـ انـ
ضـيـفـهـ قـدـ جـنـ . وـلـكـتـهـ مـاـ كـادـ يـتـحـقـقـ صـدـقـ قـوـلـهـ حـتـىـ ثـارـتـ فـيـ نـفـسـهـ عـاـطـفـتـانـ عـنـيـقـتـانـ
عـاـطـفـةـ الثـارـ لـوـالـدـ وـعـاـطـفـةـ الـوـاجـبـ لـضـيـفـهـ . وـبـعـدـ جـهـادـ نـفـسـيـ شـدـيدـ تـغـلـبـ الثـانـيـةـ
عـلـىـ الـأـوـلـىـ -

فـالـ : كـنـ مـنـ تـشـاءـ اـتـكـ خـيـفيـ وـهـوـ عـنـدـيـ مـنـ اـقـدـسـ الـأـشـيـاءـ
لـسـتـ وـالـلـهـ خـافـرـاـ ذـمـيـ مـعـكـ وـقـدـ نـلـتـ مـنـ طـعـامـيـ وـمـائـيـ
وـيـخـنـ الشـاعـرـ قـصـيـدـتـهـ مـبـاهـيـاـ بـحـامـدـ الـاسـلـافـ فـيـقـولـ -

تـلـكـ آـبـاؤـنـاـ وـذـاكـ تـرـاثـ الـجـدـ مـنـهـ بـاقـ إـلـىـ الـأـنـبـاءـ
شـرـفـ فـيـ سـجـاجـيـ ، وـذـكـاءـ فـيـ وـقـارـ ، وـقـدرـةـ فـيـ وـفـاءـ

مـ ٣ـ - ذـكـرـ الـأـمـصـارـ وـالـأـثـارـ) وـهـيـ تـدـخـلـ فـيـ بـاـيـنـ - مـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ الـعـهـودـ
الـإـسـلـامـيـةـ وـمـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ عـهـودـ سـابـقـةـ . وـالـقـوـلـ فـيـهـ وـاسـعـ . وـمـنـ الـأـوـلـ قـصـيـدـةـ بـجـيلـ
الـزـهـاـويـ فـيـ «ـ الـمـسـنـصـرـيـةـ »ـ بـالـعـرـاقـ وـكـانـتـ قـبـلـاـ تـفـاخـرـ بـعـهـدـهـ الـعـلـمـيـ وـهـوـ الـآنـ طـلـولـ
دـارـسـةـ . يـقـولـ الشـاعـرـ - وـاصـفـاـ مـاـ رـآـهـ مـنـهاـ -

وـقـفتـ عـلـىـ الـمـسـنـصـرـيـةـ بـاـكـيـاـ رـبـوـعاـ بـاـهـاـ للـعـلـمـ اـمـسـتـ خـوـالـيـاـ

تُهَبْ دِيَاجِ الصِّيفِ فِي حُجَّرَاتِهَا فَتَلْبِسُهَا تُوبَةً مِنَ النَّقْعِ هَابِيَا
وَتَسْعَى عَلَى الْجَدْرَانِ مِنْهَا عَنَّا كَبْ "تُجَدَّدُ لَهَا فِي مَا تَدَاعِي مِبَانِيَا".

فقالت ألمت خادثات عظيمة وجرت على هذى البلاد الدواهيا
هناك أضجعت دوله عربية بها كانت الأيام ترفع شانها
فكابدتهم منهن الصرف نوازاً وفاست منهن الخطوب عواديا

ومن ذلك أيضاً قصيدة محمود الجبوبي موضوعها بين قصور المتكفل^(١). وقصيدة
حسين وصفي رضا^(٢) وقصيدة الرصافي (سوء المتكلب)^(٣)

واكثر ما يذكر من الامصار الاسلامية الحواضر التي زهرت في الشرق والغرب كدمشق وبغداد وفرطبة واسبيلية وغرناطة والقىروان وسواها . ولا غرابة فان هذه الحواضر مثل عهوداً ذات مجد لا ينسى في تاريخ الاسلام وفي طليعتها بغداد التي تغنى بناصبهما عدد من الشعراء^(٤) .

ولم يكن اهتمام الادب الحديث بالآثار الاسلامية ليحول دون اهتمامه بما سبق الاسلام وهذا قد يكون عربياً او بيتاً الى العرب بصلة ما كثدر ومارب وبيراء وصناعة وسواها. او قد يكون غير عربي كعلبك وصور والمدائن والاقصر وانطاكية وغيرها من خواضر الامم السالفة التي سنشير اليها بعد .

﴿ حضارة العرب ومدنيةهم في التاريخ ﴾ - اي ما قاموا به من جليل الاعمال وما خدموا به العمران البشري كقول اديب اسحق واصفًا دولة العرب وفتحها^(٣) - « شعلة سرت من الحجاز فانارت الشام والعراقين والمغرب والهند . واتصلت باطرا فـ الفرنجية فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس » . ثم يذكر فتوح العرب فيقول على طريقته الخطابية - « فشارت اسود رجاحها على طمور خيوها

(١) راجعها في مجلة الكتاب ٢ - ٣ (٢) المقتبس ١ - ٩٣٥
 (٣) المقتبس ٢ - ٢١٩ (٤) مثل علي الجازم ديوانه ١ - ١٣٩٦ . وإليها أبو ماضي
 المختلف ٥٥ - ٣٦٦ (٥) راجع مقالة في الدرر ٣٠٠

تطوي الصحاري واقطع الفدافد حتى نطحت برو في عزما شرفات الايوان ونسرت من الشرق نسر الرومان، ونشرت على مصر اعلامها، وضررت في الاندلس خيامها».

وفي النثر الحديث كثير من مثل هذا الالتفات الى ماضي العرب وكثيراً ما يقتربن بمقابلة الماضي بالحاضر والاهابة بعرب اليوم الى النهوض من حالة الهوان وتلافي ابره قيل فوات الاوان . ولا يقصّر الشعر عن النثر في ذلك . ومن امثلته قصيدة طحيب العبيدي موضوعها «العرب الكرام» وهي تقع في ١٤٠ بيتاً كلها مفاخرة بفتح العرب تحت لواء الاسلام وخدمتهم للحضارة وال عمران . كقوله^(١) : -

بِدَا النُّورَ مِنْ بَطْعَاءِ مَكَّةَ سَاطِعًا
فَضَاءَتْ بِهِ فِي أَرْضِ يَثْرَبِ دُورَهَا
فَمَنْزَقَ أَبْوَانًا لِكَسْرَى مُشَيْدًا وَأَخْدَمَ نَيْرَانًا شَدِيدًا زَفِيرَهَا
وَاجْفَلَّ مِنْهُ قِبْرَى فَوْقَ عَرْشِهِ وَدُلْتَلَهُ بُصْرَى وَدُكْتَ قَصْوَرَهَا

وبعد ان بعدَ الاقاليم التي افتحوها في الشرق والغرب يقول مفاخرآ بحضارتهم

وَكُلَّّ بَلَادَ قَدْ وَطَنَّا صَعِيدَهَا غَدُونَ رِيَاضًا زَاهِيَاتٍ زَهُورَهَا
وَأَبْنَقَ أَحْسَانًا وَعَدْلًا وَحُكْمَةً وَعَلَمًا وَفَضْلًا زَاخِرَاتٍ بَجُورَهَا
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَصِيدَةُ لِعَمَرِ أَبْوَرِيشَهِ مَوْضِعُهَا «لَحْةٌ» وَمَطْلَعُهَا^(٢) -

أوقفي الركب يا رمال البَيْدِ إِنَّهُ تَاهَ فِي مَدَاكَ الْبَعِيدِ
وَفِيهَا يَصُفُّ بِزُوْغِ الْوَحْيِ النَّبُوِيِّ فِي سَمَاءِ الصَّحَراءِ ثُمَّ يَذَكُّرُ مَا كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ
وَقَرِيشِ وَكَيْفَ تَوَطَّدُ الْإِسْلَامُ فِي الْجَزِيرَةِ فَدَفَعَ الْعَرَبَ إِلَى الْفَتحِ

وَفَقَتْ مَوْجَةُ الْمَدِيِّ تَغْسلُ الشَّرْكَ وَتَرْوِيِ النُّفُوسَ بِالتَّوْحِيدِ
فَرَمَتْ بِالْكَتَابِ الْحُرْسَ رُومَا وَبَاطَلَهَا الغَزَّةُ الصَّبِيدِ
وَضَفَافُ الْيَرْمُوكَ تُرْسَلُ مِنْهَا زَفَرَاتُ الْحَدَاءِ لَابْنِ الْوَلِيدِ

وَأَمَّةٌ مِثْلُ هَذِهِ عَرَفَ لَهَا التَّارِيخُ الْوَقَائِعُ الْفَرَّ في فَارَسْ وَغَيْرِ فَارَسْ وَانْتَشَرَتْ
حَضَارَتُهَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ هِيَ عِنْدَ الشَّاعِرِ

أَمَّةٌ يَعْرِبِيَّةٌ تَرَكَتْ فِي مَسْعِ الْدَّهْرِ آيَةَ التَّمْجِيدِ
وَلَكُنْ أَبْنَاءَهَا لَمْ يَطْلُبُوهُمُ الْحَالَ حَتَّى تَنَابَذُوا فَضَعَفُوا وَذَلُوا -

(١) راجع القصيدة في كتاب الادب العربي في العراق (طبعي) ١٣٦ - ١

(٢) راجعها في ديوانه الاول ٩٧٩

وخيت نارهم وصُبّ عليهم عاصفات التعذيب والتنكيد
وانتهت سيرة البدود البنا فجررنا القيود إثر القيود
والتفتنا فلم نجد غير ملك مزقته اصابع التبذيد
وهنا يلتفت إلى عروس الرمال وشمس المجد القديم طالباً منها أن ترسّل أشعتها
لعل القوم يستيقظون من سباتهم وينهضون من كبوتهم .

ويقف شاعر آخر على « طاق كسرى وهو من آثار الفرس في المدائن » فيناشد
أن يحدّث العرب عن مجدهم القديم فيقول من قصيدة^(١) -

يا طاقَ كسرى ويا بُقْيَا مدائِنِهِ وَقَدْ طَوَى الْدَهْرُ عَنْهُ كُلَّ مَا نَشَرَ
خَبَرَ بْنِي يَعْرَبٍ عَنْ بَعْدِهِ وَأَعْدَ عَلَى الْمَاسَعِ مِنْ قَارِبِهِمْ سُورَا
هَذَا الْمَجْدُ الَّذِي أَصْبَحَ اطْلَالًا بَالِيَّةً « نَسْتَمِدُ الْقَوْيَ مِنْ وَحْيِ ذَكْرِهَا^(٢) » .

وقد ترى من المشيدن بتاريخ العرب وحضارتهم القديمة من يندد بالحضارة الحديثة
الآتية من الغرب وهو يخشى أن تطفى على الشرق وتختفف شبابه في ثياراتها . وفي
مقدمة هؤلاء مصطفى لطفي المنفلوطى الذي يدعى إلى تنشئة الجيل الجديد تنشئة
شرقية عربية فيقول^(٣) - « ان دعوナهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضاراة بغداد
وقرطبة وتبية وفيينا لا بباريس وروما وسويسرا ونيويورك . وان دعوناهم إلى
مكرمة فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة واقوال انباء الشرق وحكاياته لا آيات
روس وباكون ونيوتون وسبنس . وان دعوناهم إلى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد
وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابوليون
وليجتون وواشنطن ونلسون وبلاوخر . وفي وقائع القادسية وعمورية وافريقيا
والحروب الصليبية ما يغنينا عن وقائع واتلو وترافلغار واسترليتز والسبعين ». ومثل
المنفلوطى عدد غير قليل من الذين يقفون موقف الخذر من حضارة الغرب ويدعون
النشئة الجديدة إلى الاقتداء بأسلافهم وإنجاد السبيل التي سلكوها نحو أهدافهم .

قد يقال إن الأدب العربي الحديث لم يقف عند حد المفاخرة باجداد العرب فان-

(١) مجلة الاعتدال (التجف) مج ٦ ع ٣

(٢) راجع ايضاً قصيدة « على طال » لـ محمود غني في الرسالة ٩٩١-٣ ، ١٠٢-١٠٣

(٣) راجع مقال له «المدينة الفريدة» في النظارات

له لفنتات الى امم اخرى سبقت العرب وتركت آثار حضارتها في الشرق العربي . ومنهم مثلاً الفينيقيون الذين زهوا على خفاف بحر الروم الشرقي وقد عرفوا بعمر انهم التجاري والصناعي وما قدّموه للعالم من اسباب الرقي . والى ذلك يشير خليل المطران اذ يقول من قصيدة :

أهل فينيقيا سلام عليكم يوم تفني بقية الادهار
لكم الارض خالدين عليها بعض الاعمال والآثار
ومثله سليم حيدر في قصيده « بعلبك »^(١)
وفي الفينيقيين ومازتهم يلهم عدد من ادباء لبنان في هذا العصر

ومنهم قدماه المصريين الذين كانوا من اعظم الامم القديمة ومن واضعي اسس العمران البشري فلا عجب ان يقول فيهم شاعر مصر :

مشت بنارهم في الارض روما ومن انوارهم قبست اينما
ولهذا الشاعر وسواه قول كثير فيهم وفي مآثرهم^(٢) .

وهناك اليونان والرومان وآثارهم منتشرة في الشرق العربي - بقايا هيكل وقصور وملاءع وطرق وقانيل وهي تعكس لنا في الادب الحديث بصور شتى من الاوصاف والذكريات^(٣) .

ومن قبيل الانفات التأريخي استήجا ما جاء في الاخبار المقدسة والاساطير القديمة وليس ذلك بالشيء القليل في ادبنا الحديث^(٤) .

* * *

(١) راجعها في الادب (بيروت) ٥ ج ٦

(٢) راجع لاحمد شوقي في ديوانه - قصائد « ابا النيل » و « قفي يا اخت يوسف » و « درجت على الكتب السنون » ، ولمحمد المراوي - « ابو المؤول » في مجموعة احسن ما كتبت (دار الملال) ١٩١١ ، ولعبد الرحمن شكري - قصيدة في الرسالة (مصر) العدد ١٥٩ ، ووقفة للمطران - المقططف ٦٦ - ١٢٩ ، ووقفة لراحي الراعي - المقططف ٥٦٥ - ٨٧

(٣) راجع قصيدة « على شلالات دنقلي » في مجلة الكلية ١٥-٢٨٥ والمورد المصافي ١٤ - ١٣٥

(٤) راجع من ذلك - مريم المجدلية وقدموس وعشرون لسعيد عقل ، وشمدون لالباس ابروشبكه في ديوانه افاعي (الفردوس) ، وسديوم له في المكتشوف ٢ ع ٤٢ ، ومن اعمال الجبيل لصلاح لبكي ، والبعث الاول لمלי محمود طه (ديوانه) ، وطوفان نوح لميداللطيف (التشار الملال ١٩١٨-٢٠) ، والرذيلة للمبودة لزييف الخوري البرق ٣٦٢٩ ، والنداء لابعد طرابلس - الرسالة ٥٦٢ ، واللام خليل الحنداوي - ارساله ٣ - ١٦٢٦ .

قد يقال كل ذلك - وهو لا شك صحيح : على ان الروح السائدة في الادب العصري الحديث هي المستمدّة من تاريخ العرب وحضارتهم . هي تلك المباهية بما في امجادهم والداعية الى تأسيهم وتضامن اقاليمهم . ولقد رأينا كيف نقلت بها منذ بدء النهضة شئ الاحوال السياسية وكيف صارت لها التعرات الاقليمية حتى كادت تخفيت او غوت . على انها ما زالت حية في الادب ولم تعد في خلال حفتها ما يوقد نارها ويشبّ اوارها . ومن ذلك قضية فلسطين وما اصاب الحسين بن علي وابنه علي ثم موت فیصل الاول وابنه غازى وغير ذلك من الحوادث المأمة . اخف الى ذلك ما احدثه وطأة الانتداب من ثورات وما نشأ في نفوس العرب بعد الاستقلال من مطامع وآمال^(١) .

فلسطين تعدّ قضية قومية عامة ولذا نرى الادب العربي في كل قطر يعطّف عليها ويتم بصيرها . ولو جمعت الاقوال التي قيلت فيما منذ بدء الانتداب البريطاني في هذا العهد ملأة عدة مجلدات . ومن اراد ان يعرف الشعور الادبي العام فليطالع ما نظمه الادباء في هذا الموضوع وهو كثير لا يحصى^(٢) .

ولعلّ شعر المرحوم ابراهيم طوقان (نابلس) اصدق مرآة حال فلسطين السياسية والاقتصادية وهي في طور الانتداب . ونفتاته الوطنية الحارة منشورة في مختلف الصحف كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسوها^(٣) . والذى يشاهد ما آلت اليه القضية الفلسطينية وما دهى ابناء العربية في البلاد المقدسة يرى صدق ما قلنا به هذا الشاعر الشاب اذ قال من ايات له -
يا حسرتا ماذا دهى اهل الجنى فالعيش ذلة والمصير بوار

(١) لمعرفة ما نشأ عن ضغط الانتداب من تقوية الدعوة الى الجامعة العربية ، راجع مقال عبد الرحمن شهيندر . الحال - ٦١ - ٧٥١

(٢) راجع « الامثلة الثالثة » : قصيدة مهدي الجواهري « فلسطين الدامية » ديوانه (١٩٣٥) ١٧٦ . قصيدة بشاره الخوري « جهاد الجيارة » الرسالة مصر - ٦ - ١٦٧٢ قصيدة اليعنوفي « النظارات السبع » مطبوعة على حدة . قصيدة امين ناصر الدين في ديوانه الاعلام . قصيدة محمود حسن امهايل في « هكذا اغنى » ٢٣٣ . قصيدة محبوب الشرتوبي ديوانه ١٢٦ . قصيدة الشاعر الفروي « وعد بالغور » في الاعاصير . مجموعة الفلسطينيات لجمعية الرابطة العلمية في النجف .

(٣) وقد جمعت شفقته شعره ونشرته في ديوان خاص

ارأيت اي كرامة كانت لهم واليوم كيف الى الاهانة صاروا

اما الحسين ملك الحجاز و معلم الثورة العربية ففي انتقاله الى قبرص ، عقب الحرب السعودية الماشية ثم في موته عبر حرب كت العواطف القومية وأثارت الشعور الادبي العام فتاجج في كثير من النثر والشعر . وبذلك بعض القصائد التي قيلت فيه وهي قل من كثُر ، بل وشُل من بحر فلاشوفي مرثاته : -

لَكَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّماءِ مَا تَمَ قَامَ فِيهَا أَبُو الْمَلَائِكَ هَاشِمٌ
وَلَنَاصِرِ الدِّينِ : -

أَبَا الْمَلُوكِ أَجَبَ أَبْنَاءَكَ النَّبِيَا
وَلِفُؤَادِ الْخَطِيبِ : -

هِيَ الْمَوَاكِبُ فَأَشْهَدُ كَيْفَ تَبَتَّدِرُ
كَالْسِيلِ مَصْطَبُ التَّيَارِ يَنْحُدِرُ
أَوْفَتْ نَوْدَعَ جَهَانَ الَّذِي نَعْبَطَ
إِلَى الْجَزِيرَةِ فِي أَكْفَانِهِ مَضَرِّ
وَلِشَفِيقِ جَبْرِيِّ : -

نَلَمْ قَرِيشَ وَمَا جَفَّتْ عَوَالِيهَا
عَلَى الْحَطِيمِ وَلَمْ تَنْشَفْ بِوَاضِبِهَا
مِنْ ذَا كَرِّ فِي ظَلَالِ الْبَيْتِ ثُورَتْهَا
وَالْعَهْدُ غَيْرُ بَعِيدٍ عَنْ لِيَالِيهَا
وَلَابْرَاهِيمِ طَوْقَانَ - ذَكْرِي ثُورَةِ الحسينِ : -

أَطْلَقَيْ ذَاكَ الْعِيَارَا قَدْكَ ضَيْماً وَاصْطِبَارَا
يُطْلِبُ العَزِّ ابْنَادَارَا يَدْرَكُ الْجَهَدَ افْتَسَارَا

وَلَاسْكَنَدُرُ الْخُورَيِّ الْبَيْتَجَالِيِّ : - حِيَ الْبَطْوَلَةَ وَالْعَلِيَّ
وَلِبَدْرِ الدِّينِ حَامِدَ - فِي خَلَافَتِهِ

تَاجَ مَجَدَ الْحَلَاقَةِ اَنْتَظَرَا فَوْقَ رَأْسِ الْخَلِيفَةِ الْعَرَبِيِّ
كَمْ لَبَنَا السَّنَينِ فِي وَجْلِ وَذِرْقَنَا مَدَامَعَ الْحَرَبِ
وَلَهُ فِي مَنْفَاهِ إِلَى قَبْرِسِ : -

اسْرَفْتَ فِيهَا جِئْنَهُ بِاَزْمَانِهِ فَمَا لَعَهْدِكَ مِنْكَ بِوَمَا اَمَانَ

وللجوهري في ذلك : -

هي الحياة باحلاه وامرار غضي شعاعاً كزند القادح الواري

وله من حبها بالحسين الى العراق : -

ارى الشعب في اشوافه كالمعلق لما حدثوه عنك يرجو ويتنقى

وشيه بما قيل في الحسين ما قيل في ابنه الملك علي فقد نظمت فيه مرات وطنية
تشف عن شعور العرب في مختلف الامصار نذكر منها هنا قصيدة شبلی ملاط : -

امن جرح على جرح دمي الام يصاب بيت الماشمي
فما كاد الحسين يغيب حتى هاوت شہب فیصل والعلی

على ان الفجيعة الكبرى عند ادباء العرب كانت موت فيصل وقد اقيمت له مأتم
في مختلف الاقطارات العربية وفي المهاجر . والاقوال فيه كثيرة فهو عند الجميع بطل
العروبة وحاملا لوابها . وبالبك على سبيل التمثيل بعض ما وصلنا من المرافي فيه : -

بشير الزهاوي - فجمع المشرقين خطب جليل وعرى المقربين حزن طويل
لامين الريحااني - حلق النسر في الفضاء بعيداً - (وهي قطعة من الشعر المنشور)
ل بشارة الخوري - لبست بعدك السواد العواصم واستقلت لك الدموع المأتم
محمد البزم - رُم عظيماً اذا أردت خلوداً
ل الدكتور أبي شادي - هكذا هكذا شعوب تُبْتَم
علي محمود طه - تألق كالبرقة الخاطفة
للشاعر القروي - أقصى التجلد ان العقل منهزم
لوديع البستاني - قمر - وبنت الفجر - والثقلان
حليم دموس - هوى من سما عليه بعد ان سما
لأبراهيم طوفان - شيعي الليل وقومي استقبلي
صلاح البابيدى -

فالموت من جند الملك الاعظم
صلاح الرفاعي - علم العروبة غار في العلباء
لعبدالمسیح محفوظ: عقری الملوك أی فؤاد
اسكتته يد الزمات العادي

هذا فضلاً عن كثير من الاناشيد الشجانية، وكمثال لها نثبت بعض فقرات من نشيد الكثاف المسلم في صيدا : - دافعت بالصدق عن حرمة الحق والناس قد كانت في الغرب والشرق

تراك يا فيصل
تراك يا فيصل
اليأس قد أبلى في الناس واستولى
في رحبة الوادي عروبة تكلى
تقديك يا فيصل
تقديك يا فيصل

وقس على ما ذكر ما لا يمكن حصره هنا من الخواج الشعري والنثرية في شتى الأقطار العربية .

وقد تجددت العواطف القومية ببوت الملك غازي وبنا قبل فيه من مراثٍ تقipض بالشعور العربي. فكان مأته في العراق مظهراً قومياً شاركت فيه العراق سائر الأقطار العربية^(١) ولسان حالها يردد مع الشاعر المصري علي الجارم

اتينا لنقضي للعروبة حقها يسابق وفداً في تلهيفه وفداً

فلسنا نبعد عن الصواب اذا قلنا انه على الرغم من اختلاف الاغراض السياسية وتشابك المصالح الاقليمية وتضارب النزعات الشخصية ظلَّ الادب العربي شديد التأثير بالرابطة العربية العامة .

* * *

ولا ينكر ان القومية الاقليمية لا تزال اقوى العوامل السياسية في البلدان العربية وربما ظلت كذلك احقاباً طويلة . وقد كان من الطبيعي ان تتطور فكرة الوحيدة حتى في الادب نفسه . فان الشعور الادبي اليوم غير ما كان يوم دخل فيصل الاول دمشق - كان الشعور يومئذ دعوة شديدة لتأسيس المملكة العربية المتحدة ذات العرش الواحد ولارجاع المجد العربي القديم . ولكن لم يبق كذلك بل نطور

(١) راجع اقوال المؤرخون المختلفة في جريدة بيروت المعددين ٧٦٣ و ٧٦٤

بتطور الاحوال فتدرج من الوحدة الى الاتحاد - والاتحاد غير الوحدة - ثم اصبح اخيراً دعوة الى تحالف اخوي يشد ازر كل اقليم ولا ينس استقلاله وعلى هذان ثبات جامعة الدول العربية .

على ان الشعور العربي الادبي كما رأينا لا يزال يحمل بجد القومية الكبرى القائم على التعاون العام وذلك منعاً لهذا التفكك الذي لسنا خرره الجسيم في التزاع العربي الصهيوني والذي يخشى ان يقودهم في المستقبل الى هوة الشقاء

فكما ان افراد الاسرة الواحدة قد يستقلون بعضهم عن بعض وتبقي مع ذلك رابطة الاسرة بينهم ، حتى اذا املت بهم ملمة كانوا يداً واحدة فلا يتمنى لاحدان يستبعدم او يستندهم ، كذلك مصر وسوريا والعراق ولبنان وسائر الدول العربية المستقلة متى يرى كل منها في موكب الحضارة والتقدم على طريقتها الخاصة دون ان يقضى بذلك على روح التعاون الفعال بينهم

وانك لنلمس هذا الشعور في كل قطر عربي اليوم فليس بغرير ان تسمع لبنياناً يقول في وطنه^(١)

عربيَّ النجار شَدَ عِرَاهُ باللواينِ عبد شمس وهاشم

وآخر يقول في ابناء العرب من قصيدة^(٢)

وهل هُمْ غَيْرُ أَخْوَانٍ فِي حِظْوَانٍ وَيَشْقُوا فِي مَسَايِّعِهِمْ سُوَيْةٌ
لَنَا بِلَسَانِنَا وَطَنٌ كَرِيمٌ وَفِي تَارِيْخِنَاهُ صَلَةٌ قَوِيَّةٌ

ومثلها كثيرون في لبنان .وها ان الادب المصري قد اخذ يتجه هذا الاتجاه داعياً الى الاخاء والاتحاد والوثام في ظلّ العروبة^(٣).اما العراق وسوريا فقد كان ادبها ولا يزال رائماً الى تعزيز العروبة والتغنى باجادها . وقل كذلك في سائر الاقطار

* * *

(١) من مرثاة بشارة الخوري في فيصل (٢) مجلة الكلية (بيروت) حزيران ١٩٣٦

(٣) راجع من ذلك : / قصيدة لامحمد محرم في جريدة النداء (بيروت) ٢ حزيران سنة ١٩٣٣ وقصيدة العروبة لعلي الجازم ، وഫخرة الرشيد للدكتور اي شادي ، وديوان محمود ابو الوفا ٨٦٠ وسواها .

تلك هي رسالة الادب القومي اليوم . وقد كاد الزمان يتحققها في جامعة الدول العربية وما تهدف اليه من وثام ، واصبح في صدور العرب على اختلاف افاليهم وثقافاتهم واصولهم ونحلهم امل بنهضة قومية عظيمة تجعل من مجموعة دولهم مع الحافظة على استقلال كل منها جبهة قوية تجاه المطامع الاستعمارية ونظاماً صاحباً لتحسين احوالهم الاقتصادية والاجتماعية . فهل يتم لهم ذلك على اساس ثابت من الاخلاص والاعيان والعمل ، ام يظلون على حاليهم من الضعف والتآخر بين اقطاعية تذلهم وطائفية تعميهم وفوضى اخلاقية وسياسية تسلّلهم وتنعهم عن بحارة الامم الحية الراقة ؟

ذلك ما نترك الجواب عنه للزمان !



رفع أ. علياء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

تم الجزء الاول من هذا الكتاب ويليه الجزء الثاني وهو قسمان .

يتناول الاول منها النهضة الاجتماعية في العالم العربي وما ينعكس عن
الحياة الشعبية العصرية من آثار ادبية . ويتناول القسم الثاني التزعمات الفنية
في ادبنا الحديث وللعوامل الفعالة في تطورها .

وينتهي الكتاب باس提راكات عامة وفهارس وافية للمراجع والباحثين والاعلام .

